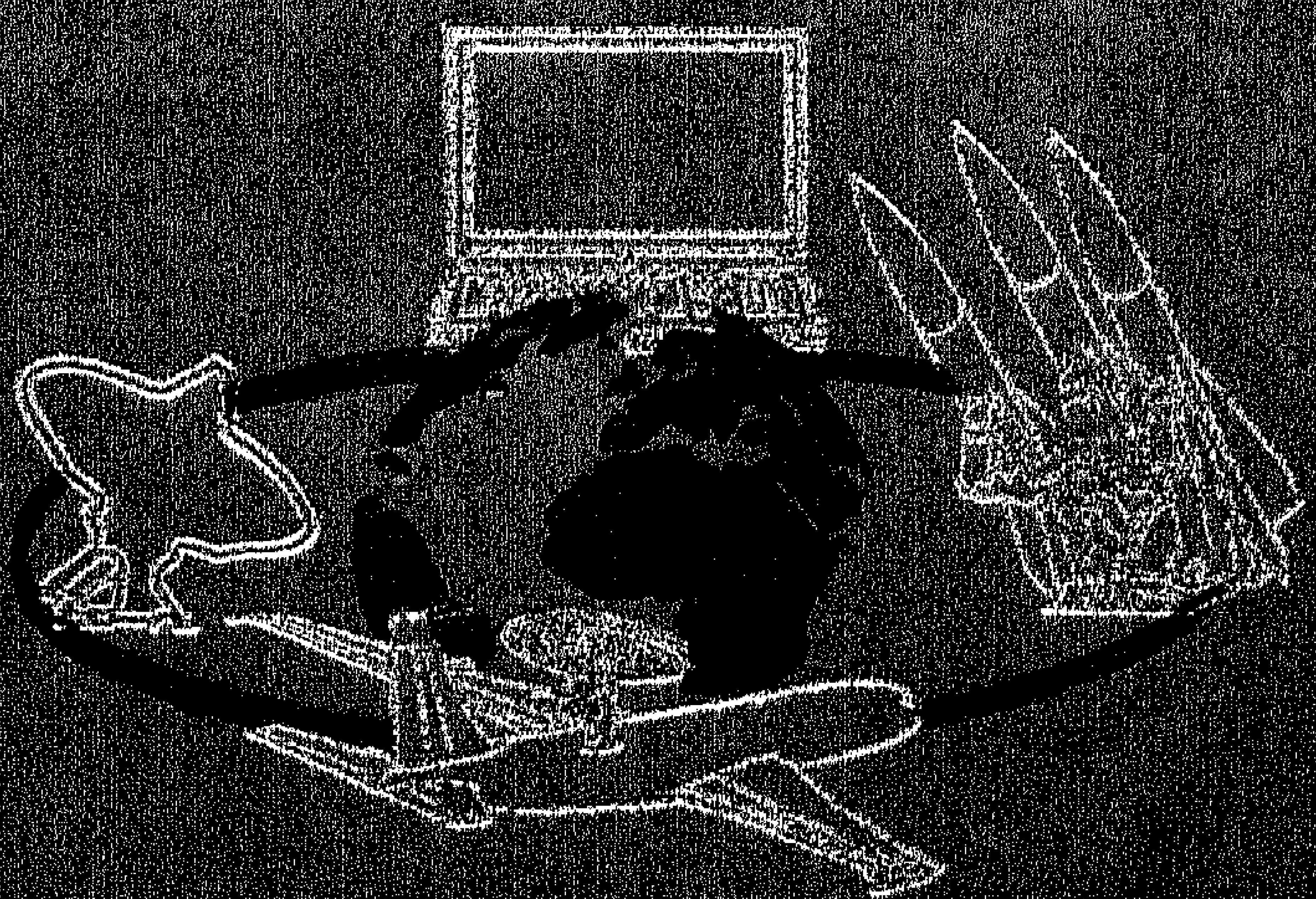
موسوعة عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم



NOBILIS

موسوعة عَالَم المخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العَالَم

الجَاسُوسيَّة في حقَبَة الحَرب البَاردَة (١)

أسعَد مفرِّج

ولجنَة من البَاحثين

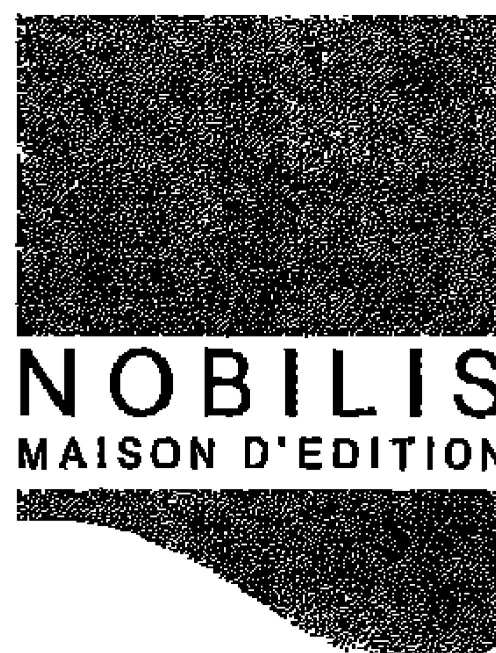
موسُوعَة

عَالَـــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارات في العَالَم

الجزء الثَّامن عشَر

الجَاسُوسيَّة في حقبَة الحَرب البَاردَة (١)



إسم المَجموعَة	:	عَالَـــــم المُخابَرات كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم
إسم الكِتَاب	:	الجَاسُوسيَّة في حقَبَة الحَرب البَاردَة (١)
الجزء	:	الثَّامن عَشَر
المؤلّف	:	أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مكَان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

بدايات الحرب الباردة

إذا أردنا أن نفتح صفحة التاريخ ونقص قصصه، فلا بدّ من أن نذكر أين هو العالم اليوم، وتكفي جملة واحدة للإجابة على ذلك، لقد دخلنا، منذ زمن، في عصر عسكريّ جديد. يفكّر كثير من النقّاد أنّ القنبلة النوويّة لم تغيّر من طبيعة الحرب بل نشرت القدرة الناريّة نحو اللانهاية ووضعت حدًّا قاطعًا بين من يمتلكونها أكثر ممّا فعل البارود في زمن أسلافنا.

لا شكّ في أنّنا دخلنا، عام ١٩٤٥، عصرًا عسكريًّا كامل الجدّة. فإذا عدنا إلى اعتبارات الحسّ السليم، نجد أنّه منذ معركة "كريسي" عام ١٣٤٦ حتّى عام ١٩٤٥، تميّزت الحرب بازدياد أهميّة النيران بالنسبة لعناصر الفوز الأخرى كالحركة والمناورة وقيادة الجيوش على أرض المعركة. فالنار كانت أشدّ فتكًا بالبشر طيلة ستّة قرون بسبب التحسينات على المتفجّرات التي وصلت إلى النتروتولين الذي أُضيف إليه بعض التعديلات مثل الفوسفور والنابالم وغيره، فضلاً عن ازدياد إمكانيّة نقله إلى معسكر العدوّ بالمدافع الضخمة والدبّابات والطائرات. لكنّ هذا التطّور كان تدريجيًّا لأنّ النار لم تتبدّل في طبيعتها. ففي كلّ مرحلة كان يطرأ تغيير إلاّ على كميّة المتفجّر الكيميائيّ بإضافة قليل من البارود. لذا جُمعت هذهِ القرون الستّة المنصرمة تحت اسم "عصر النروتولين". بالمقابل أحدث انفجار القنبلة الذريّة في هيروشيما عام ١٩٤٥، انفصامًا قذفنا في يوم واحد إلى عصر جديد. إنّ الأضرار التي سبّبتها القنابل الذريّة الأولى كانت محدودة إذا قارنّا عدد الضحايا في هيروشيما البالغ ٧٠ ألفًا، بعدد

الضحايا الذين سقطوا بسبب قصف مدينة "درسدن" بالطائرات الحليفة في ١٤ شباط ـ فبراير ١٩٤٥، وكان ١٤٥ ألف قتيل. فمن الواضح إذن أنّ قنبلتَي هيروشيما وناغازاكي لم تكونا أكثر من مجزرتَين بين المجازر العديدة الكبرى عبر التاريخ. لكن هناك حدث فهمه البشر مباشرة، هو أنّ القنبلتَين لم تكونا إلاّ تجربة أو بداية صغيرة لم تشعر بها إلاّ اليابان التي كانت متشدّدة لدرجة اللاإنسانيّة فاضطرّت للرضوخ، إذ أيقنت أنّ أيّ مقاومة ليست إلاّ انتحارًا فركعت صاغرة، ولم يغيّر عدد من القنابل بمثل هذا الصغر من وجه البشريّة. وكما تنبّأ العالم بأنّ العلم الجديد قفز من مرحلة الستّة أطنان من المتفجّرات في قنابل الفولكانو التي كانت تصبّها القوّات الجويّة الملكيّة، إلى مرحلة العشرين ألف طنّ، أي بزيادة ٣,٣٠٠ مرّة، إلى مرحلة القنابل الهيدروجينيّة وهي أكثر قوّة بمليونَي مرّة. ولقد قُدّر، بمئات الملايين، عدد القتلى عند حدوث أيّ نزاع نوويّ في أيّام ذلك النزاع الأولى، مع التخمين بأنّ الباقين على قيد الحياة سيقضون، بعد ذلك، نحبهم بسبب النشاط الاشعاعيّ المتبقّي. وتظهر لنا حقيقة واضحة هي أنّه لن يكون هنالك من غالب أو مغلوب في أيّ حرب عالميّة، بل ضحايا.

في قصّة مشهورة للمؤلّف "بات فرانك" في كتابه "هذا العالم الذي لم يُنقذ" يتحدّث عن مجموعة من الناجين من حرب ذريّة عادوا ليعيشوا في مجتمع وفي منطقة لم يمسّها الضرر إلاّ قليلاً. وبعد عام أو عامَين، تقوم رئيسة الولايات المتّحدة، وهي العضو الوحيد المتبقّي من الحكومة المذكورة على قيد الحياة، فترسل لهم حوامة تحمل مراقبين للنشاط الإشعاعي الذريّ لكي تتيقّن من أنّ ملجأهم آمن. وعندما همّ المراقبون بالرحيل بعد يومين من المكوث في الملجأ، سألهم أحد الناجين: بالمناسبة يا جماعة، مَن الذي ربح الحرب؟ لم يجب أحد على السؤال. والحقيقة أنّنا شهود لحدث يتجاوز بلا شكّ الثورة في الحرب، ولربّما تحوّلاً في طبيعة الحرب. والنتيجة التي اعتمدتها

الاستخبارات في كافّة القوى العالميّة: "يجب ألاّ نتحارب حربًا نوويّة". والاستراتيجيّة هي فنّ مواكبة عمل القوى العسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة، وما عداها بهدف الحصول على النصر في الحرب. تلك هي مهمّة الحكومات والقيادات العسكريّة العليا. وحتّى تاريخ ٤ آب ـ أغسطس ١٩٤٥، كان العالم يفكّر بمنطق الفيلسوف العسكريّ الألمانيّ "كلوفيتس": "إنّ الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى". فالحرب المكتسبة بنفقات أقلّ مثل الحرب العالميّة الأولى التي ربحتها فرنسا يمكن أن تكون عقلانيّة وذكيّة ومنتجة، ويمكن أن تكون مبرّرة إن لم يكن أخلاقيًّا فعلى الأقلّ ماديًّا. لكن منذ ٦ آب ـ أغسطس أضحى شكل آخر من الحرب قائمًا هو الحرب العلميّة. وهذه الحرب انتحار جماعيّ كونيّ، وليس الموت استمرارًا لشيء وخاصّة للسياسة، بل نفيًا لها. وليس بين الإثنين صلة أو أيّة قرابة أو مقارنة محتملة.

بداية الحرب الثوريّة، عندما استسلمت ألمانيا النازية في ٢٤ تمّوز ـ يوليو ١٩٤٥، ممّا سبّب تضعضع اليابان، إجتمع الكبار الثلاثة في بوتسدام معقل العسكريّة البروسيّة وعقدوا آخر المؤتمرات الكبرى المتعلّقة بسلام ما بعد الحرب. وكانوا يلتقون يوميًّا منذ السابع من تمّوز ـ يوليو المذكور في قصر "كرونرنيتس" الذي كان الروس ضيوفه الوحيدين قبل ذلك. كانت قد انقضت عشرة أيّام وفي جيب هاري ترومان برقيّة ذات نصّ عائليّ يقول "لقد وُلدت الرضّع". وكانتا اثنتَين في قبيلة ترومان بالمعنى المجازيّ طبعًا، ذلك يعني أنّ القنبلة الذريّة الأولى قد نجحت تجربتها في "ألاموجوردو" في صحراء المكسيك الجديدة، وكانت القنبلة الثانية في عنبر الطرّاد إنديانابوليس المتّجه إلى جزيرة تينيان حيث ستنقلها طائرة تحمل اسم "إينولا غا" لتقصف بها الآريّين الصفر. ومضت عشرة أيّام دون أن يتفوّه ترومان بكلمة واحدة إلى ستالين الذي كان "العمّ جو" المحبوب بالنسبة لسلفه روزفلت. وطبيعيّ أن اختلافًا ما قد حدث في

العلاقات الأميركيّة الروسيّة منذ أيّام ترومـان. وربّمـا كـان ذلـك بسـبب قـانون التضـادّ حيث كان ستالين القويّ البنية يبهر الرجل الناعم المقعد والمشرف علـى المـوت وهـو روزفلت، الذي كان يحلم بأن يهيّء عالمًا جديدًا أفضل مع زميله الروسيّ، وكان يـرى فيه ديمقراطيًّا ذا نيّة صادقة أكثر من صديقه تشرشل الإمبرياليّ المتخلّـف والأقلّ قـوّة وبالتالي الأقلّ فائدة كحليف. وكان ترومان أقلّ تكلّفًا، كما كـان يقـال فـي وطنـه، وأقلّ تأثّرًا، وكان يأخذ ستالين على أنّه هتلر جديد لذا لم يكن لديـه أيّ رغبـة بـأن يسـرّ إليـه بشيء جديد. ولكن، عندما حان أوان الفراق بعد أن أعادوا توزيع العالم في ٢٤ تمّوز ـ يوليو، رأى ترومان أنّه من اللياقة بمكان أن يطلع حليفـه علـى قـرب انسـحاق اليابـان. فقال له، بدون تعليقات طويلة، وكان ذلك عند الولوج بين بابَين من أبواب المؤتمر، بـأنّ الولايات المتّحدة تمتلك سلاحًا ذا قوّة فائقة. ولم يبدِ ستالين أيّ دهشـة أو فضـول لأنّـه كان يعرف ذلك بواسطة جواسيسه، واكتفى بأن عبّر عن تمنّيّاته لأولئك "الرضّع الذيـن وُلدوا"، وأسرع ليعلن الحرب على اليابان في الوقـت الموعـود بعد ثلاثـة أشـهر ويـوم واحد من هزيمة ألمانيا، في التاسع من آب ـ أغسطس ١٩٤٥. وربح ستالين المنـاطق المتجمّدة الشرقيّة، فلم يكن عليه إلاّ أن يحتلّها حتّى المحيط الهادئ. ولم يكـن روزفلـت يملك، في قرارة نفسه، إلاّ أن يشكّ في عزيز سلفه "العم جو" لكنّه كان يؤمن بأنّـه كـان يتصرّف بحكمة إذ أولاه الثقة. وهكذا قدّم له بعض العواصـم كهدايـا مثـل بـراغ وفيينـا وبرلين، والتي كان من الممكـن ألاّ تكـون فـي جعبتـه كمـا هـي الحـال مـع بوخارسـت وصوفيا ووارسو وبودابست.

كان الجوّ السريّ الجديد بين روسيا وأميركا، الذي نفحته القنبلة الذريّة، هـو الـذي جعل بوتسـدام تجبر رئيسَـي الدولتَيـن العظميَيـن علـى معرفـة أنّ مواجهتهمـا محتومـة وأنّها، لا شكّ، ستتّخذ أشكالاً جديدة. والحقيقة أنّ الحرب الباردة قد نشبت في ٢٤ آب ـ

أغسطس ١٩٥٤، في بوتسدام، حيث انتشرت المظلّة السياسيّة لقنبلة "ألاموجوردو". ولقد انطلق الاثنان وفي رأسيهما فكرة رئيسيّة كان فيها الأميركيّ يظنّ بأنّه سيسيطر على الروس بسبب احتكاره للقنبلة، وكان الروسيّ يريد أن يتجنّب هذا الاحتواء بحرب مقبلة تسمح له باتّخاذ زمام المبادرة أمام عدوّ جديد. فكيف كانت حالة القوى بين الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ؟

في السبيل إلى الهجوم... خرج الاتّحاد السوفياتيّ من الحرب بعد أن عانى كثيرًا إذ فقد عشرين مليون قتيل، ودمّرت المناطق الهامّة فيه، وانخفض الانتاج الصناعيّ بمقدار النصف، وتدمّرت زراعته. وبقيت له أعداد من المشاة لا تحصى، وقادرة على تحمّل شظف العيش مهما بلغت قسوته، والتي يمكن أن يطلب منها أيّ شيء فتلبّيه بعد أن شحذ النصر هممها. ويكفي عدم تسريح المشاة وأن يعود الحلفاء إلى بلادهم. وربّما كان ذلك خلال عامَين فيستطيع الجيش الأحمر أن يحتلّ أوروبّا إلى المتوسّط والأطلسي، ويكتفي، بعد ذلك، بأيّ غنيمة يلقاها مهما كانت تافهة. وأيّ نصر لستالين عندها، وهو وريث القياصرة الذين لم يكونوا ليحلموا بأكثر من الوصول إلى المياه الدافئة عبر القسطنطينيّة. لكنّ ستالين كان مذعورًا وجاء ما يثبت ذلك في بوتسدام عندما أتى الاحتكار الأميركيّ للسلاح النوويّ ليهدم هذه التصوّرات، حيث كان بإمكان بعض القنابل الذريّة أن تدمّر معظم العواصم الاشتراكيّة، فتتدحرج الرؤوس بسبب تدمير المراكز الحيويّة الرئيسيّة. فهل تنبّأ ستالين بالتضادّ الروسيّ الأميركيّ منذ سقوط هتلر خاصّة بوضعيّة الضعف التي كان يتواجد فيها؟ وهل فكّر بالجواب الانتفاضيّ المدمّر؟ لكن من الإنصاف أن نقول إنّه لم يؤخذ على حين غرّة، وإنّ التحليل اليقظ لأعماله يبرهن عن أنّه كان قد حضّر، قبل ثمانية عشر شهرًا، ذريعته السياسيّة، وأنّه كان قد بدأ فعلاً حرب التعادل. فمن الناحة الدبلوماسيّة، ومنذ مؤتمر طهران في كانون

الأول ـ ديسمبر ١٩٤٣، كان قد استغلّ مكانته عند روزفلت ليدفن مشروع تشرشل الهادف للإنزال في البلقان، والذي يمكن أن يؤدّي إلى تحرير أوروبّا الوسطى بواسطة الأنكلوساكسون. ولقد كانت ضربة معلّم ممّا أعطاه الزمن والحقّ، وحتّى الواجب، باحتلال أوروبّا الشرقيّة، لتشكيل حزام غربيّ وطنِه، فيغذّيه ويوسّعه ويعمّقه مع الأيّام.

لم يضيّع ستالين وقته فشنّ الجيش الأحمر هجومه واستولى على العواصم والأهداف الجغرافيّة التي كان يهملها الاستراتيجيّون في العصر النتروتولي، عن عمد، لكي يدمّروا القوّة الحيّة للعدوّ التي عادت لها قوّتها مع الحرب الثوريّة. وكان يعود إلى كلّ من هذه الأهداف السياسيّة آلاف المبعدين السياسيّين الذين كانوا قد لجأوا إلى روسيا أيّام الحرب، بعد أن كانوا قد أتمّوا تدريبهم في الأعمال الثوريّة، وكان رفاقهم الذين قادوا النضال ضدّ النظام النازيّ والذين بقوا على أرض الوطن، قد ظهروا إلى العيان على المسرح الوطنيّ، فما كان عليهم إلاّ أن ينضمّوا إليهم. ففي رومانيا مثلاً، لم يكن تعداد الحزب الشيوعيّ الرومانيّ إلاّ بضعة آلاف على رأسه واحد من أشهر القادة هو "أنا بوكر"، انضمّ إليه الهنغاريّ "لوكا" والأوكرانيّ "بدناراس". ودون أن يكونوا بحاجة إلى المرور في المرحلة الثالثة، كما يقول "تروتسكي" وهي حرب العصابات، حيث كان وجود الدبّابات يعفيهم منها، أقام هؤلاء حكومات للتحرير أو اتّحادًا وطنيًّا كان النواة الأولى للحكومات في أوروبّا الشرقيّة.

كان الروس قد احتلّوا بلغاريا قبل عام من هزيمة ألمانيا، وكان فيها حزب شيوعيّ بلغ تعداده خمسة وعشرين ألفًا. وبعد أن أجريت عليه عمليّة تطهير شملت ثلاثة آلاف من بينهم ستّة وستّين نائبًا، نفّذ حكم الإعدام فيهم لتعاونهم مهع هتلر، وسجن منهم ثمانية آلاف آخرون. ولم تكن هنالك أيّ معارضة للشيوعيّة دون تدخّل خارجيّ. أمّا رومانيا فكانت محتلّة منذ آب ـ أغسطس ١٩٤٤، بعد أن قاومت بعض الشيء،

وفرضت عليها في شباط ـ فبراير ١٩٤٥ حكومة انتقاليّــة إلـى الشيوعيّة كُتبت أسماء أعضائها من قبل "فيشنسكي" وقدّمت إلى الملك "ميشيل" تحت هدير الدبّابـات الروسيّة. أمّا في يوغوسلافيا فقد كانت ثقة ستالين بالمارشال تيتو كبيرة، إذ كان هذا الأخير قد أمضى فترة طويلة من عمره في منفاه في موسكو بعد ١٩١٩. وكـان رئيسًا لحكومة المنفى منذ تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٤٣، وتثبّت في مركزه منذ ٧ آذار ــ مارس ١٩٤٥، من قِبَل مجلس الوصاية الذي تنازل إليه الملك عن سلطاته. ومنذ نهاية عام ١٩٤٤ انفجرت حرب أهليّة في اليونـان بعد تحريرها مباشرة، وكـان بإمكـان رجال "الإلاس .E.L.A.S" أن يكونوا أسياد أثينا لو لم يقم تشرشل وحملته البريطانيّـة بفرض وصيّ بانتظار ما ينتج عن استفتاء يقرّر النظام الجمهوريّ أو الملكيّ. أمّا في هنغاريا فقد شكّل حزب الملاك الصغار القوّة العظمى التي قاومت الشيوعيّين بعناد وإصرار، لكنّ بودابست احتُلّت في ١٣ شباط ـ فبراير ١٩٤٥ واتّسعت الحلقة. لقد أوقفت الأوامر الصادرة عن واشنطن الجيش الأميركيّ عن التقـدّم فـي تشيكوسلوفاكيا ودخل الروس إلى براغ، وقام الاشتراكيّ "فرلينغر"، الذي وصل من موسكو بعد أن كـان فيها سفيرًا لتشيكوسلوفاكيا الحرّة، فشكّل أوّل حكومة كان فيها وزير الخارجيّـة شيوعيًّا، كما فـي كلّ الحكومـات التاليـة. وكذلك كـانت حـال النمسا إذ كـان وزيـر الخارجيّـة ذا صبغة حمراء. أمّا في بولندا حيث كان الأنغلوساكسون في وضع مميّز، فـإنّ العمل فـي ذلك السبيل لم يجر كمـا اشتهى الروس، لكنّـه كـان مستمرًّا. ويعتقد كثير من المراقبين الغربيّين أنّ ستالين ترك القوى الوطنيّة تنسحق تحت أقدام النازيّ خاصّة فـي أيلول ــ سبتمبر ١٩٤٤، عندما قامت ثورة وارسو وقبض على ما تبقّى منهم في مصيدة، ومن ثمّ تشكّل مجلس "لوبلين" مـن الشيوعيّين البولنديّين المنفيّين فـي الشرق بعد أن تلقّى الدعم الكامل. ولا شكّ في أنّ ألمانيا كانت أكبر لقمة حـاول الجانبـان تلقّفها ولم يكن

الغرب ليتخلّى عنها بتلك السهولة. حتّى عندما واجـه ستالين ذلـك ورأى أن لا بدّ مـن التراجع، لم يلحّ إلاّ على تقنيّتها وتدمير صناعاتها، وأن يكتفي بالانتظار الحذر الإخـلاء المرتقب من قبل جيش الأنغلوساكسون ليتدخّل بعناصره المحضّرة في روسيا. وتشكّل مجلس على غرار مجلس لوبلن لألمانيا الحرّة وخاصّة اتّحاد ضبّاط المارشال "باولس" الذي أُنشئ بشكل خاصّ مـن مساجين ستالينغراد الأشدّاء. وبصـورة عامّـة، باستثناء اليونان حيث أوقف الإنكليز الشيوعيّين عند حدّهم، أصبح النصف الشرقيّ مـن أوروبّـا في طريق الامتصاص السريع من جانب روسيا التي كانت تعمل في الخفاء، ما أمكـن، في هذه المهمّة واضعة حدًّا على الغربيّين أن يجتازوا خطّ "لوبك ـ تربست ـ كورفو". وهكذا، انطلقت عبارة تشرشل الشهيرة فـي ١٢ أيّـار ـ مـايو ١٩٤٥ عندمـا كتب إلـى ترومان يقول: لقد هبط ستار حديديّ على الجبهة السوفياتيّة.

أمّا نوايا ستالين على الغرب فكانت ذات منحيَين عام ١٩٤٥ وكان بعضها إجباريًّـا كأن: ١) يدفع ويقوّي، إلى أبعد ما يمكن، حزامه الغربيّ بوسائل الحرب الثوريّة باحثًـا عمّا يمكـن أن يحصـل عليـه دون أن يخـاطر مـع الولايـات المتّحـدة المحتكـرة السـلاح النـوويّ. ٢) أن يحـاول، بأسـرع مـا يمكـن، الحصـول علـى السـلاح النـوويّ، خاصّـة بوسائل الاستخبارات التي كانت ذات جدوى عظيمة، كما يدّعي الغرب.

خلال الحرب العالميّة الثانية، لم تفقد الولايات المتّحدة إلاّ اثنَين بالألف من شـعبها، وكان اقتصادها في قمّة ازدهاره، وكانت تمتلك وحدها السلاح النوويّ، لذا كانت سـيّدة العالم في عام ١٩٤٥. وبدون أن تنسـى مصالحهـا الاقتصاديّـة المتطابقـة مـع الأعمـال الأخلاقيّة، كمـا يدّعـي الغـرب، كـان مسؤولوها يريـدون بنـاء عـالم أفضـل ديمقراطيًّـا ومسالمًا. لا شكّ في أنّ روزفلـت مـات سـعيدًا فـي نيسـان ـ أبريـل ١٩٤٥، لأنّـه قبـل شهرَين، في مؤتمر يالطا، تعهّد الكبار الثلاثة، بالتضـامن والتكـافل، بمسـاعدة الشـعوب

المحرّرة من النازيّة على انتخاب حكوماتها بشكل حرّ ومنسجم مع الرغبة الشعبيّة. لكنّ ترومان، الذي خلف روزفلت، رأى هبوط الستار الحديديّ. كان روزفلت قد أطلق فكرته العظيمة في آب - أغسطس ١٩٤٤، في مؤتمر "دمبارتون أوك" ألا وهي الأمم المتّحدة، واعتمد عليها في استقرار السلام في العالم، وكذلك ليسمح بالممارسة الفعليّة للهيمنة الأميركيّة لتكون حكمًا بين روسيا الصاعدة وبريطانيا النازلة. لكنّ ترومان اقتنع شيئًا فشيئًا، بأنّ المسؤولين السوفيات يعتبرون أنّ مهمّتهم الأساسيّة هي جعل معتقدهم الماركسيّ اللينينيّ يسود العالم كلّه وبجميع الوسائل سواء كان ذلك بالقوّة أم بالحيلة. ولا نعلم حقًّا إذا كان بعض القادة العسكريّين قد أسرّوا إلى ترومان، خفية، أن يرفع قبضته بالتهديد بالسلاح النوويّ كي يوقف التقدّم الروسيّ. لكنّ ذلك لم يفعله أحد في العلن. كما لا نعرف حقًّا ما هو الدافع الذي جعل الولايات المتّحدة تشارك حلفاءها في الأسرار النوويّة. لكن من المعروف أنّ وزير الحرب في وزارة ترومان "سمبسون"، هو الذي غالى أكثر من ذلك مدفوعًا من قبل "دين أتشيسون" و"الليننتل" الذي أصبح في ما بعد رئيسًا لهيئة الطاقة الذريّة، فقدّم إلى الأمم المتّحدة مشروعًا مذهلاً: سلطة عالميّة لا أمميّة تمتلك كافّة الموادّ الأوليّة والمصانع والأسرار النوويّة، تكون مهمّتها، بعد أن يعطى لها الدعم اللازم، أن تفرض على الجميع عدم استعمال الطاقة النوويّة إلاّ للأغراض السلميّة، ولقد طُلب أينشتاين بالضرورة الملحّة لقيام حكومة فوق عالميّة.

لا شكّ في أنّها معركة خاسرة لكنّها حلم خالد. حتّى أنّ فكرة التجريد من السلاح جعلت بعض الشخصيّات تعمل على وضع حدّ لهذا السخاء واعتبرته تهوّرًا سيسمح للمشاة الروس بالزحف على العالم كما أنّهم أثاروا الرعب بالاّ تكون روسيا متقدّمة في هذا المجال.

إنّ لبّ المسألة أن نعلم ما إذا كانت الحرب من ضمن الطبيعة البشريّة، ويمكن للأجيال القادمة، في ما بعد العصر النوويّ، أن تجيب على ذلك. أمّا إذا أردنا مناقشته فإنّنا لا شكّ سندخل في مجال السفسطة.

يعتقد الروس، حسب المفكّرين الغربيّين، أنّهم يمتلكون الحقيقة والعدالة والحقّ والحريّة الموجودة في الماركسيّة اللينينيّة، الأمر الذي سمح لهم بممارسة أيّ لعبة دون أيّ أزمة في الضمير. أمّا في الولايات المتّحدة فإنّ عددًا كبيرًا من الموظّفين متأكّدون من أنّهم يمتلكون الحقيقة والعدالة والحقّ والحريّة، لكنّ حلولهم عاميّة مبتذلة مثل ما يسمّى "النيوديل" و"الطريقة الأميركيّة في الحياة"، والمجتمع العظيم. وكلّها أوامر وليست قسم إيمان. ولا يمكن القتال في سبيل دعمها وفرضها. وهم يقولون بأنّهم لن يستعملوا القوّة إلاّ عندما يكونون في حالة الدفاع عن النفس، على ألاّ يضطرّهم ذلك للتعرّض إلى مخاطر جسيمة، فهم لن يفعلوا ذلك لتحرير أيّ دولة مهما كانت. وبما أنّهم لم يفعلوا ذلك عام ١٩٤٥، فقد فقدوا المبادرة في الحرب الثوريّة التي فُرضت عليهم، ما اضطرّهم، بعد ذلك، إلى تعلّم أصولها الصعبة. ولقد كانت معركة فريدة بين الاتّحاد السوفياتيّ والولايات المتّحدة حتّى خرجت الصين من فوضاها العتيقة. ولم تكن الدول الأخرى إلاّ بمثابة كومبارس، حتّى أنّ بريطانيا العظمى، التي لحقت بفرنسا كدولة من الدرجة الثانية، اضطرّت للرضوخ بشكل تلقائيّ، خاصّة أنّها حُرمت، عشيّة مؤتمر بوتسدام، من قائدها الحربيّ الذي لا يضاهى وهو ونستون تشرشل. ولقد انسحقت كافّة دول أوروبّا الغربيّة حليفات الولايات المتّحدة بالصدمة بين العملاقَين الكبيرَين. ولم يكن الساحقون هم القادة العسكريّون الذين قد يعودون دومًا بجيوشهم وأساطيلهم الجويّة والبحريّة وصواريخهم وقذائفهم، فيحتلّون واجهة المسرح. أمّا الآن فهم لا يمتلكون إلاّ قوّة كافية للتخويف والردع لمنع العدوّ من التقدّم. وبالانتظار فإنّ

قادة اللعبة العالميّة سيكونون تعبويّي الحرب الثوريّة وسيكون ذلك حال الروس أيضًا، ليس لأنّ القادة السياسيّين سيتركونهم يفعلون ذلك، بل لسبب آخر هامّ وبسيط هو أنّ الرؤساء والوزراء الموجودن على رأس السلطة بدأوا مهنتهم كعناصر ثوريّة، وتلك إحدى المهن التي تدمغ صاحبها إلى الأبد، خاصّة إذا ما نجح فيها. وسيكون ذلك بنفس القدر في الولايات المتّحدة الأميركيّة ولكن لسبب آخر أشدّ بساطة، لكنّ نتائجه على أبعد حدّ من الخطورة ألا وهو: أنّ الاستخبارات السريّة ستصبح دولة ضمن الدولة وسيستحوذون على السلطة في يوم ما[1].

---

١ ـ رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟، دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨) ص١١٢ ـ ١٢٠.

تَصَارُع الرأسماليَّة والشيوعيَّة

من الثابت أنّ ظاهرة الدول الكبرى ومحاولتها التسلّط على الدول الصغرى قديمة قدم فكرة المجتمع السياسي لبني البشر. لكنّ الجديد فيها، كان القدرة الهائلة للدولتين العظميين، الولايات المتّحدة الأميركيّة، والاتّحاد السوفياتيّ، حتّى درج البعض على القول:

"لا تسقط شعرة من رؤوسكم إلاّ بإذن أبيكم الذي في البيت الأبيض أو في الكرملين".

هذا القول، رغم اليأس الذي كان يسبّبه لبقيّة الدول الضعيفة والصغيرة، كان صحيحًا كلّ الصحّة، فحين يكون العملاقان الكبيران متّفقين، فالمجال مفتوح لتسوية أيّ مشكلة دوليّة. وفي حال اختلافهما، توصد أبواب الحلول السلميّة كلّها. فلا نسمع ألاّ بحروب هنا وانفجارات هناك مع كلّ ما تجرّه هذه وتلك من مآس للجنس البشريّ، سواء في حياته أو قوّته أو صحّته أو ثقافته...

لا شكّ في أنّه كان بيد الدولتين الكبيرتين كلّ آلات الحرب الكافية لتدمير الجنس البشريّ في دقائق معدودة. والصراع بين هاتين الدولتين موجود في كلّ مكان ومن خلال ما يسميه خبراء السياسة الدوليّة "الحروب الصغيرة الإقليميّة". وهي أكثر من كافية لإبقاء عالم القرن العشرين فقيرًا متخلّفًا، في القسم الأكبر من الكرة الأرضيّة، رغم الإمكانات الكثيرة ورغم تقدّم العلوم والتكنولوجيا، فالعلاقات الحسنة، بين المعسكرين، كانت هامّة جدًّا لكلّ إنسان في العالم.

لقد ساد السلام الكامل، بعد الحرب العالميّة الأولى، العالم مدّة ثلاثة عشر عامًا. والسلام النسبيّ مدّة واحد وعشرين عامًا، ولكن منذ انتصار الحلفاء على دول المحور، نتيجة الحرب العالميّة الثانية، أصبح العالم يعيش تحت رحمة معسكرين تفصلهما مسافات شاسعة من العداوة وعدم الثقة. فالنظام الدوليّ أصبح يختلف اختلافًا بيّنًا عمّا سبقه من أنظمة في الماضي. ففي حقبة ما قبل الحرب العالميّة الثانية، كانت هناك سبع دول كبرى، خمس منها في أوروبّا وهي بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وروسيّا، وواحدة في آسيا هي اليابان، والأخيرة هي الولايات المتّحدة الأميركيّة. أمّا في حقبة ما بعد الحرب العالميّة الثانية، فقد أسفر الموقف عن ظهور دولتين هما الولايات المتّحدة الأميركيّة والإتحاد السوفياتيّ.

كان تهديد السلام، في حقبة ما قبل الحرب العالميّة الثانية، يأتي من التنافس الاقتصاديّ بين الدول الكبرى حينذاك. وقد كانت منقسمة إلى معسكرين: معسكر الذين يملكون ويضمّ كلاً من بريطانيا وفرنسا؛ ومعسكر الذين لا يملكون ويضمّ إيطاليا وألمانيا واليابان.

أمّا الإتّحاد السوفياتيّ والولايات المتّحدة الأميركيّة، فكان موقفهما من هذا التنافس موقف المتفرّج.

أمّا حقبة ما بعد الحرب العالميّة الثانية، ففيها قوّتان رئيسيّتان والتنافس بينهما من نوع جديد. فرغم وجود التنافس الاقتصاديّ والتقليديّ، فإنّ مصدر الصراع الدوليّ هو تحدّي القوّتين الرئيسيّتين الواحدة للأخرى في المجال العقائديّ والقوميّ...

فالولايات المتّحدة الأميركيّة تعتقد أنّ الوصول إلى السلام العالميّ إنّما يتحقّق بتطبيق النظام الديمقراطيّ الغربيّ، والنظام الرأسماليّ الحرّ.

فيما الإتّحاد السوفياتيّ يعتقد أنّ عقيدته تقدّم التفسير العلميّ الوحيد للتطوّر نحو الاشتراكيّة التي بدونها لا يتمّ السلام في العالم ولا يستقرّ. وواقع الحال أنّ كلاًّ من الدولتين العظميين يبتغي من نظريّته التحكّم بمقاليد الأمور في العالم أو في أكبر قسم ممكن منه.

انتهت الحرب العالميّة الثانية، وانتهت رحلة السلام، وبدأ كلّ من الطرفين يكيل الاتّهامات للطرف الآخر ويتحيّن الفرصة للإيقاع به.

ادّعت الولايات المتّحدة بأنّ الاتّحاد السوفياتيّ هو الذي بدأ الصراع، باتّباعه سياسة عدائيّة للولايات المتّحدة وحلفائها في العالم الحرّ، وبافتعاله أو مشاركته منذ انتهاء الحرب العالميّة الثانية في الحوادث التالية:

١ ـ إشعال الثورات الشيوعيّة في المجر وبلغاريا ورومانيا ثمّ في تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٤٨، فجعل هذه الدول توابع تسير في فلكه، وتأتمر بأمره. وإجباره فنلندا، تحت الضغط الشديد، على الدخول في دائرة نفوذه في سياستها الخارجيّة. زد على ذلك المساعدات المباشرة والسخيّة للشيوعيّين الصينيّين الذين تمكّنوا بفضلها من الانتصار على "شان كاي شك" حليف الأميركيّين والوصول إلى الحكم.

٢ ـ مساندة حزب "تودة" الشيوعيّ في إيران لخلق بلبلة في منطقة الشرق الأوسط.

٣ ـ مساعدة وتشجيع الحرب الأهليّة في اليونان لبسط النفوذ الشيوعيّ على بقيّة أوروبّا.

٤ ـ تحريض الأحزاب الشيوعيّة في فرنسا وإيطاليا على الإضراب والعصيان المدنيّ للإضرار باقتصاد أوروبّا الغربيّة.

٥ ـ إمداد وتغذية الحرب الكوريّة، لبسط النفوذ الشيوعيّ في آسيا ولإنهاك العالم الغربيّ في متاهة هذه الحرب.

واتّهم الاتّحاد السوفياتيّ الولايات المتّحدة بالعداء الأعمى للعالم الاشتراكيّ، ومحاولتها الدائمة عزله وتطويقه. وحجّته في ذلك:

تعدّد الأحلاف العسكريّة الأميركيّة أو التي كانت أميركا وحلفاؤها وراءها، كحلف الأطلسيّ وحلف المعاهدة المركزيّة، وحلف جنوب شرق آسيا... أضف إلى ذلك محاربة الأحزاب الشيوعيّة في فرنسا وإيطاليا وفي كلّ مكان في العالم.

ويتساءل المحايد بدوره: من هو المسؤول يا ترى عن تردّي الحالة بين المعسكرين؟ هل هو سياسة الغرب العدائيّة للعالم الشيوعيّ، أم هي العقيدة الشيوعيّة المرتكزة على الثورة العمّاليّة العالميّة، أم كلاهما معا؟ ومن الصعب استعراض كافّة نقاط التناقض الفكريّ بين الرأسماليّة والشيوعيّة لكثرتها، أمّا المهمّ منها، فهو:

١ ـ تتّصف النظرة الفكريّة الماركسيّة للإنسان بكونها جدليّة، أي أنّ الحياة البشريّة دائمة التحوّل، وأنّ كلّ شيء في الوجود يولّد ضدًّا له. ومن ثمّ، فالتقارب بين هذين الضدّين يولّد حالة جديدة تقوم بدورها بتوليد الضدّ وهكذا دواليك... أمّا الفلسفات المتّصلة بالرأسماليّة فهي تؤمن بالثبات، أي بحقائق شبه طبيعيّة دائمة، فتشرّع للمجتمعات أنظمة تعتبرها صالحة لكلّ زمان ومكان.

٢ ـ الماركسيّة تأخذ بما تسمّيه قيمة الإنسان. فتحاول أن تُخضع الإنتاج لمنفعة الإنسان ولو نظريًّا. أمّا عمليًّا، فقد اضطرّت الماركسيّة خلال نصف القرن المنصرم أن تُخضع الجماعات لمتطلّبات الإنتاج. أمّا الفلسفات المتّصلة بالرأسماليّة فهي أيضًا تؤمن بالإنسان لكنّها حوّلته إلى أداة لتضخّم رأس المال في سياق الثورة الصناعيّة.

٣ ـ نقطة التناقض البارزة بين الاتّجاهين هي مسألة التعارض بين الفرديّة والجماعيّة: الماركسيّة تنظر إلى الإنسان على أنّه خليّة مرتبطة جوهريًّا بالجماعة؛ الرأسماليّة إجمالاً تنظر إلى الجماعة على أنّها مجرّد بيئة لنموّ الذات الفرديّة.

٤ ـ الفلسفات الرأسماليّة تؤمن بنظام قيم شبه مطلق ينبغي على الناس السير بموجبه. أمّا الفلسفات المتّصلة بالماركسيّة فتنظر إلى القيم على أنّها تعبير عن حاجات متحوّلة ومتغيّرة.

تكرّست القطيعة بين الفريقين الأميركيّ والسوفياتيّ سنة ١٩٤٧، عندما أعلن الرئيس الأميركيّ تصميم الولايات المتّحدة على الحلول محلّ إنكلترا في تقديم المساعدة العسكريّة للحكومة اليونانيّة، وأوضح أنّ هدفه هو كبح جماح الشيوعيّة والنفوذ السوفياتيّ في كلّ من اليونان وتركيا. كما أوضح أيضًا وزير الخارجيّة الأميركيّ بعد ذلك بشهرين أنّه ينوي حصر المساعدة الأميركيّة في الدول التي تقرّ الولايات المتّحدة نظامها السياسيّ والاقتصاديّ. أمّا السياسة السوفياتيّة فقد انصرفت إلى توثيق الروابط بين دول الشرق هادفة من وراء ذلك إلى ما يشبه مشروع مارشال في الغرب. وجعل الكتلة الشرقيّة، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، مستقلّة إستقلالاً تامًّا عن الغرب.

منذ ذلك التاريخ راحت كلّ من الكتلتين تنظر إلى كلّ قرار تتّخذه الكتلة الأخرى، وكأنّه عمل هجوميّ يستلزم جوابًا، واعتُبر كلّ جواب على قرار تهديدًا يجب أن يستتبع استعدادات دفاعيّة بحتة، وأنّ أعمال الطرف الآخر هجوميّة... كما وظّف كلّ فريق طاقاته الدعائيّة من صحف وإذاعات ومجلّات ومطبوعات مختلفة في سبيل تدعيم نظرته ورأيه، هذا إلى جانب الضغوط السياسيّة والاقتصاديّة التي مورست على كلّ من الدول الحليفة والضعيفة لكسب ودّها واستمالتها إلى صفّه.

حتّى سنة ١٩٤٧، كانت معاهدات التحالف التي وقّعت في أوروبّا الغربيّة، موجّهة ضدّ ألمانيا. وهذه هي حال المعاهدة الفرنسيّة ـ السوفياتيّة سنة ١٩٤٤، والمعاهدة الفرنسيّة ـ الإنكليزيّة في "دنكرك" في ٤ آذار ـ مارس ١٩٤٧، غير أنّ القطيعة الفعليّة التي حدثت بين الاتّحاد السوفياتيّ والغرب في سنة ١٩٤٧، دفعت بهذا الأخير للبحث عن نظام تحالف جديد. وفي ٢١ كانون الثاني ـ يناير ١٩٤٨، اقترحت فرنسا وإنكلترا على البنلوكس الثلاثة دراسة توقيع ميثاق سياسيّ، فقبلت هذه الدول بذلك، وتمّ التفاوض على أساس مشروع حرّرته وزارة الخارجيّة البريطانيّة. وعقد مؤتمر في بروكسيل ما بين ٤ و١٢ آذار ـ مارس ١٩٤٨ ألحّت في خلاله دول البنلوكس على إكمال الميثاق السياسيّ باتّفاقات عسكريّة. ووقّع نصّ أقرّه المؤتمر في ١٨ آذار ـ مارس ١٩٤٨ في بروكسيل، بعد أن وافقت عليه الحكومات المختلفة، وقد أُبرمت معاهدة بروكسيل لمدّة خمسين عامًا. وكانت تنصّ على معونة تلقائيّة في حالة عدوان في قارّة أخرى في حالة تهديد من جانب ألمانيا. كما نصّت على تكوين مجلس استشاريّ يجتمع بناء على طلب من أحد الأعضاء. وتصوّر المشتركون إمكانيّة تعاون إقتصاديّ إجتماعيّ وثقافيّ في ما بينهم.

أمّا الحدث الفريد من نوعه، فهو أنّ نصّ ميثاق الأطلسيّ نشر في ١٨ آذار ـ مارس، قبل أن يوقّع، بحيث أنّه أنذر الرأي العام في عدّة دول. وكانت المقدّمة تلحّ على رغبة السلام الموجودة عند المتعاقدين وعلى عزمهم المحافظة بالقوّة على النظام الديموقراطيّ من النوع الغربيّ وسيادة الحقّ. ولم تشر المعاهدة إلاّ بشكل سريع إلى ضرورة تحسين البنود العسكريّة. ويجب التمييز بين التهديد والعدوان... وتتشاور الأطراف في حالة التهديد... ويكفي لتحديد التهديد أن يعلن أحد هذه الأطراف عن وجود التهديد... أمّا في حالة العدوان في أوروبّا وأميركا الشماليّة أو الجزائر، أو ضدّ

إحدى جزر الأطلسي، أو في شمال مدار السرطان، أو ضدّ سفينة أو حاملة طائرات يملكها أحد المتعاقدين... فإنّ المساعدة العسكريّة تكون تلقائيّة كليًّا. وإذا ما حصل حادث من هذا النوع، فإنّ كلّ طرف، في حالة الدفاع عن النفس، وطبقًا للمادّة ٥١ من ميثاق الأمم المتّحدة، يبدأ فورًا وبشكل إفراديّ وبالاتّفاق مع بقيّة الأطراف العمل الذي يراه ملائمًا، بما في ذلك استخدام القوّة المسلّحة لإعادة وضمان الأمن في منطقة شمالي الأطلسيّ.

وهكذا فإنّ كلّ طرف يكون حرًّا في التقرير إذا ما كانت مساعدته ستكون عسكريّة، أي إذا كان يريد القيام بحرب.

ونصّت المادّتان ٧ و٨ على أنّه ليس ثمّة تناقض بين ميثاق الأطلسيّ من جهة، وميثاق منظّمة الأمم المتّحدة وأيّ التزام داخليّ من جانب أحد الحلفاء من جهة أخرى.

في شباط ـ فبراير وآذار ـ مارس ١٩٤٩، وقف الاتّحاد السوفياتيّ بشدّة ضدّ مشروع ميثاق حلف شمالي الأطلسيّ. وقامت المنظّمات الشيوعيّة بحملات لمصلحة السلام كانت موجّهة فعليًّا ضدّ ميثاق الحلف.

وفي نهاية آذار ـ مارس، قدّم الاتّحاد السوفياتيّ مذكّرة احتجاج للغربيّين جاء فيها:

١ ـ إنّ ميثاق الأطلسيّ هو عدوان بحت موجّه ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ.

٢ ـ إنّ الميثاق واقع في تناقض واضح مع شرعة الأمم المتّحدة.

٣ ـ الميثاق يتعارض مع معاهدة المساعدة والصداقة المعقودة سنة ١٩٤٢ بين بريطانيا وروسيا.

٤ ـ إنّ الميثاق يتعارض أيضًا ومعاهدة المساعدة والصداقة الفرنسيّة ـ السوفياتيّة المعقودة سنة ١٩٤٤.

٥ ـ هذا الميثاق يتناقض مع كلّ الاتّفاقات والمعاهدات الموقّعة بين الاتّحاد السوفياتيّ والولايات المتّحدة الأميركيّة وبريطانيا في "يالطا" و"بوتسدام" وغير ذلك.

حلف وارسو، هو الإسم الشائع الذي يُطلق على المعاهدة العسكريّة التي كانت تضمّ الاتّحاد السوفياتيّ وعددًا من دول أوروبّا الشرقيّة، والتي وُقّعت في عاصمة بولندة، في ١٤ أيّار ـ مايو ١٩٥٥، من قبل كلّ من الاتّحاد السوفياتيّ، ألبانيا، بلغاريا، تشيكوسلوفاكيا، ألمانيا الشرقيّة، هنغاريا، وبولندة. وقد وقّعت عليها في ما بعد رومانيا.

في البدء، اتُّخذ قرار بأن يستمرّ الحلف لمدّة عشرين عامًا، على أن تمدّد هذه المدّة لمدّة عشر سنوات أخرى، إذا وقّعت الدول الأعضاء عليها، ولا ينصّ الاتّفاق على تشكيل قيادة عسكريّة موحّدة بقوّات الدول المشتركة فحسب، بل وعلى مرابطة وحدات سوفياتيّة في أراضي الدول المشتركة أيضًا. وقد جاء حلف وارسو ردًّا على حلف شمالي الأطلسيّ.

الفرق بين حلف وارسو وحلف شمالي الأطلسيّ هو في أنّ دول حلف وارسو تشارك بكلّ قوّتها المسلّحة في الحلف، وذلك خلافًا لحلف شمالي الأطلسيّ حيث تشارك كلّ دولة مشتركة بنسبة معيّنة من قوّتها. ومعظم المعدّات الحربيّة التي تتسلّح بها جيوش دول حلف وارسو من صنع سوفياتيّ أو من تصميم سوفياتيّ، وتُصنع بموجب ترخيص في دول الحلف... وهذا يعني أنّ الاتّحاد السوفياتيّ كان يحتفظ بجميع الأسلحة النوويّة الاستراتيجيّة والتكتيكيّة في يد قوّاته[1]...

---

١ ـ قبيسي د. بشرى ومخّول موسى، الحروب والأزمات الإقليميّة في القرن العشرين، دار بيسان للنشر والتوزيع (بيروت،١٩٩٧) ص٢٩٢ ـ ٢٩٧.

الجَاسوسيَّة في حقبَة الحرب البا ردَة

بإنتهاء الحرب العالميّة الثانية ودخول الدول المنتصرة في منافسات الحرب الباردة بين المعسكرَين الرأسماليّ بقيادة الولايات المتّحدة الأميركيّة، والشيوعيّ بقيادة الاتّحاد السوفياتيّ، فقد كان الاهتمام الدوليّ ببناء أجهزة للتجسّس تواكب طبيعة الحرب الباردة باعتبارها "العمود الفقريّ" لتأمين المصالح المكتسبة بعد الحرب العالميّة الثانيّة، حتّى أصبحت أعمال التجسّس ومكافحة التجسّس منوطة بأجهزة مخابرات ذات قوّة ماديّة ومعنويّة وقدرة على التحكّم في اتّخاذ القرار السياسيّ للدولة من خلال حرب الصمت والظلام.

واشنطن دي سي، عاصمة الغرب. بعضهم في أوروبّا لا يحبّ هذه الصفة للعاصمة الأميركيّة ويكزّ على أسنانه حسدًا وحقدًا، لكنّ بعضًا آخر يقرّ بالحقائق العمليّة ويرى أنّ الاقتصاد الأقوى والقوّة العسكريّة الكبرى والسياسة التوجيهيّة العليا ميّزات تنفرد بها واشنطن بين بقيّة العواصم في الغرب.

والقوّة في عاصمة الغرب هي القوّة التي وقفت أمام قوّة الشرق التي كانت متمثّلة بالاتّحاد السوفياتيّ.

أكثر من خمسة عشر سنة، كان الغرب والشرق، بل كان الاتّحاد السوفياتيّ والولايات المتّحدة الأميركيّة بصفة خاصّة، يخوضان حربًا من نوع جديد دعيت "الحرب الباردة". في هذه السنوات الخمس عشرة لم يطلق أميركيّ رصاصة على سوفياتيّ، ولم يحدث عكس ذلك. في هذه الحقبة كلّها كان البلدان يحاول واحدهما

تحطيم الآخر في كلّ الحقول، كما كان كلّ منهما يسيطر على ما تبقّى من دول العالم لضمّه إلى إطار سيطرته. أكثر دول العالم انضمّ إلى هذا المعسكر أو ذاك، وما تبقّى منها اعتبر نفسه على الحياد، وهو الحياد الذي ليس حيادًا بالمعنى الذي تمنّاه أصحابه.

المهمّ، للاتّحاد السوفياتي سفارة كبيرة في واشنطن، وهذه كانت تتصرّف بموجب ما تطلبه منها موسكو، حقًّا وشرعًا وانتظامًا.

هذه السفارة تقع على بعد خمسمئة متر من البيت الأبيض وخلف فندق "ستاتلر هيلتون". من سطحها تنبت الهوائيّات بأعداد وفيرة، ونوافذها في الغالب نصف مغلقة حين لا تكون مغلقة كليًّا.

أمام السفارة والفندق وعلى الجهة الأخرى للشارع يقع مبنى "ناشيونال جيوغرافيك ماغازين" الشهريّة المعروفة. من يقف أمام هذا المبنى، فإنّه يكون هناك في موقف للأوتوبيسات، أحدها مكتوب عليه "لانغلي، عبر الشارع هـ ١٧١٧". ومن يركب هذا الأوتوبيس، يصل إلى مقرّ وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة.

بمعنى آخر، يصل إلى مركز القيادة العليا، إذا صحّت التسمية، للحرب الباردة بين الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ.

"لانغلي" هي في ولاية فرجينيا، وتكاد أن تكون ضاحية من ضواحي واشنطن. وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA اشترت ١٢٥ ألف متر مربّع من الأراضي الحرجيّة هناك وشادت فوقها مبانيها ذات اللون الأبيض. ومع ذلك وجد خبراء الاستخبارات مع الوقت أنّ تلك المساحة غير كافية للحماية التامّة من تلسكوب آلات التصوير، مع أنّ المباني قائمة في قاع صغير تحيط به الغابات من كلّ جانب.

ذات يوم، صعد الخبراء إلى إحدى التلال المجاورة وصوّروا بالتلسكوب مدير الاستخبارات في مكتبه بالطبقة السابعة ثمّ كبّروا الصورة وجاؤوا إلى المسؤولين يشكون أمرهم: هذا لا يجوز. لقد صوّرنا مديرنا من بعيد وهو في مكتبه، وهاكم الصورة.

فورًا، نُفّذ المطلوب: شراء كلّ المساحات المحيطة بمركز الاستخبارات.

هنا إذن، تقع وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA التي صارت تتردّد على كلّ شفة ولسان في كلّ زاوية في العالم، إذا ما وقعت محاولة انقلاب هنا أو ثورة هناك أو تغيير في هذا البلد أو ذاك.

جرت العادة حتّى الآن أن يدخل البيت الأبيض كلّ يوم، وفي بعض الحالات كلّ ساعة، موظّف لا يلحظه الزوّار والصحافيّون، فيصل إلى مكتب الرئيس ويضع عليه ورقة. هذه الورقة تقول للرئيس كلّ أمر مهمّ يجري في أصقاع العالم، خاصّة في الأماكن "الحامية".

وحتّى الصحف التي يقرأها الرئيس الأميركيّ، وهي قليلة جدًّا على كلّ حال، تمرّ على الاستخبارات المركزيّة أوّلاً. الموظّف المختصّ يعلّم بالقلم الأحمر الأخبار التي يعتبرها مدسوسة أو ذات صفة إعلانيّة ملغومة، ويعلّم بالقلم الأزرق تحت الأسطر التي يعتبرها ذات أهميّة بالنسبة إلى رئيس الجمهوريّة. بهذه الطريقة يقرأ الرئيس الأميركيّ الصحف ويفهم بالضبط ما هو حقيقيّ وما هو دسّ أو تمثيل لعبة.

بشكل عامّ، المفروض أن يعلم رئيس الجمهوريّة ماذا تفعل وكالة الاستخبارات. لكن المفروض شيء والواقع شيء آخر. ما دام ليس لديه متّسع من الوقت للدخول في

التفاصيل، فتصرّفات وكالة الاستخبارات تكون غير ما يريح أعصابه أو يساعد خطّته السياسيّة في الداخل والخارج...

الرئيس كندي كان على علم بالهجوم الفاشل على كوبا. وبما أنّه لم يتدخّل في التفاصيل، فقد وجد نفسه بعد الفشل يقف حائرًا بين تبرير العمل والتملّص من مسؤوليّته، فكان موقفه الشخصيّ محرجًا للغاية.

الرئيس جونسون أحرجته تدخّلات وكالة الاستخبارات المركزيّة مع الطلاّب الأميركيّن وسبّبت له مشاكل ومضاعفات داخليّة اقتضت زمنًا طويلاً لتطويق ذيولها. المسألة أثيرت حول مدى الصلاحيّات الحكوميّة وحول تخريب المؤسّسات وحول المحافظة على الديمقراطيّة وعلى استقلال الهيئات الأهليّة أو العمّاليّة أو الاقتصاديّة أو الثقافيّة والتعليميّة...

الرئيس أيزنهاور، قبل هذا وذاك، كان حرجه من العيار الثقيل. فشل التجسّس فوق الاتّحاد السوفياتيّ، من خلال إسقاط السوفيات طارة U-2 فوق أراضيهم وأسر الطيّار "باورز"، أحرجه الأمر وعرّضه لإهانات في باريس عام ١٩٦٠ إذ رفض خروتشوف الاجتماع به ما لم يعتذر له.

الرئيس نيكسون هزّته فضيحة التنصّت على مقرّ خصومه فأخرجته... والرئيس ريغن... خرج وفضائح عمليّة "إيران غيت" ما زالت تفوح روائحها..

والكونغرس بدوره ينزعج كلّما حاولت الاستخبارات المركزيّة، عبر تدخّلها ضمن الولايات المتّحدة، التدخّل مع الأقليّات المهاجرة من أوروبّا الشرقيّة... فالإستخبارات المركزيّة دأبت على محاولة كسب الجواسيس من اللاجئين في سبيل تشغيلهم في

شؤون البلاد التي قدموا منها. وهؤلاء، منهم من ينتفض ويثير الصحافة والتلفزة والكونغرس، ومنهم من يسكت ويتعايش...

أمّا الرئيس الأميركي جورج بوش الأب، فقدَر عصره أن يشهد التحوّلات الدراماتيكيّة التي حصلت في أوروبّا الشرقيّة بدءًا بالاتّحاد السوفياتيّ والتي أجمع كلّ المحلّلين والمتتبّعين لهذه الأحداث أنّ هذه الانقلابات في المواقف والمواقع لا بدّ إلاّ أن تزيد من هيبة وسيطرة النفوذ الأميركيّ والرأسماليّ على الكرة الأرضيّة، وتلغي بالتالي وجود القوّتين المتنافستين تاريخيًّا، إيديولوجيًّا، وسياسيًّا، وعقائديًّا، وعسكريًّا، لتكون القدرة الأميركيّة على الحركة والمناورة والهيمنة هي الأَولى والفاعلة دون منازع أو منافس.

وإذا كان تاريخ حرب المخابرات والتجسّس بين العملاقين الأميركيّ والسوفياتيّ قد مرّ عبر العصر الحديث بالكثير من المنافسة والتسابق لإشعال الكثير من الثورات والحروب والانقلابات العسكريّة والإضطرابات الشعبيّة في أكثر من بلد على أرض هذا الكون الواسع، وبالتالي من التزاحم على وضع أدواتها في رأس السلطة والدولة على حساب من كانوا يعتبرون موالين للقوّة العظمى الأخرى، فإنّ استمرار هذه الحروب الصغيرة منها والكبيرة كانت وراء تمويلها قوى بشريّة وماديّة عملاقة استطاعت أن تخرج من قواعدها لتنشئ لها محطّات مخابراتيّة مركزيّة وفرعيّة في كلّ دول العالم حماية لمصالحها الاقتصاديّة، وأن تنشر قواعد عسكريّة مباشرة ومموّهة خدمة لاستمرار تدفّق موارد حياتها ولمحاولة الاستفراد بالقرار العالميّ الذي لا يراعي سوى مصالح الكبار على حساب حياة الصغار[١]...

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف الناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠) ص٩ ـ ١٢.

الحَربُ البَاردَة في مَرحَلتهَا الأولى

بعـد نهايــة الحـــرب العالميـــة الثانيـــة، راح جهـــازا المخـــابرات الســـوفياتيّان الـMGB/NKVD يستخدمان تعبير "العدو الرئيسي" للإشارة إلى الولايـات المتحـدة فـي مراسلاتهما. وبعد ذلك بأربعين عامًا عندما كان "غورديفسكي" مقيمًا فـي لنـدن كرئيـس للـKGB هناك، كان هذا التعبير كذلك قيد التداول... وهـاجم بريطانيـا العظمـى، هدف للـNKVD المفضل سابقًا، وراحت تهبط ابتداءً من عام ١٩٤٥ إلى الصف الثاني، وقـد ارتبط ذلك بأفول قوتها في عالم ما بعد الحرب.

خلال الحرب العالمية الثانية، ركّزت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة جهودهما على المعركة في أوروبا والمحيط الهادئ، رغم تأكيدات السوفيات التي ادّعت فيما بعد بأن هذين البلدين كانا قد حضّرا للحرب الباردة. أمّـا السـوفيات فلـن تكـون لديهـم فـي المستقبل حرية التصرف أبدًا بخصوص عملياتهم المخابراتية في الغرب، حريـة كـانوا قد تمتعوا بها في حقبة الحرب... بالنسبة للمركز، حمل السلام معه مسائل جديدة. ومن المفارقة أن يكون تسريح دوائر المخابرات الإنكليزية والأميركيـة أولـى هـذه المسـائل. وقد حرم قـرار الرئيس ترومـان بتصفيـة الـ OSS فـي أيلـول ـ سـبتمبر عـام ١٩٤٥ الـNKGB من عدد كبير من العملاء المتسللين إلـى الدوائـر السـرية "للعدو الرئيسـي". ومع إنشاء "وكالة المخابرات المركزية الأميركيّة CIA" عـام ١٩٤٧، أُجبر السـوفيات على البدء من الصفر، أمّا تسللهم إلى CIA فلم يتوصل إلى المستوى الذي وصـل إليـه في الـ OSS. وفي بريطـانيـا العظمـى، حرمـت تصفيـة وزارة الإعـلام والــ SOE بعد

الحرب بيتر سمولِّت، وجايمس غلوكمـان مـن مراكـز أساسـية. إن سـمولِّت الـذي عـاد وأصبح سمولكا، قصد فيينا والتحق بالصحافة، أما غلوكمان المسرَّح، فعـاد إلـى مهنتـه كمناضل شيوعي؛ وقد أصبح أخيرًا المؤرّخ الرسمي للحزب. وقد حرم التسريح كذلـك المركـز مـن عميلـه الوحيد فـي "جهـاز الأمـن البريطـاني MI-5" ومـن أحـد عميلَيْـهِ المتسلِّلَيْن إلى SIS. وترك "أنطوني بلونت" الـ MI-5 بمباركة الـNKGB.

في تقاريرهما الموجهة إلى المركز، دأب ضابطا الاتصال التابعـان لـه ابتـداءً مـن عام ١٩٤٤، أي "أناتولي غورسكي" و"بوريس كروتوف" على التلميح إلى الإنهاك الذي يصيب أنطوني بلونت والتوتر العصبي الذي يعتريه من جراء اضطلاعـه علـى ألـوف الملفات شهريًا. ومع نهاية الحـرب، ظهـر واضحًا لموسكو أنّ بقـاءه فـي مركـزه فـي الـMI-5 ينطوي على مخاطر حقيقية. وفـي خريـف عـام ١٩٤٥، سـجل فيتيـن، رئيـس الـINO، على هـامش ملفـه: "لقد أسدى لنـا هـذا العميـل خدمـة جليلـة، جبـارة، خـلال الحرب. لا بد أنه منهك. وعلينا أن نتركه يرتاح خلال خمس أو عشر سنوات".

ترك بلونت الـMI-5 وعاد إلى عالم الفن في تشرين الثاني ــ نوفمبر عـام ١٩٤٥. لقد أصبح مسجّل المجموعات الملكية، وابتداءً من عام ١٩٤٧ مديرًا لمعهـد الكورتولـد Courtauld. وقبيل تخليه، ساهم بافتضـاح أمره وهذا ما يفسر إمكانية أن يصدقـه فيتيـن حـول إخفاقـه الوشيك. وقـد أسرَّ بلونـت إلـى أحـد زملائـه، وهـو الكولونيـل "تـار روبرتسون" بقوله: "وهكذا، لقد كنـت سـعيدًا فـي أن أنقـل لـلروس أسـماء كـل ضبـاط الـMI-5"...

يبدو أن فيتين كان يأمل أن يخلفه "ليو لونغ" العميل الذي كان قد اشتغل تحت إمـرة بلونت خلال الحرب. وبعد العام ١٩٤٥، تـرك لونـغ الـMI-5 ووزارة الدفـاع والتحـق بلجنة المراقبة البريطانية في ألمانيا حيث أنهى مهنته كمدير مساعد للمخـابرات. وفـي

عام ١٩٤٦، ورغم إلحاح بلونت، لم تعينه الـMI-5 في المركز الأعلى الذي سعى للحصول عليه، ووقع اختيار لجنة الانتخابات، بفارق بسيط في الأصوات، على مرشح آخر. وبعد ذلك، زهد لونغ سريعًا بالجاسوسية ولم يستجب لمحاولات المركز المنتظمة للاتصال به عبر ضابط اتصال. وقد عزا المركز رفضه إلى أن بلونت لم يعد بإمكانه أن يقوده وإلى وضعه العائلي الجديد؛ وبعد فشل زواجه الأول مع مناضلة شيوعية، تزوج ثانية وأنجب أطفالاً. ومن بين خدمات المصادفة التي تابع بلونت تقديمها للمركز، رحلتان أو ثلاث رحلات إلى ألمانيا لجمع معلومات إلى جانب لونغ...

ومثل الكثير من عملاء المخابرات المجندين خلال الحرب، تم تسريح جون كارنكروس عند نهاية الحرب، وخلافًا لفيلبي، فهو لم ينجح أبدًا في التفاهم مع زملائه في الدوائر السرية وذلك بعد تركه البلتشي بارك Bletchley Park والتحاقه بقيادة SIS العامة في البرودواي بولونغ عام ١٩٤٣. وكان دافيد فوتمان، رئيسه في الخدمة خلال السنة الأخيرة من الحرب فرآه "عجيبًا ومعقدًا". إنما وعلى عكس بلونت، لم يترك، ولو جزئيًا، الدوائر السرية السوفياتية وتواجد بعد العام ١٩٤٥ في وزارة المالية حيث كان يقدم كل شهر معلومات إلى "بزريس كرونوف"، ضابط الاتصال الخاص به. وقد شغل عضوان آخران من "الخمسة الكبار"، هما بورجيس وماك لين مركزي نفوذ في القسم الآخر الرائع من وزارة الحرب البريطانية Whitehall. وعام ١٩٤٦، أصبح الأول مساعدًا لهكتور ماك نيل، نائب أمين سر الدولة إرنست بيفان في وزارة الخارجية في حكومة العمال. وأما بالنسبة للآخر، السفير في واشنطن، فأصبح أمينًا على سمعته كدبلوماسي شاب موعود بمستقبل باهر.

وهكذا تضاءل التسلل السوفياتي في الدوائر الإنكليزية والأميركية إلى حد بعيد. ومع عملية حل الـOSS، بدا وكأن المركز فقد كل مصدر للمعلومات من المستوى

العالي في واشنطن. فبعد إغلاق الـSOE وانصراف بلونت من MI-5 وكيرنكروسيس من SIS، لم يبقَ في لندن سوى جاسوس متنكّر بشكل جيّد... وأيّ نوع من الجواسيس هذا!..."إنه فيلبي الأكثر شهرة من بين الأربعة الكبار، والعميل المتسلل، وذو الموهبة الاستثنائية في كل تاريخ الـKGB"، وكان العميل الوحيد المتطوع في الـSIS خلال الحرب وقد توجب منحه وسامًا عند حلها. وقد رأى فيه بعض زملائه "الرئيس المقبل" للدوائر السرية.

بعد أن فقدت بعضًا من عملائها الأفضل تمركزًا داخل دوائر المخابرات البريطانية والأميركية، اضطرت الـ NKGB السوفياتيّة لمواجهة العديد من عمليات الارتداد: عمليتا ارتداد ذات نتائج خطيرة في أميركا الشمالية، ومحاولة ارتداد في تركيا ليست أقل خطورة. وفي تشرين الثاني - نوفمبر من عام ١٩٤٥، راحت إليزابيت بانتلي تكشف للـ FBI كل ماتعرفه عن عمليات الـ NKGB في الولايات المتحدة. إن عملية الارتداد هذه أدّت لأن تستفيد الـFBI جديًا من الملفات التي قدمها "ويتّاكر شامبرز" والتي تحدّد ممارسة السوفيات للجاسوسية قبل الحرب. ولا ريب أن هذه البراهين لم تكن تكفي لوضع القضية في يد القضاء وإدانة أكثرية العملاء السوفيات والذين عرف بهم كل من بانتلي وشامبرز، بل إن هؤلاء الجواسيس لن يتمكنوا من الآن وصاعدًا من تقديم أي خدمة لدوائر الـ NKGB. واستمرت موسكو على ارتيابها بأن الـ FBI لم تجمع البراهين والشهادات الضرورية لمحاكمة كبرى لكل جواسيس شبكة بانتلي القديمة. ولم تهدأ هذه المخاوف إلا مع وصول فيلبي إلى واشنطن عام ١٩٤٩. ومن بين العملاء الأربعة الأكثر أهمية والذين عرّف منهم كل من بانتلي وشامبرز، فإن "ألْجر هيس" هو الوحيد الذي لوحق. فقد كان هذا الأخير قد ترك وزارة الخارجية الأميركية ليرأس، في بداية عام ١٩٤٧، مؤسسة كارنيجي، وقد حكم عليه

عام ١٩٥٠ بخمس سنوات سجن بسبب إدلائه بشهادة زور؛ أما "هاري دكستر وايت"، الذي كان قد ترك وزارة الخزانة الأميركية عام ١٩٤٥ ليصبح مديرًا لصندوق النقد الدولي FMI، فمات إثر نوبة قلبية بعيْد الإدلاء بشهادته أمام اللجنة الداخلية عن نشاطاته المعادية للأميركيين خلال صيف عام ١٩٤٨؛ وانتهى الأمر بكل من "دنكان ت. لي" المساعد السابق للجنرال دونافان في الـOSS، و"لوكلان كيرّي"، المستشار السابق للرئيس روزفلت بالرحيل عن الوطن.

أما ارتداد محلل الرموز "إيغور غوزانكو" في أوتاوا في أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٤٥ فشكّل بالنسبة للسوفيات ضربة مؤلمة مثل تلك الضربة التي وجهتها إليزابيت بانتلي لهم بعد ذلك بشهرين. أما محاولة غوزانكو فأوشكت هكذا على الانتهاء بالفشل. ففي مساء الخامس من أيلول، وعندما طلب المساعدة أولاً من جريدة أوتاوا ثم من وزارة العدل، طُلب منه العودة غدًا صباحًا. إنما وفي الساعة المحددة، بدا أن كلا الفريقين لم يعد يملك سوى تلك الأمسية ليسارع إلى نجدته. فقد أمضى غوزانكو وزوجته وأولاده أمسيتهما مختبئين عند أحد الجيران، بينما حطم رجال الـ NKGB باب منزلهم، ولم تسارع الشرطة المحلية لنجدته إلا عند منتصف الليل. وقد ظهر "ماكينزي كنغ"، رئيس الوزراء الكندي منذ عام ١٩٣٥، على درجة من السذاجة فاقت سذاجة روزفلت في موضوع التجسس السوفياتي في عاصمته. وفي البداية فهو لم يصدق بتاتًا حكاية غوزانكو. وعندما اقتنع أخيرًا، كتب في يومياته: كم كانت تَصْدُمه فكرة أن يقوم الاتحاد السوفياتي بالتجسس على أحد حلفائه من الحرب: "وأنا أُملي هذه الكلمات، أفكر بالسفارة الروسية، على بعد خطوات من هنا، التي بدت كمركز للمؤامرات. فخلال هذه الحرب، وبينما كانت كندا تساعد روسيا، وتعمل كل ما بوسعها لتوطيد الصداقة الروسية الكندية، فإن فرعًا من الدوائر الروسية كان يتجسس علينا... وأغرب ما في

الأمر، هو عدد الصلات التي نجحوا بإقامتها مع مراكز القوى في الحكومة وفي المجال الصناعي".

لم تنحصر اعترافات غوزانكو عند وجود شبكة جواسيس مهمة في كندا ذاتها. فقد قدَّم كذلك معلومات عن أنظمة الشيفرة السوفياتية وبراهين إضافية عن نشاطات هاري دكستر وألْجرهيس، وكانت براهين أخرى قد سمحت عام ١٩٤٦، بإدانة "ألان نون ماي" كجاسوس متخصص في المسائل الذرية، وقد أعطى كذلك إشارات بخصوص هوية جاسوس سوفياتي متسلل إلى الدوائر البريطانية ويطلق عليه الاسم الرمزي "إلِّي". ولم يكن بالإمكان الكشف عن هويته إلا في عام ١٩٨١ على يد غورديفسكي، وذلك عندما تمكن هذا من الكشف على ملف "إلّي" في الـKGB؛ فاكتشف حينئذٍ أن المقصود هو "ليو لونغ".

إضافة إلى ذلك فإن محاولة ارتداد جاسوس آخر في اسطنبول أوشكت أن تسبب لعمليات الـ NKGB في بريطانيا خطأً مميتًا مثل ذلك الذي ارتكبته "إليزابيت بانتلي" في الولايات المتحدة.

في السابع والعشرين من آب ـ أغسطس عام ١٩٤٥، ها هو المندوب المساعد للـNKGB في تركيا، "قسطنطين فولكوف"، والذي يؤمِّن له موقعه كنائب للقنصل التغطية الدبلوماسية، يطلب عبر البريد موعدًا مستعجلاً مع "ث. بيج"، نائب قنصل بريطانيا العظمى في اسطنبول. وبما أنه لم يتلق أي جواب، توجّه شخصيًا إلى القنصلية في الرابع من أيلول ـ سبتمبر لطلب اللجوء السياسي لنفسه ولزوجته، مقابل حق اللجوء، ولقاء مبلغ ٥٠,٠٠٠ ليرة، قدم ملفات مهمة، ومستندات ومعلومات حصل عليها وهو يعمل لحساب شعبة الـINU البريطانية في المركز في موسكو. وقد أكَّد إضافة إلى ذلك، بأن اثنين من العملاء السوفيات الأكثر أهمية، في حقبة الحرب، كانا

لا يزالان في مركزيهما في وزارة الخارجية، وأن سبعة آخرين يعملون: "داخل دوائر المخابرات البريطانية" وأن أحدهم "يقود دائرة مضادة للجاسوسية في لندن". وكان فولكوف يصر على إبلاغ واشنطن عن مسعاه عبر الحقيبة الدبلوماسية أو المخابراتية بين لندن وسفارتها في موسكو أن هذه الدائرة قد تم فكها منذ سنتين ونصف.

في التاسع عشر من أيلول ـ سبتمبر، تلقى فيلبي، باستغراب شديد، وعبر الحقيبة الدبلوماسية للسفارة في اسطنبول، تقريرًا حول ارتداد فولكوف. وخشي ـ ليس دون سبب ـ أن يُفتضح أمره على أنه "مدير الدائرة المضادة للجاسوسية" الذي كان قد أشار إليه فولكوف. "وفي ذلك المساء، كتب فيلبي في مذكراته: عملت حتى وقت متأخر... فقد ظهر لي بأن الموقف يستدعي إجراءات استثنائية". وكان الإجراء العاجل المتخذ فعلاً هو لقاء عاجل مع القائم على مراقبته "بوريس كروتوف". وكانت تلك اللحظات هي أخطر ماواجهه خلال كل فترة عمله. فلو أن غوزانكو، كان حظه أقل من ذلك بقليل قبل ذلك بخمسة عشر يومًا، في أوتاوا، فإن محاولة ارتداده كانت ستفشل. ومع حظ أوفر بقليل في اسطنبول، كان يمكن لفولكوف أن يوفَّق بكشف فيلبي والإضرار بشكل فادح بالخمسة الكبار. غير أن فولكوف كان عاثر الحظ؛ فقد كانت سفارة بريطانيا في اسطنبول غائبة، وكان القائم بالأعمال لا يعير كبير اهتمام إلى كل ما يتعلق بالجاسوسية. وعلى ذلك أهمل إبلاغ رئيس بعثة الـSIS، "سيريل ماكري"، بالموقف. إنما كان هذا الأخير قد أدرك فعلاً أهمية هذا المسلك، وربما كان قد تمكن من تنظيم ارتداد فولكوف.

على أثر لقائه العاجل مع فيلبي في مساء التاسع عشر من أيلول ـ سبتمبر، أبلغ كروتوف المركز عن الارتداد الوشيك لفولكوف. وفي الواحد والعشرين منه، سلّمت القنصلية التركية في موسكو إقامتين لعميلين من الـ NKGB تسمح بمرور مبعوثين

دبلوماسيين. وفي الغد، قررت لندن إرسال فيلبي بالطائرة إلى اسطنبول للاهتمام بالقضية. ولم يتمكن من الوصول إلى اسطنبول إلا في السادس والعشرين من أيلول ـ سبتمبر فقط. وحسب رواية الأحداث التي أعدّتها الـ KGB وفيلبي والمخصصة للغربيين، اختفى فولكوف من اسطنبول "بعد عدة أسابيع". وفي الحقيقة، فقد ترك المرتد وزوجته المدينة قبل يومين من وصول فيلبي، محشوًّا بالمسكنات، ثم تمّ نقلهما على الحمّالات على متن طائرة سوفياتية، تحت إشراف شديد من الـ KGB.

وإذا صدقنا مذكراته في هذا المجال، فإن فيلبي قد حرر بهدوء تقريرًا خلال عودته إلى إنكلترا مقدمًا عدة تفسيرات "لتبدّل حال" فولكوف: الإسراف في تعاطي الكحول، عدم التطفل، وضعه على جهاز التنصت أو ببساطة تغيير رأيه. "وهناك أطروحة أخرى" يقول فيلبي، "قد يكون الروس قد علموا بسلوك فولكوف إزاء الإنكليز... لم تكن مدعَّمة بأي برهان؛ ومن أجل ذلك لم أذكرها في تقريري". غير أن مضمون الملف الذي وضعه فيلبي عمليًا كان مختلفًا جدًا، وعند عودته إلى لندن، كان مضطربًا جدًّا، حتى أنه لم يرد تصديقه فيما بعد... وكان يرتاب، بعد هذا الفصل الذي تلا مباشرة ارتداد غوزنكو، أن يكون قد تم كشفه. وفي تقريره، عمل كل ما بوسعه لكي تدور الشبهات حول فولكوف. وعندما وصلت نسخة إلى المركز، سببت بعض الارتباك..

يشرح فيلبي في هذا التقرير رغبة فولكوف الانتقال إلى الغرب كونه كان "خائنًا"، وحيث أنّ الـ NKGB كانت قد أدركت "خيانته". وبما أن المقصود بذلك كان مرتدًا، فقد كان من المدهش على الأقل أن تخط ريشة ضابط من الـ SIS هذه الكلمات.

مشغولاً بجعل الشكوك تحوم حول اعترافات فولكوف عن التسلل السوفياتي، فإن فيلبي الذي يجازف بشكل خطير يلفت الأنظار إليه، نجح في المبالغة بتسويد الصورة

وذلك لتحطيم البراهين سلفًا، وهي التي ادّعى فولكوف أنه يملكها. وبرأيه أنه كان يتعذر تفسير عدم تقديم فولكوف لمعلومات مزورة، ومع ذلك فإن فولكوف يصر في رسالته على واقع أنّ السوفيات على علم منذ سنتين بأنظمة الشيفرة البريطانية. إن هذه المحاولة في الحط من اعتبار فولكوف على يد فيلبي بما تتضمن من مبالغة، هي على النقيض من رواية الوقائع الواردة من تراثه والتي اختلقها أثناء نفيه في موسكو.

معرَّضًا، لأول مرة منذ دخوله الـ SIS، لخطر الانكشاف، فقَدَ الجاسوس برودة أعصابه، وفي تلك الفترة، كان قد أصبح فوق كل الشبهات داخل الـ SIS حتى أن قضية فولكوف لم تشكل أي تهديد له. إنما وعندما أصبح في عام ١٩٥١ محط الأنظار من جراء هرب بورجيس وماك لين، أعيد فتح ملفه وأصبحت محاولته الحمقاء لإثارة الشبهات حول فولكوف والحط من قيمته شاهد إثبات مهم ضده.

غير أن العمليات السوفياتية لما بعد الحرب كانت معرّضة للتهديد خصوصًا من جراء عدم احترام الإجراءات الأمنية في استخدام كودات الشيفرة خلال السنوات الأخيرة من الصراع. وعام ١٩٤٤، حصلت الـ OSS على ألف وخمسمائة صفحة من قاموس الكودات المحجوزة لدى الفنلنديين. وبناءً على أوامر روزفلت، ومع أنه تم إرسال النسخة الأصلية إلى موسكو، فقد احتفظ دونافان بنسخة عنه. أما القاموس ذاته فلم يكن من الممكن أن يكون عونًا كبيرًا لمحلّلي الرموز الغربيين. وكانت أول مرحلة في عملية ترميز مرسالٍ ما خاص بالـ NKGB/NKVD هي استبدال كل كلمة (وأحيانًا كل حرف) بعدد من خمسة أرقام أعيد نسخها في قاموس الكودات. غير أن مرقِّم مقر الـ NKGB أضاف هكذا إلى كل مجموعة من الأرقام مجموعة أخرى من خمسة أرقام من لوائح احتمالية من الأعداد تقدمها كراريس ذات استعمال وحيد يملك المركز وحده نسخة عنه. وطبقًا لتعليمات المركز، فإذا لم يكن الكراس ذا الاستعمال الوحيد قد

أُستخدم فعلاً سوى مرة واحدة، حينئذٍ يصبح من المستحيل فك رموزه عمليًا. إنما خلال السنة الأخيرة من الحرب، أصبحت كمية المعلومات المرسلة من المقرين الأميركي والبريطاني بحيث إنه حصل أحيانًا أن أرسل المركز مرتين الكراس ذاته، وقد تم فعلاً إعدام ضابط حل الشيفرة فيما بعد.

مع نهاية الحرب، وفي مناسبتين ثانيتين، لم تُحترم مع ذلك تعليمات المركز الأجنبية. فقد احتجزت الـ FBI النص غير المرمَّز لعدة برقيات أرسلتها NKGB من نيويورك إلى موسكو عام ١٩٤٤. وقد تمكن إيغوز غوزانكو، بعد ارتداده في أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٤٥، من تقديم إشارات ثمينة حول أنظمة الشيفرة التي تستخدمها الـ NKGB والـ GRU.

إنما وبفضل اكتشافات "مرديت غاردنر" لعام ١٩٤٨ تم فعلاً استغلال هذه الثغرات في القواعد الأمنية. فقد عمل هذا المحلل لحساب الوكالة الأمنية لجيوش الولايات المتحدة التي توحدت في السنة التالية مع الوكالة الأمنية للقوات المسلحة (AFSA) لتصبح الوكالة الوطنية للأمن (NSA) عام ١٩٥٢... لم يكتف غاردنر أن يكون اختصاصيًا في الشيفرة، غير أنه كان كذلك موهوبًا وبشكل رائع باللغات. قد عُرف عنه أنه تعلم اليابانية في ثلاثة أشهر ليتمكن من الاشتغال على كودات وأنظمة شيفرة يابانية خلال الحرب. وفي عام ١٩٤٨، توصَّل إلى حلّ رموز بعض مقاطع المراسيل المرسلة من /أو الآتية إلى المركز خلال السنة الأخيرة من الحرب... وعندما التقاه "روبرت لامفر"، أحد عناصر الـ FBI، لأول مرة، وجده "كبيرًا، متخلّفًا، متحفظًا، ذكيًّا في الظاهر، ومترددًا كثيرًا إزاء فكرة التحدث عن عمله والقول إذا كان هذا العمل قد سمح له بالتقدم منذ استلام المقاطع الأولى من الـ FBI". ومع ذلك، فإن عدة ألوف من مراسيل الـ NKGB تم حلّها كليًا، أو جزئيًا في السنوات اللاحقة (اسم كودا العملية:

"Venona"). وفي عام ١٩٤٨، تم تسليم الروس أسرار الـ "Venona" والتقنية التي استخدمها غاردنر بواسطة محلل من الـ ASA، هو "ويليام ويسباند"، المجنّد مع الـMGB قبل ذلك بسنتين. وقد تم اكتشاف خيانة ويسباند عام ١٩٥٠. وقد حُكم عليه بالسجن سنة واحدة لإهماله الحضور أمام هيئة المحكمة، إنما لم يلاحق أبدًا على تجسسه. وقد كان رأي الـ ASA ومثيلتها البريطانية الـ GCHO بأن الـ "Venona" كانت سرًا مهمًا جدًا يستحيل الكشف عنه حتى أمام محكمة سرية[١].

توقع المركز مباشرة بأن الـ "Venona" كانت تتمتع بقوة قنابل زمنية قادرة على تدمير شبكاتها. وبما أنه لم تسمح أيّ وسيلة بتوقّع أي مرسال للـNKGB سيتم حلّه، فقد كان من المستحيل معرفة متى وأين ستنفجر هذه القنابل. وقد لاح حلّ جزئي للمسألة وذلك عندما أصبح فيلبي عميل اتصال لحساب الـ SIS في واشنطن في تشرين الأول - أكتوبر ١٩٤٩. وبعد ذلك بوقت طويل، اضطر مِرْديت أن يستحضر الذكرى المرة لفيلبي، مدخنًا غليونه، منحنيًا إلى فوق كتفه، متطلعًا بإعجاب إلى عمليات التقدم التي يحرزها في مجال فك رموز المراسيل الروسية. وبفضل وُلوجِهِ إلى مواد الـ"Venona"، فقد ضاق على فيلبي مركزه، حتى استدعائه إلى لندن عام ١٩٥١، وذلك لإعلام موسكو في كل مرة يطبق الفخ على خناق أحد عناصره في بريطانيا أو الولايات المتحدة.

لقد سببت الـ "Venona" ضررًا كبيرًا لعمليات الاستخبارات السوفياتية حتى في أستراليا. لم يشكل هذا البلد رهانًا حقيقيًا بالنسبة للدوائر السرية السوفياتية. إنما ومنذ

---

١ - Martin David, *Wilderness of Mirrors,* Édition de Poche, Ballantine Book (New York, 1981), P. 46; Wright Peter, Spycatcher, Viking (New York,1987), P. 184.

تمركز أول بعثة دبلوماسية سوفياتية في كندا عام ١٩٤٣، فإن مركز الـ NKGB، بقيادة شيمون ماكاروف (١٩٤٣ ـ ١٩٤٩) اخترق سريعًا وزارة الخارجية الأسترالية، المصدر المهم للملفات السرية الأسترالية بل البريطانية كذلك (ومن بينها تقارير شعبة عمليات ما بعد الحرب الخاصة بقيادة الأركان البريطانية). وقد أربكت الـ "Venona" عميليْ ماكاروف الأكثر أهمية.

في بداية عام ١٩٤٨، توجه إلى أستراليا فريق من الـMI-5 بقيادة مدير المنظمة العام "سير بيرسي سيلليتو" وضمّ خليفة هذا الأخير، "سير روجر هولِّيي"، وذلك للتحقيق بالاختراق السوفياتي.

ومن أجل حماية مصدر معلوماتهم، فقد أعطى هذا الفريق الانطباع بأن مصدر معلوماته هو جاسوس بريطاني متسلل وليس المراسيل المحتجزة.

وفي وزارة الخارجية، كان أول عميل تم كشفه هو "جيم هيلّ" (الاسم الحركي "Touriste، السائح" في المراسلات المحلولة على يد الـ "Venona")، شقيق محام شيوعي مشهور. وقد سمحت الـ "Venona" حتى بتحديد الرقم المتسلسل لبرقية دبلوماسية كان هيل قد سلمها للروس، مُقرًّا هكذا بذنبه.

وبعد ذلك سمحت إشارات أخرى تم الحصول عليها بفضل حل رموز المراسيل السوفياتية بتحديد هوية الدبلوماسي الشيوعي "أيان ميلنر" (الاسم الحركي "بور Bur") على أنه عميل سوفياتي. وكان هذا الأخير قد ترك وزارة الخارجية للالتحاق بمركزها في الأمم المتحدة، واضطر فيما بعد إلى اللجوء إلى براغ.

وبعد هذه الاكتشافات، فإن التسلل السوفياتي إلى الإدارة الأسترالية بما فيها وزارة الخارجية، لم يصل أبدًا إلى مستويات تشبه تلك التي وصلها في فترة ما قبل الحرب

البـاردة. وقـد تمكـن فلاديمـير بـتروف، منـدوب الــKGB، عنـد ارتـداده عـام ١٩٥٤، أن يؤكـد أن مقـره كـان قد نجـح بفتـح ثغرات صـغرى فـي الجهـاز الأمنـي الأسترالي[١].

بعد الحرب عانى قطاعان من المخابرات متصلان أشد المعاناة من أعمال التسريح والارتداد وفـك المراسـلات. وقـد انصبّ جل اهتمـام المركـز علـى صعوبـة اختراق الدوائر العليا "للعدو الرئيسي". أما الأمل الألفي والإيمان بالاتحاد السوفياتي الـذي دعم آلاف من الشباب المثالي الأميركي الموهوب وألهمهم على مدى الأزمـة الكبرى وفـي فترة الحرب، فلم يحرّك جيل الحرب الباردة. ولم تعرف واشنطن سوى بعض حـالات الاختراق لمراكز على مستوى المرؤوسين أو بشكل نادر على المسـتويات المتوسـطة، إنما لم تحصل أيّ حالة اختراق على المستوى الذي وصل إليه عملاء مثل "ألجرهيـس" في وزارة الخارجية، و"هاري دكستر وايت" في الخزانة، و"دانكـان ث. لـي" فـي فـترة المخابرات، أو "لوكلان كيري" في البيت الأبيض، ولم يعد هناك أبدًا عملاء متطوعـون من حجم هاري هوبكنز.

في الوقت الذي تم فيه إنشاء الــ CIA فـي تموز ـ يوليو عـام ١٩٤٧، تـم وضـع طرق جديدة مختارة تمنـع تكرار سيناريو الاخـتراق السـوفياتي الكثيـف الـذي عرفتـه الـOSS. وابتداء من "ويليام ويسباند"، فإن الاختراقات السوفياتية التي عانت منها كثـيرًا الدوائر الأميركية كانت على مستوى الإصغاء والاعتراض وليس المخابرات التي يقوم بها "العملاء شخصيًا". أما مسألة تطويع عملاء سوفيات فقد أصبحت هي الأخرى أكثر خطورة من جراء رعونة المندوبين الأوائل في فترة مابعد الحرب في واشنطن. وخير

---

١ - Manne Robert, *The Petrow Affair: Politics and Espionnage*, (Sydney,1987), ch. 12.

مثال على ذلك هو "غريغوري غريغوريفيتش دولبين"، المعيّن عام ١٩٤٦، والذي افتقد للمؤهلات حتى قبل ظهور علامات الجنون عليه (جنون نسَبَهُ المركز إلى بدايات علامات خاصة بمرض السفلس الوراثي). وقد تم استدعاؤه عام ١٩٤٨، أما خلفه "جورجي الكسندرفيتش سوكوف"، فكان مندوبًا في ريو دي جينيرو حتى انفجار أزمة العلاقات السوفياتية البرازيلية نهاية عام ١٩٤٧. لقد ترك البلد تحت وابل من البَيض الفاسد والشتائم تصبها جمهرة غاضبة. وعلى غرار دولبين، كلّفه ما حصل من نتائج سيئة تأنيبات متعاقبة وذلك قبل استدعائه عام ١٩٤٩.

بعد التقسيم الجزئي لشبكات العملاء في الغرب زمن الحرب، انصب الاهتمام الثاني للمركز على القضايا النووية، وعندما استخدمت الولايات المتحدة القنبلة النووية ضد اليابان في آب ـ أغسطس عام ١٩٤٥، بدأت موسكو تهتم بتخلفها عن "العدو الرئيسي" في مجال التسليح. ومنذ ذلك الحين، كرس السوفيات قبل كل شيء عمليات استخباراتهم في الخارج للأسرار الذرية. بعد هيروشيما، استدعى ستالين إلى الكرملين بوريس لفوفيتش فانيكوف، مفوض التسليح ومساعديه؛ وقد حضر هذا اللقاء كذلك "إيغور فاسيليفيتش كورتشاتوف" العالم المسؤول عن البرنامج الذري: "لا أطلب منكم سوى شيئٍ واحدٍ، أيها الرفاق، هو أن نمتلك في أسرع وقت السلاح الذري! وأنتم لا تجهلون أن هيروشيما هزّت العالم بأجمعه. لقد تم تحطيم توازن القوى"! فما دام الاتحاد السوفياتي، حسب ستالين، لا يمتلك السلاح النووي فإن الغرب سيعرضه لأخطار هائلة....

وحتى ذلك الحين، كان مولوتوف مسؤولاً عن المشروع الذري، غير أن كورتشاتوف كتب قبل عدة أشهر إلى بريا منتقدًا إهمال مولوتوف وطالبًا منه مساعدته. وكانت الرسالة مخطوطة باليد: كان مضمونها حساسًا جدًا بحيث أن كورتشاتوف لم

يقدم على نسخها على الآلة الكاتبة، إنما بدا أنه حصل على هدفه: فبعد هيروشيما كلف ستالين بريا بالمشروع.

كان لهذا التغيير في القيادة نتيجة مباشرة، يقول مساعد كورتشاتوفش، البروفسور "إيغور غولوفين": "ظهرت لنا في ذلك الوقت المواهب الإداريّة لبريا واضحة. فقد وُهِب طاقة نادرة، ولم تستمر الاجتماعات ساعات، وتم اتخاذ القرارات بسرعة". تحت إدارة بريا كان المشاركون بالمشروع الذري قد أُخرجوا من المعتقل Goulage. ودائمًا حسب غولوفين، فإن العلماء استخدموا هذه اليد العاملة الشبه مستبعدة دون أن يفكروا كثيرًا بالأمر. "في تلك المرحلة، لم نكن نفكر سوى في شيء واحد: المهمة المكلفين بها والتي نريد إنهاءها بأسرع ما يمكن ـ أي قبل أن تسقط القنبلة الذرية الأميركية فوق رؤوسنا. فالخوف من حرب ذرية جديدة وضعت كل اعتبار آخر في المقام الثاني. وكل هؤلاء الذين عاشوا تلك المرحلة سيؤكدون ذلك".

مع ذلك كان بعض العلماء أكثر تحفظًا من غولوفين إزاء طرق القيادة عند بريا. وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني ـ نوفمبر، طلب الفيزيائي الكبير "بيوتر كابيتسا" الذي نال جائزة نوبل، في رسالة إلى ستالين، إعفاءَهُ من مهماته في البرنامج الذري: "إن الرفيق بريا يمسك، حقًّا، بعصا قائد الأوركسترا. تمامًا! غير أنه يتوجب أن يمسك أحد العلماء الجزء الأول من الكمان إذ إنّ الكمان يعطي الأسلوب للأوركسترا كلها. إن ضعف الرفيق بريا الأساسي هو أن على قائد الأوركسترا أن لا يمسك فقط بالعصا بل وأن يفهم كذلك التوزيع. وفي هذا المجال، فإن بريا ضعيف". وتشهِّر الرسالة كذلك باهتمام بريا بتقليد الطرق الأميركية في بناء القنبلة. ويقدم كذلك عروضًا لكي يضبط العلماء السوفيات طريقتهم الخاصة الأسرع والأقل كلفة. ولم يؤخذ بكلامه...

وفي الحقيقة وكما كتب كابيتسا، فإن الوسواس الذي كان يسيطر على بريا هو تقليد الأميركيين. ففي خريف عام ١٩٤٥، لم تعد القنابل التي دمّرت هيروشيما وناغازاكي، سرًّا على السوفيات. غير أن بريا كان يريد المزيد عن هذا الموضوع. ولم يكن يحتمل ضحالة المعلومات التي حصل عليها في المجال النووي لما بعد الحرب. وقد أحدث ارتداد غوزانكو في أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٤٥ سقوط آلان نون ماي... أما نَقْل "دافيد غرينغلاس" في شباط ـ فبراير فأفقد السوفيات أحد عميليهم في لوس آلاموس. أما الآخر أي "كلوز فيشز"، فترك لوس آلاموس في حزيران ـ يونيو عام ١٩٤٦ للالتحاق بالمعهد البريطاني الجديد في هارويل، المخصص للطاقة الذرية. وقد تابع هذا العمل لصالح السوفيات حتى عام ١٩٤٩. ولم يعد يمثل بالنسبة لهم مصلحة ملحة. أما Le Mac Mahon ACT، التي أنشأت في الولايات المتحدة هيئة خاصة بالطاقة الذرية AEC في آب ـ أغسطس عام ١٩٤٦، فقد كان من نتيجتها أن حالت دون حصول بريطانيا على معلومات جديدة حول هذا الموضوع. وإذ أصبحت هكذا مقطوعة عن أعمال البحث الأميركي، قررت الحكومة البريطانية (العمّالية) في تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٤٧ بناء قنبلتها الذرية، إنما لزمها سنتان أكثر من السوفيات لتحقيق هذا الهدف. وعلى الرغم من Mac Mahon ACT، فلم يلج ماك لين عالم المعلومات الذرية في واشنطن إلا بشكل محدود. وفي الحقيقة، فإن القيود الخاصة باقتسام المعلومات العلمية لم تسرِ لا على المواد الأولية ولا على إعادة نشر الأسرار الذرية التي كانت زمن الحرب. وبصفته الممثل الرسمي للسفارة البريطانية ومسؤول الجوانب السياسية للمسائل الذرية، حصل على إذن يسمح له بالتجول وحيدًا في مراكز الـ AEC. وقد عُرف في ما بعد بأنه قام في الفترة الواقعة ما بين صيف عام ١٩٣٧ وتَرْكِهِ واشنطن باثنتي عشرة زيارة للهيئة، وأن بعضها حصل ليلاً. وبعد تقدير

للأضرار التي سببتها الـ AEC، اطّلع على تقديرات عرض وطلب مواد اليورانيوم الخام للفترة الواقعة ما بين عامي ١٩٤٨ و١٩٥٢ وهي توقعات ظهر أنها غير دقيقة.

غير مرتاح لانخفاض تداول المعلومات من المستوى الرفيع في المجال الذري، كلّف بريا كورتشاتوف إرسال رسالة إلى الفيزيائي النووي الدانماركي "نيلز بوهلر"، بواسطة مبعوث من الـ MGB، يسأله فيها عن الأبحاث التي تمكن من الاطّلاع عليها في الولايات المتحدة. وقد رد بوهر وعبر البريد بأن الأميركيين رفضوا إطلاعه على كل المعلومات التي يرغب بها كورتشاتوف.

وحتى عند نجاح أول محاولة سوفياتية، سيطر الخوف على ستالين وبريا من أن يكون أي سر ذري حيوي قد أفلت من عملائهم في الغرب، وقد خشيا من أن تؤدي هذه الثغرة إلى فشل هذا البرنامج. ولإنهاء ريبة ستالين، حمل إليه كورتشاتوف إلى الكرملين شحنة أول قنبلة ذرية سوفياتية (كتلة من البلوتونيوم مغطاة بالنيكل، قطرها عشر سنتيمترات تقريبًا). "إنما كيف التأكد من أنّها فعلاً بلوتونيوم وليس مجرد قطعة من المعدن البرّاق؟ سأل ستالين. ولماذا هذا اللمعان؟ وهذا الغلاف؟ ـ كان قد تم تغليف الشحنة بالتنكيل لتسهيل إمساكها دون خطر؛ فالبلوتونيوم سام جدًا، غير أنه يصبح غير ضار عند تغليفه بالتنكيل، أجاب كورتشاتوف. ولكي تقتنع بأن هذا ليس مجرد كتلة من الحديد، أطلب من شخص تختاره أنت أن يلمسها. سيلاحظ بأنها حارة بينما سيجد الحديد باردًا". أخذ ستالين الكتلة بين يديه: "إنها حارة فعلاً. إنها كذلك باستمرار؟ ـ نعم، باستمرار، أيها الرفيق ايوزيف فيساريو نوفيتش. ففي داخلها تتوالد الفا ـ التدمير الكلي أي التفاعل النووي المتواصل الذي يجعلها حارة. غير أننا سنحدث داخل الكتلة تفاعلاً كبيرًا في الانشطار النووي. ويصبح هذا انفجارًا هائلاً".

ستالين إذن، مقتنع بحدود ما، بإجراء تجارب على هذه القنبلة الأولى، إنما وحتى آخر لحظة، ورغم نجاحات العلماء السوفيات ومآثر جواسيسهم، فإن الخوف من الارتقاء إلى مستوى الأسرار الحقيقية للقنبلة الذرية بقي يشغل بال بريا. وفي الخامس والعشرين من أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٤٩، قبل عشر دقائق من الساعة "س"، وفي موقع التجارب في كازاخستان، قال ستالين لكورتشاتوف: "لن يكون لكل ذلك أيّ نتيجة!" وعند حصول الانفجار، ضم بريا إلى صدره وعانق بحرارة كورتشاتوف الذي لم يكن هو الآخر أقل ارتياحًا، ثم سيطر الشك من جديد على بريا: هل كان هذا انفجارًا نوويًا فعلاً؟ واتصل في الحال هاتفيًا بشاهد عيان روسي للتجارب الأميركية في جزيرة بيكيني المرجانية لكي يعرف إذا كان "لفطر" الأميركيين الذري المظهر ذاته. وبعد أن اطمأن أخيرًا، اتصل بستالين. غير أن "بوسكربتشف" أمين سر ستالين، أجابه بأنه آوى إلى فراشه. وأصرّ بريا على إيقاظه. وبعد لحظات، أمسك ستالين السماعة "ايوزيف، كل شيء على ما يرام"، قال له بريا، "كان العصف شبيهًا بعصف الأميركيين"! ـ "سبق وعلمت بذلك"، رد الدكتاتور، وأقفل الخط.

مستاء أن يعرف ستالين ذلك من غيره، هدَّد بريا بقبضته من هم حوله وانفجر قائلاً: "خونة، حتى هنا تضعون العصيّ في الدواليب، سأحولكم إلى لحم مسلوق"!.

في الوقت ذاته الذي انفجرت فيه أول قنبلة ذرية سوفياتية، نجح مرديت غاردنر في فك رموز مرسال من الـ NKGB يعود تاريخه لعام ١٩٤٤. وقد تضمن هذا المرسال الإشارة الأولى التي ستتيح التعريف بأهم جاسوس متخصص بالمسائل النووية، ألا وهو كلوز فيشز، الذي كان حينها في مركز هارويل، كضابط اتصال علمي مساعد. وقد اعترف في كانون الثاني ـ يناير عام ١٩٥٠. وفي نيسان ـ إبريل عام ١٩٥١ حُكم عليه بالسجن أربع عشرة سنة، ولكي يبرر نشاطه في خدمة الروس،

لجأ إلى كلمات تصف تمامًا الحالة العقلية للكثير من عملاء السوفيات في الغرب: "لقد استخدمت الجدل الماركسي لإقامة خانتين متمايزتين في عقلي: في الأولى استندت إلى الصداقات والعلاقات الشخصية... يمكنني الشعور بالحرية والسعادة مع الآخرين دون الخوف من الانكشاف، ذلك لأنني كنت أعلم أن الخانة الأخرى قد تأخذ المهلة إذا غامرت في اللجج العميقة... لقد بدا لي حينها أنني أصبحت "رجلاً حرًّا"، إذ إنني كنت قد نجحت في الخانة الأخرى بأن أصبح مستقلاً تمامًا عن قوى المجتمع من حولي. وبالرجوع إلى الوراء، يبدو أن أفضل طريقة لوصف هذه الحالة العقلية هي في التحدث عن الفصام الملجوم".

وفي فترة اعتقال فيشز، كان هناك جاسوس آخر في المجال ذاته يعمل كذلك في هرويل، إنه "برونو بونتكورفو". إن التحقيقات التي توالت بعد الكشف على نشاطات فيشز، أظهرت أن عدة أفراد من عائلة بونتكورفو كانوا شيوعيين، غير أنها لم تقدّم أي برهان على نشاطاتهم الجاسوسية. وعندما بدأت عام ١٩٥٠ سلسلة عمليات اعتقال الجواسيس المتخصصين بالذرة، قرر المركز عدم المخاطرة ونقل بونتكورفو وعائلته إلى موسكو عبر خط أمين جدًا يمر في فنلندا. وهنا، تابع بونتكورفو مهنته الشهيرة كفيزيائي نووي. وقد قُلّد وسام لينين مرتين ونال عدة تنويهات أخرى أقل أهمية غير أنه نفى باستمرار نشاطاته في مجال الجاسوسية.

أحدثت "Venona" ليس فقط سقوط فيشز، بل إنها حملت كذلك البراهين الأولى التي أدت إلى اعتقال الجاسوسين الأميركيين "جيليوس" و"إتل روزنبرغ"، وفي شباط ـ فبراير عام ١٩٥٠، فُكّت رموز مرسال للـNKGB الذي يشير إلى عميل يحتل مركزًا ثانويًا في لوس آلاموس. وهناك إشارات أخرى أتاحت التعريف به على أنه شقيق إتل روزنبرغ، أي "دافيد غرينغلاس" والذي اعترف في حزيران ـ يونيو عام ١٩٥٠

بالدور الذي قام به وبتوريط صهره جيليوس روزنبرغ. وخلال أحد الاستجوابات، كشف غرينغلاس (مع أنه لم يتم الإعلان عن هذه الواقعة) بأن روزنبرغ كان قد تباهى أمامه بأنه كان على رأس شبكة جواسيس سوفيات كانت قد نقلت ليس أسرارًا ذريّة فقط، بل وكذلك كمية من المعلومات في شتى المجالات العلمية والتقنية بما فيها دراسات تحضيرية عن إطلاق أقمار صناعية إلى الفضاء.

وعلى عكس جاسوسيْ الذرة البريطانيين نون ماي وفيشز، أصرّا على براءتهما حتى النهاية. وكانت احتجاجاتهما بليغة، لا بل مؤثرة. ففي نيسان ـ إبريل من عام ١٩٥١، صدر عليهما الحكم بالإعدام وحدهما من بين كل الجواسيس السوفيات في الغرب. وخلال أكثر من سنتين، وجها النداء تلو النداء إنما دون نتيجة. فقد تم إعدامهما على الكرسي الكهربائي ذاته، الواحد تلو الآخر، في سجن نيو - يوركايز من أعمال سنغ سنغ، عام ١٩٥٣. وقد انتهت إحدى رسائل إتل إلى محاميهما بهذه الكلمات: "إننا الضحايا الأولى للفاشية الأميركية. أحبك، إتل".

إن شجاعتهما أمام الموت وحبهما المتبادل، وحبهما لوالديهما، وكذلك الظروف المرعبة لإعدامهما، عزّزت اعتقاد جزء كبير من الرأي العام العالمي أن هناك خطأً قضائيًا. وقد أثار العفن والنتن المتصاعد من اللحم المحروق الممتزج بعفونة البول والبراز تقزز الشهود الأربعين الذين حضروا الإعدام (صحافيون، موظفو السجن وآخرون). وحتى بعد تلقيها شحنة من ٢,٠٠٠ فولت، كانت إتل لا تزال حية، وكان لا بد من وصل التيار مرتين إضافيتين أيضًا قبل خروج دخان أبيض من جمجمتها.

آمن الـ"روزانبرغيّان" بأن روسيا السوفياتية، أو بالأحرى الصورة التي اصطنعوها عنها، تمثل أمل الإنسانية الكبير. وبهذا فقد كانا المتحدثيْن باسم هذا الإيمان المثالي الساذج الذي حرّك المؤمنين الصادقين في الغرب، وحتى بعد كل أعمال

الرعب الستالينية، كان جيليوس وإتل عميلين سوفياتيين شجاعين ومؤمنين بقضيتهما، وقد اعتقدا بأن أفضل طريقة لخدمة هذه القضية هي في أن ينكرا على الإطلاق أنهما تضامنا معها. ومنذ إعدامهما، حاولت الـ KGB باستمرار، و "بإجراءات فعالة" دعم الفكرة القائلة بأنهما كانا ضحايا بريئة لحملة مطاردة المشعوذات المعادية للشيوعية.

إنما لم تؤكد هذه الموضوعة بجدية أي حملة من "الإجراءات الفعالة" التي قامت بها الـ KGB في الولايات المتحدة، بل أكدها الرجل الذي قاد "مطاردة المشعوذات" أي السيناتور "جوزيف ماك لين" بالذات. وفي التاسع من شباط ـ فبراير من عام ١٩٥٠، أي في اللحظة التي أعلن فيها بأن لديه لائحة من ٢٠٥ شيوعيين (أكثريتهم من صنع الخيال) متسللين إلى وزارة الخارجية الأميركية، عززت حملته ضد الخطر الأحمر شكوك الرأي العام الليبرالي في العالم أجمع فيما يخص حقيقة هجوم الدوائر السرية السوفياتية ضد العدو الرئيسي".

إن الحذر الدائم من جهتَي المحيط الهادئ في عدم الإشارة لأسباب أمنية إلى الـ"Venona" أمام أية محكمة، عزّز كذلك الشكوك حول ذنب آل روزنبرغ. ولم يتم الكشف عن هذا السر أمام الرأي العام إلا في الثمانينات، وحتى في ذلك الحين، لم تعترف بريطانيا أو الولايات المتحدة بذلك رسميًا. إنما وأثناء سنوات الحرب الباردة الأولى، أربك هذا السر عمليات المخابرات السوفياتية في العالم أجمع.

إن سنوات الحرب الباردة الأولى ومسائل الـ "Venona" المتلاحقة تزامنت مع فترة غامضة للغاية في تنظيم عمليات المخابرات السوفياتية. وقد نجم هذا الغموض في جزء منه عن الصراعات من أجل السلطة في الكرملين. وفي الجزء الآخر عن تأسيس الـ CIA عام ١٩٤٧.

درس ستالين والمكتب السياسي للجنة المركزية عن قرب التقارير المرسلة من مندوب الـ MGB في واشنطن، دوبلين، ومن سفير الـ URSS الكسندر سميونوفيتش بانيوشكين.

كان الهدف النهائي من تأسيس الـ CIA، وكما حدده مشروع القانون حول الدوائر السرية المقدم إلى الكونغرس في شباط ــ فبراير عام ١٩٤٧، هو تنظيم وتقويم كل المعلومات المدنية منها والعسكرية الآتية من الخارج ومهما كان مصدرها. ومع أنه لم يتم تحقيق هذا الهدف بشكل كامل، فقد نجح مولوتوف في التأكيد على أن أيّ دائرة مخابرات موحّدة ستوفر للولايات المتحدة ميزة أكيدة على النسق المتشعب لدى السوفيات. وبرأيه فإن الحل هو في جمع مديريتيْ الـ MGB و الـ GRU تحت سقف واحد. وبرأي ستالين يقدم هذا الاقتراح ميزة أخرى هي إضعاف نفوذ لافرانتي بريا على الأمن خصوصًا وأن أحد أزلامه كان على رأس الـ MGB.

وفي خريف عام ١٩٤٧، تم إذن توحيد ميدريات دوائر المخابرات الأجنبية الخاصة بالـ MGB والـ GRU لتشكل وكالة مخابرات جديدة هي: هيئة الاستعلام (Komitet Informtsyi, KI). ومع أنه تم نظريًا وضع الـ KI تحت إشراف مجلس الوزراء، فإن تعيين مولوتوف على رأسها وفّر لوزير الخارجية نفوذًا واسعًا جدًا على عمليات المخابرات في الخارج. عزز مولوتوف كذلك إشراف مديريته مانحًا السفراء في العواصم الكبرى لقب "مستشار قانوني رئيسي"، وأعطاهم سلطة على المندوبَين: المدني (ex-MGB) والعسكري (ex-GRU).

وحسب المعاينة المرة للمنشق المقبل "إيليا دجيركفلوف"، فقد "نجم عن ذلك غموض والتباس غريبين. إذ إن المندوبين وموظفي المخابرات توصلوا لاستخدام مناورات غير معقولة لتفادي اطلاع السفراء على عملهم... فلم يكن لدى الدبلوماسيين

سوى معرفة سطحية جدًا عن المخابرات وعن طرقها". ومع ذلك فقد كلف بعض السفراء أنفسهم بصورة شخصية بعمليات مخابراتية. وكان الأكثر أهمية من بينهم هو "ألكسندر بانيوشكين"، السفير السوفياتي في واشنطن من عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥١، والذي قام بدور فعال في الحرب السرية ضد "العدو الرئيسي". فبعد الإرباك الذي أثاره استدعاء "غريغوري دولبين" المندوب في واشنطن من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٤٨ وخلفه "جيورجي سوكولوف" المندوب من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٤٩، الأول بحجة الجنون والثاني بحجة عدم الكفاءة... تسلم "بانيوشكين" مباشرة مسؤولية عمليات المقر لمدة سنة. وفي ما بعد، تجنب "نيقولاي الكسيفيتش فلاديكين"، المندوب في واشنطن من عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٤، كل خلاف مع بانيوشكين ومع المركز. وقد ترأس بانيوشكين ذاته فيما بعد المديرية الأولى في الـ KGB ، أي: جهاز المخابرات الأجنبية... ومن عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٤٩ احتل "بيوتر فاسيلوفيتش" فدوتوف مركز المدير المساعد في الـ KI برئاسة مولوتوف "مسؤول العمليات الموقت". وكان قد خلف فيتين على رأس الـ INU بعيد الحرب العلمية الثانية. ومثل فيتين تمامًا، تمتع فدوتوف بشهرة فكرية في المركز. ويتذكر دجيركفلوف بأن "ما ميزه فعلاً عن الموظفين الآخرين من المستوى العالي في الـKGB هو أنه كان باستمرار يعطي أهمية لرأي محدثيه. وإذا كان ثمة خلاف في الرأي، فهو يحاول دائمًا الإقناع بدل إصدار الأوامر". إنما وبالنسبة إلى "إيوري نوسانكو"، المنشق الآخر عن الـ KGB، لم يكن مظهر فدوتوف اللين في الحقيقة سوى نوع من الضعف. وبرأي نوسانكو، فقد اعتاد ترك الملفات على مكتبه مدة شهرين أو ثلاثة أشهر وذلك ليكوّن لنفسه فكرة عنها.

وقد حاول خط الـ KI توحيد عمليات الاعتراض والتحليل مع عمل العملاء. وقد أنشأت الشعبة الأجنبية في المديرية الخامسة الخاصة بالـ KGB (الترقيم والتشفير)

الملحقة بمثيلتها العسكرية أي الـ GRU، الفرع السابع في الـ KI، برئاسة الكولونيل الكسي شتشكولدين والذي كان قد ترأس الشعبة ذاتها في الـMGB. ومنذ يوم إنشائها، لم يكن وضع الـ KI ثابتًا. فكل الدوائر تقريبًا كانت بإدارة كوادر قديمة من الـ INU وكما كان متوقّعًا، فقد كان الملاك يبدي تذمره من أن المخابرات العسكرية تقوم بالأدوار الثانوية. وخلال صيف عام ١٩٤٨، وبعد خلاف طويل مع مولوتوف، نجح المارشال "نيقولاي الكسندروفيتش بولغانين"، وزير الدفاع، في سحب كل العسكريين العاملين في المخابرات من الـ KI وإعادة تعيينهم في الـ GRU. وقد كُلِّف أباكوموف، مسؤول الـ MGB حينئذٍ بحملة طويلة لاستعادة الإشراف على ما تبقى من الـ KI. وفي نهاية عام ١٩٤٨، عادت دائرة المستشارين لدى الديمقراطيين الشعبيين إلى حضن الـMGB وكذلك كل ضباط خط الـ KI العاملين في خط الـ EM (المهاجرين émigrés) أو في خط الـ SK (الجاليات السوفياتية في المهجر). ومع ذلك احتفظت الـ KI بمسؤولية جمع وتحليل أكثرية المعطيات التي ينقلها العملاء وتلك الصادرة عن عملية اعتراض وتحليل الرموز غير العسكرية حتى تحليلها وإعادة تأهيلها في الـ MGB في نهاية عام ١٩٥١.

وفي عام ١٩٤٩، وبما أنه لم يعد يحظى بثقة ستالين، تم استبدال مولوتوف على رأس الـ KI وفي وزارة الخارجية بأندريه فيشانسكي الشرس، وكيل المحاكمات العامة السابق والذي كان المساعد الأول لمولوتوف عام ١٩٤٣. وقد أوضح فيشانسكي يومًا بأن طريقته الإدارية كانت "إبقاء العملاء على حد السيف". ويصفه "أندريه غروميكو"، أحد حلفائه في وزارة الخارجية قائلاً: "عندما كان يستدعي أحد مساعديه، يبدأ حديثه بلهجة تأنيب حادة، إذا لم يبدأ بإهانات صريحة. وكان يتوجه بالطريقة ذاتها إلى السفراء وإلى أي مبعوث خاص، متصرفًا على هذا النحو، أعتقد أنه يقلّد بريا".

ومنذ الثلاثينات، كان فيشانسكي يكن إعجابًا لبريا يخالطه المكر. وحسب غروميكو، كان هذا الإعجاب واضحًا حتى في أحاديثهما الهاتفية: "فلمجرد سماعه صوت بريا، كان فيشانسكي ينهض عن الكرسي باحترام، وكان الحديث بالذات يعبر عن غرابة هذه العلاقة: فقد كان فيشانسكي خنوعًا مثل الخادم أمام معلمه[1]". وقد ازداد نفوذ بريا وتأثيره على الـ KI إلى حد بعيد في عهد فيشانسكي. أما فدوتوف الرجل الحالم والمتردد، والمكلف من قبل مولوتوف بعمليات روتينية في الـ KI، فاحتفظ بمركز المدير المساعد. غير أن سيرجي رومانوفيتش سافتشانكو الأشد شراسة وعزمًا فخلفه بصفته الساعد الأيمن. إن هذا المحسوب على بريا كان قد ترأس الـ NKVD في أوكرانيا خلال الحرب وشغل المركز ذاته في MGB من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٤٩. وكان يبدو أن سافتشانكو يأخذ من سلطة بريا أكثر مما يأخذ من سلطة وزير الخارجية. كان فيشانسكي قليل الاهتمام بقضايا الـ KI وعهد بها إلى موظفين كبيرين في وزارة الخارجية هما أولاً "أباكوف الكسندروفيتش ماليك" ثم "فالريان زورين". إنما يبدو أن أيًّا منهما لم يقم سوى بدور شكلي تمامًا.

رغم هذه الفوضى الجزئية التي سادت داخل الشبكات السوفياتية بعد الحرب، ورغم الارتباك الإداري الذي سيطر أحيانًا في موسكو، أُبقي الصراع الشرقي – الغربي في مجال المخابرات أحادي الجانب خلال السنوات الأولى من الحرب الباردة. وبينما احتفظت موسكو بعدة أوراق رابحة في الغرب، فإن هذا لم يكن يمتلك أيّ واحدة في موسكو. ومن أجل إنشاء أولى الشبكات في الاتحاد السوفياتي، ركزت الـ SIS ثم CIA كل جهودهما على التسلل عبر الحدود السوفياتية، معتمدة على مجموعات من

١- Gromyko Andrei, *Memories*, Kutchinson (London, 1989), PP. 318-319.

أنصار مقاومة ستالين. وفي دول البلطيق على الحدود التركية، أفشل المركز كل محاولات التسلل تقريبًا وذلك بفضل سلسلة من الخدع مثل تلك التي قام بها تروست Trust، والتي أوقعت دوائر المخابرات الغربية في المكائد خلال العشرينات. وفي عام ١٩٥٣، وعندما عُيِّن "إيوري نوسانكو" في المديرية الثانية (المضادة للجاسوسية) مسؤولاً عن العمليات، كانت إحدى أولى زياراته لصالة الدراسة الخاصة بأعضاء وكالة تشيكا في لوبيانكا، وحيث خصصت الواجهة الأكبر الموضوعة فوق رسم فلكس دزرجنسكي لقضية تروست. وغير بعيد منها، وكتقدمة شعائرية إلى "فيليكس الحديدي"، عُرِضَت أجهزة راديو وجزء من الأدوات التي استخدمها عملاء الـ SIS والـCIA الداخلين سرًا إلى الاتحاد السوفياتي عبر حدود دول البلطيق، وبولونيا وأوكرانيا ومناطق أخرى.

أما "هاري كاّ"، وهو رئيس بعثة سابق إلى هلسنكي قبل الحرب وعمل في مركز استوكهولم خلال كل فترة الحرب تقريبًا، فقد تم تعيينه فيما بعد من قبل الـ SIS كمشرف على منطقة الشمال. وكان يعتبر دول البلطيق على أنها المنطقة الأكثر ملاءمة في الاتحاد السوفياتي لعمليات تسلل تقوم بها الـ SIS. وعلى هذا فقد عملت الـMGB/NKGB على نشر الرعب فيها من جديد وذلك بعد توقف ناجم عن الغزو الألماني عام ١٩٤١. وقبيل نهاية الحرب، قدم كارّ محطتَيْ راديو إلى عميلين، كان ينبغي على منظمة من المهاجرين نقلهما إلى الاتحاد السوفياتي عن طريق ليتونيا، وذلك للاتصال بمناصرين محليين، وفي ليل ١٥ ـ ١٦ تشرين الأوّل ـ نوفمبر من عام ١٩٤٥، غرق زورق بمحرك تابع للـ SIS يحمل أربع عملاء ليتونيين وذلك قبل قليل من وصوله إلى شاطئ الكورلاند. وقد نجح العملاء في الوصول إلى الشاطئ، وفي الغد، وجدت دورية من حرس الحدود جزاءًا من لوازمهم على الشاطئ. ولم تكن

NKGB بحاجة إلى أكثر من بضعة أسابيع لتوقيفهم. وفي غضون ذلك نجح عامل الراديو بإبلاغ الـ SIS عن وصولهم.

وفي فترة الحرب، ومثلما فعلت المخابرات البريطانية، استخدمت الـ NKGB عملاء ألمان أسرى في نقل معلومات خاطئة بالراديو إلى قيادتهم. أما النقيب جانيس لوكازفيكس (أو لوكازفيتش، كما كان يسمي نفسه بعد التحاقه بالمركز)، ضابط المديرية الثانية (المضادة للجاسوسية) التابعة للـ NKGB في ليتونيا، والبالغ من العمر ٣٥ سنة، فأوحى بالقيام بذلك مع العملاء الليتونيين المهاجرين. إنما وعندما تمت مواجهة هذا الحل بجدية، فإن العملاء الذين كانوا قد تعرضوا لشتى أنواع التعذيب على أيدي مستجوبيهم من الـ NKGB، لم يعد بإمكانهم تقديم أيّ فائدة. أكثر من ذلك، كان على صمت الراديو الطويل الذي تلا اعتقالهم إيقاظ شكوك الـ SIS، وهذا ما زاد العملية صعوبة. أخيرًا حصل لوكازفيكس على الإذن باستخدام الراديو وكتاب الرموز الخاص بالـ SIS وذلك بالتعاون مع نصير آخر. وعلى هذا الأساس تم تحرير أوغست برغمانيس، عامل الراديو، من السجن لقاء تعاونه. وقد باشر هذا الإرسال في آذار عام ١٩٤٦ ولوكازفيكس يجلس إلى جانبه. وانتحل شخصية نصير ليتوني كان نجح العملاء بتسليمه جهاز الراديو ومنظومات الرموز قبل إيقافهم بقليل. ومع أن برغمانيس احتاج إلى بعض الوقت لكسب ثقة الـ SIS، فإن عمليات إرساله سجلت بداية عملية خداع استطاعت أن تعرّض للخطر كل عمليات الـ SIS في دول البلطيق[1].

ومع نهاية عام ١٩٣٦، حصلت في ليتونيا كارثة جديدة، فقد واجه "ريهاردس زاند" عميل الـ SIS الذي كان قد وصل في آب ـ أغسطس، بعض الصعوبات مع

---

١ ـ Tom, *The Red Web*, Aurum (London,1989), PP. 46-47, 59-62 Bower

راديو الإرسال الذي في حوزته، وعلى هذا فقد نصحه مركز الـ SIS في استوكهولم بالاتصال مع برغمانيس. "كان اللقاء ناجحًا، ومن الآن فصاعدًا أصبحت على قناعة بأن برغمانيس لم يكن أداة بيد الـ MGB" روى زاند "لاريكس تومسون"، الذي كان قد وصل معه. أما رؤساء لوكازفيكس فخافوا كذلك بأن لا تنطلق المخابرات البريطانية البعيدة عن مراقباتهم بعملها إذا بقي زاند وطومسون حرّين. ولم يتجرأوا على المباشرة بخداع على مستوى واسع. وفي آذار ـ مارس من عام ١٩٤٧، وبتلقين من لوكازفيكس، بثّ برغمانيس نحو لندن المرسال التالي: "كارثة كبرى، زاند وطومسون موقوفان، ونجوت أنا، سأتصل بكم عندما يزول الخطر".

وبعد عدة أشهر، أطلق لوكازفيكس الخدعة مجنِّدًا وطنيًا ليتونيًا هو "فِفودسفيكس" لكي يتسلل بين الأنصار المعادين للسوفيات. وفي تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٤٨، "فرّ" سفيكس نحو جزيرة سويدية في غوتلاند منتحلاً شخصية نصير ليتوني، والتحق بمجموعة من المنفيّين المدربين على يد الـ SIS والسويديين وذلك بهدف القيام بعمليات مخابرات في دول البلطيق. وفي أيار ـ مايو من عام ١٩٤٩، نزل غير بعيد من الحدود بين ليتوانيا ولتونيا مع خمسة عملاء حقيقيين من الـ SIS استعجل بتسليمهم للـMGB؛ تمّ إعدام ثلاثة من بينهم مباشرة. أما سفيكس فبقي حيًا بالطبع وتابع تسلله في المقاومة اللتونية ليخبر الـ MGB عن صلات هذه المقاومة بالـ SIS. وبعد ستة أشهر، نزل على شاطئ لتونيا عميلان آخران من الـ SIS هما "فيتولدس بركيس" و"أندريا غالدنس". ومع أن وصولهما ليل ٣١ تشرين الأوّل ـ أكتوبر مرّ بسلام، فقد عرّضا نفسيهما للخطر مباشرة تقريبًا لمجرد اتصالهما ببرغانيس الذي أسكنهما في "بيت أمين"... وضعته بتصرفهما الـ MGB. وقد أعلن بركيس وغالدنس بأنهما كانا الأوائل من بين موجة جديدة من العملاء مهمتهما هي الاتصال بقادة مجموعات الأنصار، ومنذ

ذلك الحين، نزل من البحر عملاء جدد كل ستة أشهر تم نقلهم بـزورق طوربيد عتيق ألماني من مخلفات الحرب، يقوده ربان ألماني. وقد حصل هذا الإبحار والذي كانت سرعته القصوى ٤٥ عقدة تحت ستار بعثة بريطانية لمراقبة وحماية أعمال الصيد البحرية. وكان واضحًا بالنسبة إلى لوكازفيكس أن الساعة قد أزفت لإنشاء حركة سرية وهمية على غرار التروست Trust. وفي هذه المرة، نجح بإقناع رؤوسائه في قبول ما كانوا قد رفضوه قبل ذلك بسنتين. وفي شتاء ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠؛ وتحت إشراف لوكازفيكس، تدربت مجموعة مزيفة من الأنصار (اسمها الحركي "Maxis ماكسي") في غابة كوررزم Kurzem، يقودها الميجر "ألبرت بونديليس" من الـ MGB. وفي أيار ــ مايو عام ١٩٥٠، أمضى بركيس وغالدنس بعض الوقت في هذا المخيم. وفي هذه الفترة ذاتها تقريبًا، توصلت الـ MGB إلى إعادة عميل آخر من الـ SIS هو جوناس دكسنيس. وأثناء ذلك، كان عميل آخر من عملاء لوكازفيكس، هو "جان إرغليس"، يناقش في لندن مشاريع عمليات مقبلة. وفي عام ١٩٥٠ كذلك، اتصلت فرقة من الأنصار المزيفين مع الـ SIS. أما عمليات الـ CIA في دول البلطيق فعانت من عمليات من النمط ذاته، بفارق واحد هو أن المركز الأميركي كان ينزل بالمظلات عملاءه بدل إرسالهم عن طريق البحر[١].

لم يجر استغلال الفرص التي وفرتها شبكتا "ماكسي" و "روبرتس" المزيفتان حق الاستغلال. وكانت الدوائر السرية البريطانية قد استخدمت هذه الطريقة خلال الحرب العالمية الثانية، وهي الطريقة التي اعتمدت على عملاء من دائرة استخبارات رئاسة الأركان الألمانية Abwehr، وذلك لنقل معلومات مزيفة للألمان. وبسبب ذلك قاد هتلر

---

١ - Cavendish Anthony, *Inside Intelligence* (London,1987), ch. 7.

وقيادته العليا قواتهما بشكل سيء في الفترة الحاسمة التي تلت الإنزال البحري في اليوم "ي". أما المركز، فهو على العكس من ذلك، كان قد رفض أن ينقل لوكازفيكس وزملاؤه إلى الـ SIS معلومات لم تظهر بعد في الصحافة؛ ولم يسمح له حتى باختلاق معلومات مزيفة على مدى واسع. فقد كان رؤساؤه يخشون في الحقيقة أن لا تعود الـ SIS وتطلب شيئًا منها، وتدركها بعض الظنون في نهاية المطاف. فما حصل قد حصل: خاب أملها بالمعلومات المكتسبة بفضل عمليات جرت في دول البلطيق، كفّت لندن عن إيلائها أهمية كبيرة، وعند توجيه اللوم على عدم تقديمهم ما يكفي من المعلومات، كان رد مجموعتي "ماكس" و "روبرتس"، مثل رد تروست قبلهما، هو "إننا مناضلون من أجل الحرية ولسنا جواسيس".

بلغ ارتياب لندن بهاتين المجموعتين أوجه عام ١٩٥٤، وذلك عندما طلبت الشعبة العلمية التابعة للـ SIS عينة من ماء نهر روسي ظنت أنه تم بناء مركز نووي على إحدى ضفتيه. وقد أظهرت إشعاعية العينة المسلّمة بأنه لا يمكن إلا أن يكون هذا الماء قد أُخذ من داخل مفاعل ما. وكان أول رد فعل للـ SIS، هو التساؤل عما إذا كانت الـ KGB قابلة لارتكاب خطأ بهذه الفظاظة في محاولتها خداعهم. أما رد فعلها الثاني فكان التحقق من أنها كانت كذلك. وقد أظهر تحقيق آخر أجرته الـ KGB أخطاء أخرى مماثلة، ومن بينها هو أن الطريق المزعومة التي سار عليها العميل الذي أخذ العينة تحاذي أرضًا واسعة للطيران العسكري، وهو توضيح غير موجود في تقريره. وقد أظهر التحقيق كذلك أن عددا كبيرًا من عملاء الـ KGB المتسلّلين داخل الأنصار، والذاهبين إلى لندن، كشفوا فيما بعد الخدعة للـ SIS. ولم تحصل الـ KGB في النهاية إلا على نصر في المجال الدعائي. أما العملاء المهاجرون القادمون إلى جمهوريات البلطيق (وعددهم ٢٥ تقريبًا، من سنة ١٩٤٩ حتى سنة ١٩٥٤) فلم ينذروا ستالين

بأقل خطر. وكانت الـ KGB قد خصصت لترتيب عمليات الخداع هذه التي لم تستغلها في العمق جهودًا أكبر بكثير مما خصصته الـ SIS لعملياتها العقيمة في دول البلطيق.

ومع ذلك فقد كانت نتيجة هذه العمليات هي انطلاق لوكازفيكس وحصوله على رتبة جنرال، ويقول ملخص خلا من ذكر مهنته وأُعِدّ لاستخدامه في الغرب عام ١٩٨٨ بأنه شغل خلال السبعينات مركز مسؤول "العمليات المضادة للجاسوسية" في السفارة السوفياتية في بريطانيا. أما الواقع فإنه كان قد خدم من عام ١٩٧٢ حتى عام ١٩٨٠ بصفة مندوب للـ KGB في لندن باسم مستعار هو "إياكوف قسطنطينوفيتش بوكاتشيف". وبعد ثماني سنوات من العمل غير المثمر، أُرسل إلى ليتونيا حيث أنهى مهنته في مركز ملائم لرتبة لواء، عاملاً على سبيل التغطية في وزارة التربية الليتونية. وفي تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٨٧، ظهر على التلفزيون برفقة فيلبي العجوز للاحتفال بالعيد السبعين للثورة الروسية، ولتأكيد المقولة ـ الخاطئة، كما لا يمكن لهذا أو ذاك تجاهل ذلك ـ أن المظاهرات القومية في دول البلطيق كانت من وحي الـ SIS.

إن عمليات الخداع المدبرة في دول البلطيق والتي كانت قد بدأت عام ١٩٤٦ واتسعت عام ١٩٤٩ أوحت بسلسلة من العمليات المشابهة في عدة بلدان أخرى على حدود الاتحاد السوفياتي. وأهم تلك العمليات كانت بولونيا، ففي عام ١٩٤٧، نجحت الـ MGB وبمساعدة الـ UB في تحطيم آخر قطعة من الجيش البولوني السري والذي كان يسمى (WIN) Wolnosc I Niepodleglosc أي الحرية والاستقلال. وفي عام ١٩٤٨، وحسب تعليمات مستشاريها السوفيات، لجأت الـ UB إلى إحياء (WIN) مزعوم وأرسلت عام ١٩٤٩ مبعوثًا إلى لندن لإعلام أنصار الـ (WIN) عن استمرار وجود هذا الجيش. وابتداءً من عام ١٩٥٠، راحت الـ CIA تدعم بفعالية الحركات

السرية المعادية للسوفيات في أوزوبا الشرقية وباشرت إنزال أسلحة بالمظلات وأجهزة راديو وقطعًا ذهبية لهذا الـ WIN المزيف. ومثلما حصل في دول البلطيق، لم يجر استغلال هذا الخداع في حدود واسعة لنشر معلومات مزيفة. أما التأكيدات التي تقول بأن الـ WIN كان قد قدم للـ CIA صورًا عن أعمال هجوم وهمية ضد مراكز الشرطة والمركبات السوفياتية وذلك لتبرير دعم الوكالة الأميركية فهي خاطئة على الأرجح. وقد ادّعى فيما بعد ضباط الـ UB المسؤولون عما نجم عن هذه العملية ـ وتلك هي الحقيقة ولا ريب ـ بأن تقارير الـ WIN التي لفّقوها من كل حدب وصوب قد تكون كُتبت كذلك في باريس أو لندن بالاعتماد على صحف وارسو... "وحتّى أننا نُعْلِم رجال الدوائر السرية الأميركيين هؤلاء عن المعطيات البسيطة التي كانوا يأملون الحصول عليها والخاصة بالحياة اليومية عن بلادنا مثل أسعار السلع الاستهلاكية أو مستوى تخزينها في بعض المراكز المحدَّدة". أما فرانك ويسنر، الذي ترأس مكتب التنسيق التكتيكي المسؤول عن عمليات الـ CIA السرية، فقد اقتنع بسهولة بأن WIN يمثل تهديدًا حيويًّا للنظام الشيوعي. وحتى أنه استنتج بأن الـ WIN ليس بحاجة إلاّ لأسلحة مضادة للدروع "لطرد الأحمر من فارصوفيا".

لم يكف الـ WIN عن طلب المساعدة باستمرار من الأميركيين. وحصلت ثالثة الأثافي في اليوم الذي طلب منهم فيه إنزال أحد جنرالاتهم بالمظلة وذلك للمساعدة في تنظيم المقاومة البولونية ـ وقد رُفض الطلب. ثمّ وفي كانون الأوّل ـ ديسمبر من عام ١٩٥٢، قررت الـ MGB الكشف عن هذه الخدعة. وخلال بثٍّ استمر أكثر من ساعتين، كشف راديو بولونيا باستهزاء عن أن المليون دولار المرسلة من الـ CIA على مدى سنوات كانت قد سقطت بأيدي السلطات البولونية. وقد "اعترف" قادة الـ WIN المزعومون، والذين كانوا في الحقيقة ضباطًا لدى الـ (UB)، بأنهم كانوا قد

أدركوا قبل سنتين أنه لم يجر مدهم سوى "بعناصر منحطة أخلاقيًا" بينما "كان العملاء الذين أرسلوا لنا من الخارج مغامرين وخدمًا بذيئين من الذين لا يكترث بهم مصير الأمم، حركتهم قبل كل شيء المنفعة الشخصية". مدركة أنه كان من المستحيل القتال "فإن سلطة الشعب... ودون الإضرار بمصالح الأمة البولونية كذلك" كانوا قد قرروا عدم متابعة "تجنيد شباب ساقطين لصالح الدوائر السرية الأميركية... وقد ارتكزت المرحلة الأخيرة من نشاطاتنا على محاولة شل الجهود التي يبذلها الأميركيون وخدمهم المهاجرون وذلك من أجل تنمية الجاسوسية والإشراف على بولونيا". "ولم تحصل في بولونيا ما بعد الحرب جريمة واحدة... لم تشارك فيها الدولارات الأميركية. فمن الدور الذي قامت به سفارة الولايات المتحدة في المؤامرات المعادية للبولونيين التي حرّض عليها الفاتيكان والفئة الرجعية من رجال الدين أو دعوات الحقد عبر الراديو يرسلها عشرات الغوغائيين والتي يشرف عليها الأميركيون، أو كذلك تجنيد جماعات هامشية للقيام بعمل خياني خسيس. ولم يوفر عملاء احتكارات الـ Wall Street أية وسيلة للإضرار ببلدنا". إن قضية الـ WIN لا تسمح بإذلال الـ CIA فقط بل إنها تقدم الفرصة كذلك للـ MGB وللـ UB للتخلص مما بقي من المعارضة ولتظهر عدم جدوى مقاومة "سلطة الشعب"...

وكانت ثورة المقاومة الرئيسية لسيطرة ستالين داخل الاتحاد السوفياتي قد نمت في أوكرانيا. ففي عام ١٩٤٧، ادّعت منظمة القوميين الأوكرانيين (ONU) أن عدد أنصارها هو ١٠٠,٠٠٠ مسلح مناهض لستالين.(رقم مبالغ فيه ولا ريب). وفي عام ١٩٤٩، وعندما باشرت الـ SIS بالتحضير لعمليات في أوكرانيا، كان قد تم سحق كل مقاومة فعلية على المستوى العالي. وكانت الـ MGB قد اخترقت كلاً من الـ ONU ومنافستها التحالف القومي للعمل (Narodny Troudovoï Soyuz) NTS — منظمة

اجتماعية - ديمقراطية من المهاجرين نالت رعاية الـ CIA -. وقد تم اعتقال عملاء SIS الأوائل الذين هبطوا بالمظلات في أوكرانيا عام ١٩٤٩ للاتصال بالـ ONU، وتلقى عميلان آخران المصير ذاته بعد ذلك بسنة. ونجحت قاعدة الـ MGB المتمركزة في الضاحية البرلينية Karlshorst في اختراق قاعدة الـ NTS في ألمانيا. وكان أحد العملاء الأكثر فعالية هو ضابط من الجيش السوفياتي مرّ في الغرب في تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٤٩ ليعيش مع عشيقته الألمانية. فقد طردته الـ MGB من ألمانيا الغربية ونجحت بتجنيده مهددة عائلته. وحسب تعليمات الـ MGB، انتسب إلى NTS وأصبح بسرعة مدربًا في أوكرانيا؛ وبموازاة ذلك، خدم كمستشار لدى الدوائر العسكرية الأميركية. وقد افتضح أمره عندما أعلن راديو موسكو في أيار - مايو عام ١٩٥٣، إعدام أربع عملاء للـ NTS اقترفوا جريمة الخيانة. إنما، وكما في دول البلطيق وفي بولونيا، لم تتحول خدعة الـ MGB أبدًا إلى لعبة مزدوجة دائمة. ومرة أخرى، رفض "المركز" استخدام الشبكة المخترقَة كوسيلة منهجية في نشر معلومات مزيفة في الغرب!

كان كيم فيلبي هو العميل الموجود في الغرب الذي ساعد السوفيات أكثر من غيره في هذه العمليات القريبة من الحدود. وكمسؤول عن مراكز الـ SIS في تركيا بين العامين ١٩٤٧ و١٩٤٩، أصبح في وضع يمكنه من تسليم العملاء الذين يعبرون الحدود الروسية وكذلك اتصالاتهم وعائلاتهم في الاتحاد السوفياتي. وبصفته ممثلاً للـ SIS في واشنطن من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٥١، كان مضطرًا للمحافظة على اتصالات مع الـ CIA تسمح له بأن ينقل إلى ضابط الاتصال التابع له الكثير من تفاصيل العمليات الإنكليزية، وكذلك الأميركية. وعندما أصبحت ألبانيا هي المقصودة، أخطر الـ KI/MGB بحصول الإنزالات البحرية الأولى التي نظمتها الـ SIS في عام

١٩٤٩؛ وقد كشف كذلك مشاريع عبور للحدود خلال صيف ١٩٥٠ وأشار إلى أول بعثة أنزلتها الـ CIA بالمظلات في تشرين الثاني أ نوفمبر من عام ١٩٥٠[١].

حضر فيلبي العديد من المؤتمرات الأنكلو ـ أميركية المخصصة للمخابرات. وكان هدف أحد هذه المؤامرات، المنعقد في شباط ـ فبراير عام ١٩٥١ والمتزامن مع أول رحلة لهاري كار إلى الولايات المتحدة، هو تنسيق عمليات الـ SIS والـ CIA في دول البلطيق. وإذا صدقنا مذكرات فيلبي، فقد أنتهت هذه الزيارة بطريقة تعيسة، إذ "تراشق كار وزملاؤه في الـ CIA بتهمة الكذب حتى على طاولة المؤتمر". إن هذا المقطع، الوارد غالبًا لا يتناسب في الحقيقة مع الإعلام الصادق والبسيط. وعند خروجه إلى التقاعد، كتب كار إلى ضباط من الـ CIA كان قد حضر اللقاء ليسأله عما يفكر به بالنسبة للرواية التي أعطاها فيلبي. وقد اتفق الاثنان بأن جو الاجتماعات كان بالفعل وديًا بشكل رائع... وفي مذكراته، لم يمتنع فيلبي دائمًا وبلهجة الابتهاج عن ذكر مصير المئات من العملاء الذين خانهم. وفي ربيع عام ١٩٥١، مثلاً، نقل إلى المشرف عليه "معلومات واضحة" عن ثلاث مجموعات من ستة رجال كان ينبغي إنزالهم بالمظلات في أوكرانيا بإشراف الـ SIS. وهو يعلق بسخرية حزينة: "لا أعرف ماذا جرى للأشخاص المعنيين، غير أنني أعتقد أن بإمكاني معرفة ذلك"...

بعيدًا عن نجاح سلسلة الخدع، استمرت الدوائر السرية السوفياتية تتلقى كمية هائلة من المعلومات من الغرب رغم العقبات التي واجهتها بعد الحرب شبكات عملائهم في الخارج. فقد استمر أربعة من الخمسة الكبار يعملون بفعالية حتى عام ١٩٥١ (وهم: فيلبي، ماك لين، بورجيس، وكانكروس). ومنذ نهاية عام ١٩٤٤ حتى نهاية ١٩٤٧،

---

١ - Bethell Nicholas, *The Great Betroyal*, Hoddes and Stoughton (London,1984).

أصبحت كل نشاطاتهم في بريطانيا تحت إشراف "بوريس ميخائيلوفيتش كروتوف"، وهو مكدّ نشيط وذو طاقة هائلة. وكانت أصوله اليهودية تمنعه دائمًا من الوصول إلى المراكز التي تناسب مؤهلاته. أما "قسطنطين ميخائيلوفيتش كوكين"، المندوب في لندن من عام ١٩٤٣ حتى عام ١٩٤٧. فاستفاد بطريقة غير مباشرة من نوعية عمل كروتوف في قيادة العملاء السريين. وقد قدر المركز عاليًا كذلك المخيلة التي أبداها في قيادة المركز. ومع إنشاء لجنة الإعلام في خريف عام ١٩٤٧، وُعِدَ كوكين بأن يصبح رئيسًا للمديرية الأولى (الأنكلو - أميركية). ومن بين الصور العديدة في صالة الشرف التابعة للمديرية الأولى من الـ KGB، احتلّت صورة كوكين موقعها الخاص. وفوقها تمامًا ملخص يمتدحه على أنه أحد ضباط المخابرات المرموقين في الأربعينات والخمسينات. بالمقابل، افتقدت صالة الشرف هذه صورة خلفه "نيقولاي بوريسوفيتش رودين" الملقب بـ"كوروفين"، المندوب من العام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥٢، ومن العام ١٩٥٦ حتى العام ١٩٦١. كان رودين النموذج بالذات لعنصر تشيكا المتغطرس، فقد عامل مرؤوسيه باحتقار، وكان على قناعة بأن ما يقدمه "عملاؤه" من نتائج ترتد عليه شهرة ممتازة لدى المركز. وكان ضابط المخابرات السياسية PR قد عيّن في لندن من عام ١٩٤٧ حتى العام ١٩٣٥ ومن عام ١٩٥٥ حتى العام ١٩٥٨. أما "مودين"، الذي يعرفه الخمسة باسم "بيتر"، فكان أحد مديري العملاء الأكثر موهبة في تاريخ الـ KGB. ففي بداية الثمانينات، حين كان يرأس الشعبة الأولى (المخابرات السياسية) في معهد أندربوف التابع للـ PDG، كان الوصف الذي يقدمه في محاضراته عن رودين خالٍ من الادعاء والغطرسة.

بعد الحرب، وخلال عدة سنوات، أصبح كل من بورجيس وماك لين وفيلبي وفي فترات مختلفة في وضع يمكنهم من تقديم معلومات بريطانية بل وأميركية كذلك. وكان

تقويم للأضرار وصفه قادة الأركان الأميركيون المجتمعون بعد ارتداد بورجيس وماك لين عام ١٩٥١ قد قدّر بـ "إنه وحتى يوم الارتداد كان يقع بيد السوفيات كل خبر يمس مشاريع استخدام الطاقة الذرية في الولايات المتحدة وفي المملكة المتحدة وكندا وكذلك خطط وسياسات أميركا وبريطانيا في أوروبا بعد الحرب... فقد امتلك السوفيات كل الكودات الدبلوماسية ومنظومات الشيفرة البريطانية وربما بعض المنظومات الأميركية التي تعود لفترة ما قبل ١٥ أيار ـ مايو عام ١٩٥١، والتي لم تعد مستخدمة".

وهذا تقدير أكثر تشاؤمًا بكثير: إنه لا يحسب حسابًا مثلاً في المراسلات المشفّرة إلى البطاقات ذات الاستخدام الوحيد، التي قلما كانت بحوزة بورجيس أو ماك لين. غير أن كليهما كانا يقدمان بلا ريب كمية هائلة من المعلومات ذات المستوى العالي. ويؤكد "فيليب فاسيليفيتش كيسليتسين"، محلل الرموز في مقر لندن من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٤٨، للبتروفيين بأن بورجيس سلم للسفارة السوفياتية، مَحَافِظَ مليئة بالملفات من وزارة الخارجية البريطانية وذلك لكي يتم تصويرها مثل إعادتها إليه. أما بوريس كروتوف، ضابطه في الاتصال حتىعام ١٩٤٧، فتسلم أكياسًا من بورجيس في الريف غير بعيد من لندن، وكان يعيد أحيانًا الثياب إلى السفارة ملطخة بالوحل. وكان كيسليتسين يبرق إلى موسكو مادة الملفات الأكثر أهمية التي سلمها بورجيس، ويرسل الباقي في الحقيبة الدبلوماسية، وعام ١٩٤٩، تم تعيينه مسؤولاً في قسم جديد في المركز بموسكو، حيث كانت موثقة كل الملفات التي كان قد قدمها بورجيس وماك لين. كانت الملفات من الكثرة بحيث لم يكن بإمكانه غالبًا ترجمتها. وكان على كيسليتسين تصفيتها وعرض ذلك على كبار الرسميين الذين يأتون لاستشارته.

كانت توترات هذه الحياة المزدوجة أشد صعوبة على بورجيس وماك لين في مرحلة الحرب الباردة منها في مرحلة التحالف بين بريطانيا والاتحاد السوفياتي. وفي

عـام ١٩٤٧، عندمـا التقـى جـورج كـاري ـ فوسـتر الـذي كـان يقـود الشـعبة الأمنيـة، بورجيس، لأول مرة، فوجئ بمظهره "غير المقبـول، فالشـعر أشـعث، والذقـن محلوقـة بشكل سيء. وتنشّق الكحول... إلى درجة "أنني تساءلت من كان هذا الرجل ومـا هـو عملـه؟". وحسـب غورونـوي ريـس، كـان يعيـش كذلـك علـى بعـض الأدويـة: "يتنـاول المسكنات باستمرار، وبعدها مباشرة المنبهات وذلك لشل فعالية الأولى. وبمـا أنـه كـان مُفرطًا في كل شيء، فقد كان يمضغ الأقراص التي في متناول يده، القرص تلو الآخـر حتى آخر قرص، مثل طفل يأتي بشهية على كيس من الملبس".

وقد تكاثر عدد الشكاوى التي كـان يتلقاهـا كـاري ـ فوسـتر والتـي تعتـرض علـى "سلوك بورجيس الماجن"؛ أما فريد وانر، الذي عمل معه في دائـرة هكتـور مـاك نيـل، وزير الدولة في الخارجية البريطانية، فقد اضطر أن يذهب فجر أحد الأيام لنجدته في إحدى علب الليل في سوهو. وقد وجده طريحًا فاقد الوعي، غطـى الـدم الجـاف رأسـه ووجهه. وقد ملَّ وارنر من سؤال ماك نيل المتكرر باستمرار: "ماذا نفعل مع غي؟".

ومع ذلك، فإن ذكاء بورجيس كمبردج وسحره كانا يعيدان إليه أحيانًا مظهره. ومع نهاية عام ١٩٤٧، ومن أجل التخلص منه ولا ريب وضعه بإمرة نائب أمين سر الدولة البرلماني في وزارة الخارجية البريطانية، كريستوفر مايهوي Mayhew والذي كان قـد جهّـز فـي تلـك الفتـرة شـعبة الأبحـاث والإعـلام (IRD) والتـي كـان مـن المفتـرض أن تحارب "الهجوم النفسي السوفياتي"؛ وقد ارتكب مايهوي مـا اضطـر فيمـا بعـد لوصفـه "بالخطأ الهائل": "لقد تعايشت مع بورجيس، إن معرفته العميقة بوسـائل الشـيوعيّين فـي التدمير أدهشتني فجندتـه دون تـردد[١]". وهكـذا قـام بورجيـس بـدورةٍ علـى السـفارات

---

١ - Mayhew Christopher, *Time to Explain*, Hutchinson (Londres,1987), P. 109.

البريطانية لتشجيعها، فعرض عمل الـ IRD للخطر إذ نقل كل مشاريع الشعبة الجديدة إلى ضابط الاتصال التابع له، "إيوري مودين". وإزاء سيل الاحتجاجات التي أحدثها سلوك بورجيس المفتقر للدبلوماسية عند زياراته للسفارات، فقد أقاله مايهوي من الـ IRD. غير أن بعض أصدقائه استمروا في منحه ثقتهم. وكان من بين هؤلاء، دافيد فوتمان، الذي ترأس دائرة المخابرات السياسية SIS. وبعيْد مرحلة القطيعة بين تيتو وموسكو عام ١٩٤٨، أشار ضابط من دائرة فوتمان Footman إلى ضرورة استجواب تيتو عن عمل الكومانفورم. "فكرة ممتازة! أجاب فوتمان. اذهب وناقش ذلك مع غي". وبناءً عليه حرر بورجيس وضابط الـ SIS معًا لائحة من الأسئلة لإرسالها إلى بورجيس. وقد أوقعت ردة فعل تيتو المركز في موسكو في الحيرة وسحرت فوتمان.

في خريف عام ١٩٤٨، عُيِّن بورجيس في مديرية الشرق الأوسط، حيث تركها في شهر آب - أغسطس عام ١٩٥٠ للالتحاق بمركز أمين السر الثاني في السفارة في واشنطن. وحتى ذلك الحين، كان بإمكانه أن ينقل إلى موسكو المضمون الصحيح للسياسة البريطانية تجاه جمهورية الصين الشعبية التي قامت عام ١٩٤٩ وتجاه كوريا في الفترة السابقة للحرب التي انفجرت في حزيران - يونيو عام ١٩٥٠. ومع أنه لم يكن سوى ضابط من المستوى الرابع، فقد اضطلع بانتظام على التحليلات الصادرة عن لجنة تنسيق الاستخبارات وعن وزارة الدفاع وعن أركان حرب اللواء "دوغلاس ماك أرثر"، وعن القيادة العليا للحلفاء في طوكيو. وقد استفاد المركز بشكل خاص، من تحليل للاستخبارات العسكرية مفصّل للغاية ومؤرخ في نيسان – إبريل عام ١٩٥٠، تحليل يعنى "بمساعدة الروس للقوات المسلحة الصينية" والتي يكشف قبل حوالي الشهرين عن انفجار الحرب الكورية وكل ما استطاعت أن تجنيه الدوائر السرية الغربية كمعلومات حول المسألة. وقد وضع بورجيس تقريرًا عن هذا النص بخط متقن

بشكل مدهش مستخدمًا حبره الأزرق الفاتح العادي... غير أن أيامه في وزارة الخارجية البريطانية كانت قد أصبحت معدودة. وقام برحلة إلى تانجر Tanger وإلى جبل طارق في خريف عام ١٩٤٩: "إنها سلسلة من الأحداث العجيبة" حسب تعبير غورونوي ريس: لم يدفع فواتيره، وعيّن علنًا ضابطًا من الـ MI-5 ومن SIS وغنى بصوت مخمور في البارات المحلية: "أصبحنا لا نحب الأطفال الصغار، إننا نحبهم اليوم أقل من أمس". وكان بورجيس هو أول من فوجئ بعدم فصله عند عودته.

استنتج المركز، وكان الحق إلى جانبه ولا ريب، بأن انهيار بورجيس العصبي في هذه اللحظة نجم عن التهديد الذي سببته له عمليات فك رموز "Venona" وكان فيلبي قد تعلمها في أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٤٩ عشية إرساله إلى واشنطن كضابط اتصال للـ SIS ـ وكان قد نشر حديثًا مستعجلاً. وبالفعل، فإن عمليات حل رموز "Venona" لم تقدم أية إشارة بخصوص نشاطات بورجيس حتى ارتداده عام ١٩٥١. إنما، ومنذ خريف عام ١٩٤٩، ظهر أنه كان يخاف افتضاح أمره في كل لحظة ويعيش في ظل الهاجس.

لم يتصرف دونالد ماك لين على نحو أفضل من بروجيس. غير أنه كان مهددًا بشكل مباشر أكثر من بورجيس. أما فيلبي فكان قد أدرك، بعد أن أصبح "خبيرًا" في الـ Venona"، بأن العميل "هومير" ـ الذي تعود إليه عدة مراسيل محلولة ـ لا يمكن أن يكون سوى هو نفسه. وعند إرساله كمستشار للقنصليّة في القاهرة عام ١٩٤٨، وكان عمره ٣٥ سنة فقط، بدا أنه يندفع اندفاعًا حسنًا للوصول إلى القمم في مهنته الدبلوماسية أو إلى أي مركز من المستوى ذاته. إنما، وبعد سنة، بدت له فكرة الفضيحة لا تطاق. ومع عدم وجود مأخذ عليه على مستوى العمل، راح يقضي وقتًا أكبر في معاقرة الخمر بطريقة غير منضبطة. وفي القاهرة، رآه صديقه القديم وجليسه

في سكراته فيليب توينبي "يستسلم لنوبات هذيان خطيرة ويطفح بالغضب المكظوم". وفي أيار - مايو عام ١٩٥٠، وخلال جلسة سكر، دخل ماك لين وصديقه عن طريق الكسر والخلع شقة فتاتين تعملان لصالح سفارة الولايات المتحدة؛ وبعد أن نهبا غرفة النوم ومزقا ثياب الفتاتين الداخلية، استعدا لتحطيم الحمّام... وهذا توينبي يتذكر ذلك فيما بعد: "رفع دونالد مرآة كبيرة إلى الأعلى ورماها بكل قواه في المغطس. ويا للحسرة! انكسر المغطس إلى قطعتين بينما بقيت المرآة سليمة". وبعد عدة أيام، أُرسل ماك لين إلى لندن، حيث منحته وزارة الخارجية إجازة خلال الصيف كله ودفعت عنه ثمن استشارات المحلل النفسي، وبدا أن ماك لين قد قام بمراقبة نفسه بنفسه، وعُيِّن مديرًا للقسم الأميركي في وزارة الخارجية البريطانية. وهناك، ورغم السهرات الباذخة في نادي Gargoyles ومع أنه وصف نفسه في لحظة سكر مثل "هيس الإنكليزي"، فقد بقي يعمل خلال ساعات في مكتبه بشكل دقيق وفعّال.

من المحتمل أن تكون الأهمية التي توليها موسكو للمعلومات التي يقدمها بورجيس وماك لين قد وصلت إلى أوجها في حزيران - يونيو عام ١٩٥٠، مع بداية الحرب التي شنتها أميركا ضد كوريا. وكان مساعد ماك لين في القسم الأميركي، روبرت سيسل، يقدر بأن الكرملين سيجد الملفات التي يقدمها معلمه "غير جديرة بالتقدير"، وذلك عندما كان المقصود إبداء النصح للصينيين والكوريين الشماليين حول المسألة الاستراتيجية أو حول المواقف التي يجب تبنيها في المفاوضات". لم يكتف ماك لين وبورجيس بتقديم ملفات سرية، بل أضافا عليها تعليقات من عندهما ضد الأميركيين، وهذا ما زاد كذلك من تخوف السوفيات من احتمال تحويل الولايات المتحدة الصراع إلى حرب عالمية. وحتى في وزارة الخارجية البريطانية، كان ماك لين يصف السياسة الأميركية بـ"المضطربة، والمتصلبة والخطرة". ولا ريب أنها كانت الفرصة الوحيدة في عمله

الدبلوماسي التي أظهر فيها في تقرير رسمي تضامنه مع تحليل ستالين الفظ عن الدسائس العدوانية للرأسمال الأميركي الكبير. وقد أكّد الحجة القائلة بأن الاقتصاد الأميركي يجد نفسه عند هذه النقطة منقادًا نحو الانتاج العسكري، وأن حربًا عامة قد بدت له أفضل من الركود الذي قد ينتجه التسريح؛ لقد بدا له أن لهذه الحجة أساسًا ترتكز عليه. ومع أن هذه السخافات لم تلق ترحيبًا أفضل في وزارة الحرب البريطانية، فإن اتجاه السياسة الأميركية في نهاية عام ١٩٥٠ كان محط اهتمام عام، ففي أيلول ـ سبتمبر، كان للرئيس ترومان كلمة حمقاء جوابًا على سؤال يتعلق باستخدام القنبلة الذرية في الصراع الكوري: "إن النظام في استخدام أي سلاح يكمن دائمًا في دفع امتلاكه بالذات". وبناء على ذلك قام أتلي برحلة إلى واشنطن على وجه السرعة للتباحث مع الرئيس في أمر هذا التصريح وفي مسائل سياسية ناجمة عن الحرب. وهكذا كان ماك لين قادراً أن ينقل إلى مودين النصوص التحضيرية للزيارة والتقرير الوزاري عن نتائجها. إن طبيعة ستالين المرتابة بشكل مرضي لم تسمح له أبدًا أن يقدر بدقة النوايا العدوانية "للامبرياليات الغربية". ومع نهاية عام ١٩٥٠، كان مقتنعًا إذن بقرب وقوع حرب عالمية ثالثة.

كانت المطامع الإقليمية الكورية ـ وليس السوفياتية ـ في أساس الصراع. غير أن جهل الغربيين بأهداف السياسة السوفياتية، المقترن بعدم أهلية الدوائر السرية الأنكلو ـ أميركية في أن تحصّل عن موسكو معلومات تكافئ تلك التي تحصلها الـ KI في لندن وفي واشنطن، إن هذا الجهل قاد الغرب للاعتقاد خطأً بأن الحرب الكورية تشكل جزءًا من مشروع سوفياتي للتوسع. وخلال شتاء عاميْ ١٩٥٠ ـ ١٩٥١، انتشر على نحو واسع جدًا الخوف من أن لا يكون النزاع في كوريا سوى المقدمة لهجوم سوفياتي على ألمانيا. وفي شتاء عام ١٩٥١، أنذر وزير الدفاع الوزارة البريطانية: "حرب ممكنة،

عام ١٩٥١، ومحتملة عام ١٩٥٢"... وعندما نقل هذه المخاوف الحقيقية مع أنها دون أساس، إلى ستالين، اعتبرها هذا، ودون أدنى ريب، تلميحًا مخصصًا لإخفاء الأهداف العدوانية. وكانت الشكوك السوفياتية تتغذى كذلك من المعلومات التي يقدمها بورجيس وماك لين، مغاليًا في الأمر، من المؤكد أن هذا الأخير أبلغ مودين عن القلق الظاهر في تقرير عن اجتماع لوزارة الخارجية في آذار ـ مارس عام ١٩٥١: "إن عدوانية الأميركيين في الشرق الأقصى تقودها دون جدوى إلىالحرب". وعندما عزل ترومان الجنرال دوغلاس ماك أرثر، قائد أركان التحالف في كوريا، والمدافع الأساسي عن توسيع الحرب إلى الصين، شعرت موسكو وكذلك ماك لين ببعض الارتياح.

في هذه اللحظة بالذات أصبحت مهنة ماك لين، العميل السوفياتي مهددة بشكل خطير.

يبقى سقوط ماك لين بالنسبة للمديرية الأولى في الـ KGB النتيجة الأشد خطورة لـ "Venona". إن فك رموز النصوص الذي سمح بتحديد هويته يسجل في الحقيقة بداية سلسلة من الأحداث أدّت بالضرورة إلى سقوط الخمسة الكبار. وكان فيلبي هو الأول الذي استشعر الخطر الذي يتوقعه ماك لين، فارتحل بحرًا إلى واشنطن في نهاية تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٤٠ بعد أن تم تعيينه فيها ممثلاً للـ SIS... وكونه يعرف من الداخل السياسة السوفياتية، فقد تأكد لديه، قبل بقية أعضاء حلقة "Venona" بكثير، بأن العميل السوفياتي المعروف باسم "Homère" ليس سوى ماك لين. وفي مذكراته، يرد ـ عن خطأ ـ الحاجة إلى ثمانية عشر شهرًا لكشف ماك لين إلى جهل المديرية غير القادرة أن تتصور وجود خائن في صفوفها. ومع ذلك فإن الإشارات الأولى إلى "هومير" في المراسيل المحلولة كانت غامضة للغاية. فهي لا تسمح بتحديد هويته كعضو في سفارة بريطانيا. ولا حتى معرفة ما إذا كان مواطنًا أميركيًا أو

بريطانيًا. ففي بداية التحقق، كان يمكن اعتبار كل شخص له علاقة بالاتصالات عبر الأطلسي من بين المشبوهين، وقد قدّر "هارولد ماك ميلان" عددهم في ما بعد بالآلاف.

ويقول فيلبي أنّه عند وصوله إلى واشنطن، غمرته السعادة عندما لاحظ "أن الـ FBI ترسل لنا باستمرار روايات حول نساء الخدمة في السفارة ولا تكف عن إجراء التحقيقات حول ملاكنا الصغير"...

ومع أن حل رموز الـ "Venona" - حسب كلماته الخاصة - كان مصدرًا "للقلق جدي" فإن فيلبي فهم حال وصوله إلى واشنطن بأن زميله غير معرّض لخطر مباشر. وقد أخبره ضابط الاتصال بقرار موسكو القاضي "بأن يبقى ماك لين في مركزه أطول فترة ممكنة". وأن خطة ستعدّ لإنقاذه قبل "أن يُطبق الفخ عليه". وقد راح الفخ ينقفل خلال شتاء عامي ١٩٥٠ - ١٩٥١. ففي نهاية عام ١٩٥٠، انحصر العدد إلى ٣٥ مشبوهًا؛ ومع بداية نيسان لم يبق سوى تسعة. وقد تظاهر فيلبي بأنه يساهم في البحث فلفت الانتباه إلى استجواب كريفيتسكي عام ١٩٤٠، وكان هذا المرتد في فترة ما قبل الحرب أشار إلى عميل سوفياتي في وزارة الخارجية البريطانية. وبما أن هذا العميل هو من عائلة كريمة فقد يكون نشأ في إتون وفي أكسفورد (وليس مثل ماك لين في مدرسة خاصة، ثم في أكسفورد). وحسب فيلبي فإنّ ممثل الدوائر السرية في السفارة، بوبّي ماكنزي كان مستعدًا للمراهنة بواحد مقابل اثنين بأن الجاسوس هو بول غور - بوت، أمين السر الدائم في وزارة الخارجية والذي كان قبل ذلك في إتون ثم في أكسفورد، وبما أن غور - بوت كان قد أمضى فترة دراسية ممتازة للآداب الكلاسيكية، فإن "هومير" بدا كإسم رمزي ملائم بامتياز وذلك بقدر ما يقترب في شكله الروسي Gomer من Gore. ولكن وفي منتصف نيسان - إبريل عام ١٩٥١، بدت رسالة جديدة محلولة على قاعدة الـ "Venona" غور - بوت وسمحت بتوضيح السر. فقد كشفت

الرسالة أنه في عام ١٩٤٤، وفي وقت ما، كان هومير يلتقي بالمشرف عليه مرتين أسبوعًا، وذلك بحجة زيارة زوجته الحامل، واستخدام الوقت هذا لا يوافق سوى ماك لين. لم يبق بعد سوى عدة أسابيع لتنظيم هروبه. وكان قرار عدم ذكر حل رموز "Venona" أمام أيّ محكمة يعقّد البحث عن براهين ضرورية لتجريمه بالجاسوسية. وبناءً عليه تصبح فترة وضعه تحت مراقبة الـ MI-5 ضرورية إذن. وهكذا قرر فيلبي، وبالاتفاق مع ضابط الاتصال، أن ينقل إلى ماك لين رسالة عن طريق بورجيس. وعندما وصل هذا إلى واشنطن في آب أغسطس عام ١٩٥٠ كأمين سر ثانٍ في السفارة، كان هذا المركز يمثل بوضوح آخر فرصة له للعمل في الدبلوماسية. وبعد ذلك بثمانية أشهر، كان من الواضح أنه ترك هذه الرسالة تمرّ. وفي نيسان ـ إبريل عام ١٩٥١، تلقى الأمر بالعودة إلى انكلترا، كعقاب له، وذلك بسبب التجاوزات غير المنضبطة.

عشية سفره من نيويورك على متن الباخرة "الملكة ماري Queen Mary" تناول طعام العشاء مع فيلبي في مطعم صيني غطت فيه الموسيقى الهادئة الحديث. وهنا، أعدّا خطط هروب ماك لين... وبالاتفاق مع فيلبي، كان على بورجيس، أن يشرح وابتداء من يوم وصوله في السابع من أيار ـ مايو الموقف لإيوري مودين ("بيتر" عند الخمسة) مسؤول تنفيذ مشروع الهرب. وفي بداية الثمانينات، وبصفته مسؤول القسم رقم واحد (الاستخبارات السياسية) في معهد أندروبوف في الـ KGB، كان مودين يشرح بكل سرور للمتطوعين الجدد كيف تمت عملية اعتقاله. ولاحظ غورديفسكي بأنه لم يمنح أيّ ثقة للمندوب في لندن حينها، المتغطرس والمكروه شعبيًا نيقولاي رودين..

منذ منتصف نيسان ـ إبريل، لم يتلق ماك لين أي ملف من فئة "سري جدًا"، مدركًا بسرعة أنه أصبح تحت المراقبة... ومفترضًا عن حق أن هاتفه أصبح موضع تنصُّت،

لم يجرؤ على الاتصال بمودين، وفجأة وصل بورجيس لنجدته، وفور عودته إلى بريطانيا، وخلال زيارة له إلى وزارة الخارجية، أُخبر أن من المنتظر أن يتم الإعلان عن استقالته. استغل بورجيس المناسبة لينقل إلى ماك لين رسالة ذاكرًا له فيها مكان وساعة لقائهما الذي سيعين المرحلة الأولى من هروبه...

من ناحيته، تلقى بورجيس من فيلبي بريدًا مستعجلاً، بالطائرة موضوعه الظاهر سيارة كان قد تركها في مرآب السفارة. وتنتهي الرسالة بهذا التنبيه المستور بصعوبة: "بدأ الطقس يصبح دافئًا جدًا هنا". وبما أنه كان على فيلبي أن يقدم شهادته بخصوص ذلك في ما بعد، فقد نفذت كل وسائل بورجيس في هذه المرحلة: "لقد كان على وشك الانهيار العصبي الكامل، أكثر بكثير مما ظهر عليه. لقد كان يعاني المأزق من بريطانيا، وهذا ما جعله غير نافع في نظر الـ KGB. وقعنا جميعًا في حالة من القلق على ماك لين بحيث إننا لم نلاحظ ما حصل لبورجيس"...

من ناحيته، لاحظ مودين ذلك، متخوفًا من أن يكون مُراقَبًا، طلب بورجيس من بلونت إبلاغ مودين عن قلقه بل الاتصال به مباشرة، مضطربًا بسبب حالة بورجيس النفسية، ومرتابًا بقدرته على احتمال أي استجواب، حثّه مودين على الهروب مع ماك لين.

لقد أصاب التشويش القصة الحقيقية لارتداد بورجيس وماك لين المزدوج وذلك بسبب الأطروحات الخيالية للكتب الرائجة. وقد جرى التأكيد مرارًا على أن أمين سر وزارة الخارجية البريطانية هربرت موريسون، ترأس صباح الجمعة في ٢٥ أيار ـ مايو اجتماعًا اتُّخذ خلاله قرارًا بمباشرة استجواب ماك لين الاثنين في الثامن والعشرين منه. ولعل عميلاً غير معروف حتى الآن (اعتبر غالبًا وعن خطأ أنه "الرجل الخامس") كان قد أنذر بورجيس في لندن، فنظم هذا على وجه السرعة هربه في المساء ذاته

الذي هـرب فيـه مـاك لـين. وفـي الحقيقـة، لـم يكـن هنـاك فـي الخـامس والعشـرين أي اجتمـاع، وكل ما في الأمر ليس سوى سر أعطاه رجل خـامس. وعلـى أسـاس توصيـة كتبها مساعدوه، أذن موريسون استجواب ماك لين، دون تحديد التاريخ. وكـان النقص في المِلاك وبعض الأحكام الخاطئة منعت الـ MI-5 والشعبة الخاصة Special Branch من مراقبته بشكل فعال في منزله في Tatsfield، علـى حـدود Kent و Surrey. وعلـى هذا النحو استطاع الهرب. لكـن علـى افتراض أن الــ MI-5 اسـتطاعت الحيلولـة دون هربه، فلم يكن بإمكانها ولا ريب جمع البراهين الضروريـة لتجريمـه. وبسـبب القـرار الرسمي بعدم ذكر حلول "Venona" الرمزية أمام أيّ محكمــة، فقـد كـان الحـل الوحيـد لإدانة ماك لين هو الحصول على اعترافاته - وهـي كـانت قـد نجحـت مـع فيشـز. ولـو كانت أعصابه قوية، فقد كان بإمكان ماك لين أن يتحمـل هـذه التجربـة، والـذي تحمـل مثلها فيلبي بعد عدة سنوات. إنما وفي تلك الفترة، لم يكن لا موديـن ولا المركـز علـى استعداد لركوب هذه المجازفة.

وصل تحذير فيلبي الأخير إلــى مـاك لـين بواسطة موديـن وبورجيـس. فقـد أخبـر فيلبي المشرف عليه بأن جيفر باترسون، ضابط الاتصال التابع لـ MI-5 فــي واشـنطن كان قد تلقى الأمر بتسليم ملفه حول التحقيق "Homère" في مهلة أقصاها الأربعاء فـي الثالث والعشرين. وقد استنتج من ذلك بأن استجواب ماك لين يجب أن يبدأ الاثنين فـي الثامن والعشرين. وفي الحال أطلق مودين خطة الهروب. وفـي الرابـع والعشـرين تـم شراء بطاقات السفر. ومساء الجمعة فـي الخـامس والعشـرين، أودع بورجيـس سـيارته المستأجرة أمام بيت ماك لين الفكتوري الكبير، في اللحظة ذاتها الذي كـان هـذا جالسًـا إلى الطاولة أمــام العشـاء الـذي حضّرتـه زوجتـه ملانـدا للاحتفـال بعيـد ميـلاده الثـامن والثلاثين. قدم نفسه إلى السيدة مــاك لـين باسـم "روجـر سـتيلز"، مـن وزارة الخارجيـة

(البريطانية) وألحّ على أن ينطلق زوجها معه فورًا. صعد ماك لين مسرعًا وودع أولاده، قدم بعض التفسيرات الغامضة لزوجته المستاءة وانطلق مع بورجيس، تناوبا قيادة السيارة حتى مرفأ Southampton ونجحا بفارق قليل في الإبحار على مركب نصف الليل المسمى Falaise المتوجه إلى سان ـ مالو. وفي فرنسا، مكنتهما أوراق مزوّرة قدمها لهما ضباط KI/MGB من السفر إلى فيينا ومن هناك إلى موسكو.

وبعد ذلك بثلاثين سنة، ذكر إيوري مودين كذلك في محاضراته عن "العظماء الخمسة" في معهد أندربوف، الانهيار العصبي الذي أصاب كلاً من بورجيس وماك لين والذي فاجأه كثيرًا في أيار ـ مايو عام ١٩٥١. غير أنه يحتفظ بذكرى مختلفة جدًّا عن بلونت. ففي عام ١٩٤٥، وجد هذا الأخير في حالة من التوتر شبيهة بالحالة التي لاحظها مودين لدى بورجيس عام ١٩٥١، إنما، وبعد ست سنوات من العمل المتواصل لصالح الـ KI/MGB، ومن الأوسمة الأكاديمية والرعاية الملكية، استحوذ على كل رصانته.

بعد هرب بورجيس إلى موسكو، كان مودين يجد بورجيس متوترًا من جديد، غير أنه أتيحت له الفرصة لإظهار إعجابه في الوقت ذاته من المواظبة المهنية التي وفرت له أن يتمالك نفسه في اللحظة الحرجة. وقد صرّح في ما بعد أمام غورديفسكي بأنه "مجرد توجيهه بلونت يُعدُّ شرفًا كبيرًا".

وفي فترة ارتداد بورجيس وماك لين، كان بلونت لم يزل يتمتع بكامل ثقة أصدقائه القدماء من الـMI-5. وبما أن الـ MI-5 لم تكن ترغب في أن تتحدث عنه عاجلاً طالبًا إذنًا بتفتيش منزل بورجيس لمجرد اختفائه، قبل بلونت أن يطلب المفتاح من جاك هويت Hewitt، عشيق بورجيس، إنما وقبل إيداعه للـ MI-5، وعلى الأرجح بتحريض من مودين، أمضى عدة ساعات في إخفاء كل ما يمكن أن يثير الشبهات في المجموعة

الغريبة من رسائل العشاق وذكريات أخرى تملأ الأدراج وعلب الأحذية. نجح بلونت على هذا النحو باسترداد بعض الملفات التي من الممكن أن تسبب الارتبـاك بما فيها الإنذار الأخير لفيلبي: "بدأ الطقس يصبح دافئًا جدًا هنا".

لم يشارك العضو الخامس من "العظماء الخمسة" مطلقًا في عملية الهروب. فمنذ الحرب ها هو جون كارنكروس يعمل في وزارة المالية، في الأقسام الخاصة "بالأجهزة والمعدات"، ثم في قسم "الملاك" التابع لشعبة الدفاع وحيث لم يقم بأي اتصال مع الأربعة الكبار. ولطالما تأثر كل من كروتوف ومودين بكمية اللوازم التي كان يسلمها لهما في لقاءاتهم الشهرية. وبدون شك فهو الذي أخبر كروتوف بقرار صنع قنبلة ذرية إنكليزية. ومن المحتمل أنه كان يطّلع على ميزانية هذا المشروع وعلى الكثير من أوجه ميزانية الدفاع الأخرى، وعام ١٩٤٧ تابع عن قرب القرار المتعلق بصنع المواد المشعة Radioctive Substances Act. وبعد ذلك بسنتين، انغمس بحماس بالمسائل المالية المرتبطة بإنشاء حلف شمال الأطلسي (الناتو)، مترئسًا لجنة فرعية فيها لدراسة هذه المسائل[١]". وقد كان انهماكه المستمر عائقًا أمام طموحاته الوظيفية؛ فلم يصبح رئيس دائرة إلا في عام ١٩٥٠، في السابعة وثلاثين من عمره. وفي أيار ـ مايو من عام ١٩٥١، ارتكب بلونت خطأً وضع حدًا لعمله كعميل سوفياتي فعّال. فبينما كان ينبش شقة بورجيس، لم يلاحظ بلونت إضبارة من الملاحظات غير الموقعة، تأتي على ذكر النقاشات الخاصة في وزارة الحرب البريطانية قبيل الحرب ومع بدايتها. وقد توصل "سير جون كولفيل" الذي ظهر اسمه في هذه الأوراق، إلى معرفة مؤلفها. لقد كان المقصود كارنكروس. وبناءً عليه راحت الـMI-5 تراقبه وتلاحقه عند ذهابه

---

١ - Colville John, *The Funges of Power*, Hodder and Stoughton (London,1985), PP. 305

إلى موعد مستعجل مع ضابط الاتصال. غير أن مودين لم يتوصل إلى درجة الاستسلام؛ فعندما استجوبته الـ MI-5، اعترف العميل بأنه نقل ملاحظات خاصة إلى الروس، غير أنه نفى كل مهمة جاسوسية. واستقال من الوزارة واشتغل في أميركا الشمالية خلال عدة سنوات قبل التزامه بمنظمة الأغذية العالمية (فاو) في روما. أما كارنكوس فانتهى به الأمر إلى الاعتراف بنشاطاته كجاسوس للـMI-5 بعد استجواب لاحق. غير أن مهنته كعميل سوفياتي انتهت عمليًا في اليوم الذي مرّ به بلونت إلى جانب ملاحظاته في منزل بورجيس عام ١٩٥١. فاستأنف هواياته الأولى في الأدب الفرنسي فترجم بتفوق مؤلفات الأدباء الكلاسيكيين (راسين، موليير، إلخ) لصالح دار النشر Penguin وحتى أنه نشر في فرنسا كتابًا ينم عن تبحر تحت عنوان Molière, Bourgois et Libertin Nizet عام ١٩٦٣.

وفي عام ١٩٧٩، وبعد انكشاف نشاطاته، اعترف بلونت بأنه كان مضطرًا (إذ أجبره مودين، وهذا ما أهمل ذكره) إلى اللحاق ببورجيس وماك لين عام ١٩٥١، غير راغب بالأمر، رفض مبادلة اللياقة الأدبية وسحر معهد كورتولد Courtauld بالواقعية الاشتراكية الحزينة لروسيا الستالينية. وقد اضطرت الـ MI-5 أن تنتظر ثلاث عشرة سنة لكي يعترف، وهذا ما قام به عام ١٩٦٤. وحتى في ذلك الحين، وبما أنها تفتقر للبراهين الكافية، فقد منحته الحصانة شرط أن يقدم اعترافات كاملة.

بالمقابل، انصبت الشبهات على فيلبي مباشرة بعد هروب بورجيس وماك لين، رغم أن كل زملائه في لندن وواشنطن كانوا غير مقتنعين بصحة هذه الظنون. إن التحاق بورجيس به كان السبب المباشر في ذلك. فخلال السنة التي أمضاها في السفارة في واشنطن، أصر بورجيس على السكن مع عائلة فيلبي. ومع أن هذا التدبير كان قد ظهر له مُكلفًا، فقد اعتقد هذا الأخير ـ وكان مخطئًا في ذلك ، أنه وبناءً على

لقائهما الماضي، فإن أمنه الخاص لن يكسب شيئًا إذا رفض أن يستضيفه. وكان يأمل كذلك أنه وإذ يسكن عنده، فإن بورجيس يجذب "عددًا من الأعداء" أقل مما لو عاش لوحده. ومع أن عودة بورجيس إلى لندن كانت بسبب سلسلة من الخطوات الخاطئة، لم يشك فيلبي بأن بورجيس قد يرافق ماك لين إلى موسكو. وقد نقل إليه الخبر ضابط الاتصال التابع للـMI-5 في واشنطن: "كان باهت اللون". "كيم، قال بصوت خافت، لقد طار العصفور". وعبّر وجهي عن بداية انفعال مخيف (هذا ما كنت أتمناه). "أي عصفور؟ أليس ماك لين؟ نعم، أجاب، إنما هناك ما هو أسوأ.. لقد انطلق غي بورجيس معه... بهذا الخبر أصبح انذهالي حقيقيًا".

وبعد ذلك بقليل استقل فيلبي سيارته وتوجه إلى فرجينيا. وهناك دفن في غابة جهاز التصوير الذي استخدمه في نسخ الملفات للمركز، وهي حركة كان يكررها غالبًا في الخيال منذ وصوله إلى واشنطن. فكان المركز قد رصد خطة هروب عاجل في نيته، إنما وفي المساء، كان قد عزم على عدم اللجوء إلى ذلك. قد يبقى ويدفع ثمن وقاحته. ولكنّه أصبح من المستحيل عليه البقاء في واشنطن. فقد أبلغ الجنرال "والتر بدل سميث W.Bedell Smith" مدير الـ CIA، إلى SIS بأن فيلبي لم يعد مقبولاً كضابط اتصال في مسائل التنسيق والتنظيم، ومع ذلك، وبالرغم من استدعائه إلى بريطانيا، استغل الجاسوس دائمًا في واشنطن كما في لندن دعم شخصيات ذات مكانة. ومن بين هذه الشخصيات، هناك المدير المقبل للجاسوسية المضادة في الـ CIA، "جايمس يسوع انغلتون"، مع أنه أكد فيما بعد بأنه اخترق هذه الشخصية المشهورة بالسرعة ذاتها بدل سميث. وبعد استدعاء فيلبي بحوالي سنة، أعلن لزميل من الـ CIA هو جايمس ماك كارغر، الموجود في لندن: "أعتقد بأن جيم سيقود يومًا ما الـ SIS"... وعندما اقتنع أخيرًا بخيانة فيلبي، كانت الصدمة أشد رعبًا. إن الخطأ الأكبر بقاءً وثباتًا الذي فرضه

فيلبي و "العظماء الخمسة" على دوائر المخابرات السرية الأنكلو ـ أميركية هو أنهم استدرجوا انغلتون وبيتر رايت وأقلية من ضباط المخابرات على ضفتي الأطلسي ليفتشوا دون طائل في قصر المرايا الخاص بأوهامهم عن آثار مؤامرة سوفياتية أوسع بكثير مما هي في الواقع.

عند عودته من واشنطن، وضعت الـ SIS فيلبي رسميًا في التقاعد، ومنحته مبلغًا محترمًا هو ٤,٠٠٠ ليرة: ٢,٠٠٠ مدفوعة فورًا، والمبلغ الباقي يدفع أقساطًا على ثلاث سنوات. وبناءً على ذلك استنتج فيلبي بأن قرار عدم دفع المبلغ "مرة واحدة يكشف احتمال اعتقاله خلال السنوات الثلاث". وفي كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٥١، استُدعي من أجل "تحقيق قضائي"، من مقر MI-5 العام في Curzon Street، من أعمال Mayfair، ويعطي ضمن مذكراته تقريرًا مضلِّلاً عما هو محاكمة صورية في الواقع... ويقول ضابط من الـMI-5 في تلك الفترة: "لقد خرج كل ضابط من الضباط الذين حضروا المرافعات، مقتنعًا تمامًا بذنب فيلبي". غير أن التحقيق استنتج استحالة جمع البراهين الكافية لإصدار الحكم. مع ذلك احتفظ فيلبي ومن داخل الـ SIS بدعم مجموعة من الأصدقاء الأوفياء من الذين نجح ببراعة في إظهار نفسه أمامهم أنه الضحية البريئة "لمطاردة المشعوذات" يستحقها ماك كارثي وليس هو.

إن تتمة مهنة فيلبي كجاسوس لم تكن من مستوى بداياتها المتألقة، ومهما تكن من التأكيد على سنواته في بيروت حتى ارتداده عام ١٩٦٣. لقد انتهت مرحلة ازدهار "العظماء الخمسة" عام ١٩٥١ مع هروب بورجيس وماك لين، واكتشاف كارنكروس وفصل فيلبي، فإذا كانت منطقة الصيد المفضّلة لدى المركز في موسكو خلال الثلاثينات، عندما بدأت نشاطات الخمسة، هي الأحزاب الشيوعية الغربية والأممية الشيوعية، فإن جيلاً من عملاء الحرب الباردة كان قد تم تطويعهم في موضع آخر.

وكنتيجة للاعترافات المحيِّرة لإيغور غوزانكو وإليزابيت بانتلي وويتّاكر شامبرز وآخرون حول استخدام الشيوعيين الغربيين كعملاء للسوفيات، لم يعد المركز يأذن لمراكزه الفرعية في الخارج بتجنيد أعضاء من الأحزاب الشيوعية في مهمات مخابراتية - إلا في ظروف استثنائية.

ومع ذلك، وحتى في الوقت الذي انتهت فيه مرحلة العظماء الخمسة، فإن رجلاً كان جُنِّد في كمبردج في الثلاثينات، وصل إلى القمة في مجال مهنته، "إنه أليستر واطسون"، أمين سر قديم "للرسل Apôtres" الذي لعب دورًا أساسيًا في اهتداء بلونت إلى الماركسية وعُدَّ ولا ريب من بين الأعضاء الأوائل "لحلقة الخمسة" التابعة لبورجيس. لقد شغل المركز المطلوب كرئيس لمؤتمر في معهد الملك King's College (١٩٣٣ ـ ١٩٣٩) وذلك عندما جندته الـ NKVD. غير أنه اكتفى بالكشف عن المواهب. وفي بداية الحرب، التحق بمركز القيادة البحرية حيث عمل كمهندس في الهندسة البحرية ثم في قطاع الرادارات. غير أن نشاطه كعميل سوفياتي أخذ انطلاقته الحقيقية بعد الحرب وخاصة عام ١٩٥٣، عندما قاده تعيينه كمدير للدائرة العلمية في مختبرات البحث الخاصة بمركز القيادة البحرية في تدانغتون Teddington إلى العمل على مشروع فائق السرية يغري أشد الإغراء الـ MGB: توضيح طرق اكتشاف الغواصات وذلك باستخدام ترددات صوتية منخفضة. لقد سكن واطسون خلال سنتين في بيت مع أخ بيتر رايت، الضابط في MI-5، كره رايت واطسون قبل أن تبحث الـ MI-5 بأمره بوقت طويل: "كان طويلاً ورفيعًا وذا وجه بارد جاف عنزي قليلاً، ومشية متصنعة على رؤوس الأصابع". بالمقابل هناك من كان يتأثر بحديثه المتألّق رغم غرابته أحيانًا. وفي السبعين من عمره، كان بإمكانه استقبال الأصدقاء القدامى "محدثًا إياهم عن نظرية هندسية خاصة بالأبعاد الأربعة، وعن نقطة تفصيلية في بنية

"الجنة المفقودة" [لملتون] "وعن فرضية حول اللهجات المصرية". وبصفته مديرًا لقسم مختبر الأبحاث في مركز القيادة البحرية المخصص لاكتشاف الغواصات، فقد شغل، حسب قول رايت: "أحد المراكز الأكثر سرية والأكثر أهمية في كل وزارة الدفاع". وكانت الـ KGB تتبنى هذا الرأي. وخلال الأربعينات والخمسينات، عمل مع ضباط الاتصال أنفسهم الذين عمل معهم الخمسة: غورسكي، كروتوف ثم مودين. وعندما عاد هذا الأخير إلى موسكو في عام ١٩٥٣ وحتى عام ١٩٥٥، اختلف واطسون مع خلفه المدعو "سيرجي الكسندرفيتش كوندراتشيف" الذي أصبح فيما بعد مديرًا مساعدًا للـ PDG. وقد شرح واطسون لبيتر رايت بأن كوندراتشيف: "كان بورجوازيًا جدًا... إنه يرتدي سروالاً من الفانيلاّ وبلازر (سترة مخططة براقة...) أزرق بحري، وله مشية الجعيد (كلب مجعّد الوبر طويلة)". وفيما بعد كان ضباطه للاتصال رودين ثم ومن جديد مودين وأخيرًا نيقولاي بروكوفيتش كاربكوف، المسؤول من سنة ١٩٥٨ حتى سنة ١٩٦٣ عن الاستخبارات العلمية والتقنية في مركز لندن. وأخيرًا، ومع نهاية تحقيق للـMI-5 تم نقل واطسون عام ١٩٦٧ إلى المعهد الأقيانوغرافي، حيث انقطع عن العمل في المشاريع السرية...

من بين النجاحات الكبرى للجاسوسية في فترة ما بعد الحرب، يذكر تاريخ الـ PDG الموضوع عام ١٩٨٠ تزايد حجم المعلومات العلمية والتقنية الصادرة عن المملكة المتحدة. إلى جانب المعلومات التي قدمها واطسون عن أنظمة كشف الغواصات، حصّل المركز في لندن نتائج طيبة في مجالات الطاقة الذرية والتكنولوجيا العسكرية ووسائل الإبحار. ويُعدُّ ليونيد سرجيفيتش زايتسيف خلال الثلاثينيات من بين العملاء الأكثر نشاطًا في مجال المخابرات العلمية والتكنولوجية (S & 5)، بصفته عضوًا في مديرية الـ PR (المخابرات السياسية Renseignement Politique). وقد كان

عليه فيما بعد أن يترأس المديرية الجديدة T المتخصصة في هذا المجال. وقد عرف النشاطان S & T تطورات جديدة خلال الستينات.

وفي بداية الخمسينات، قام المركز باختراق جديد ومهم داخل الدوائر البريطانية. فبعد عدة أشهر من فصل فيلبي من الـ SIS راحت الـ MGB تستميل ضابطًا من الدوائر السرية البريطانية هو جورج بلاك واسمه الحقيقي بيهار وله من العمر ٢٩ عامًا. وكان بلاك قد ولد في روتردام لأب يهودي سفرديم، أصله من القاهرة، ومتجنس، ولأم من ايرلندا الجديدة. وكانا قد سميا ابنهما جورج إكرامًا لملك انكلترا. وخلال الحرب العالمية الثانية، خدم بلاك في المقاومة الإيرلندية الجديدة، ثم في البحرية الملكية حيث أصبح ضابط استخبارات مع نهاية الصراع. أمضى السنة الدراسية ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ في تعلم الروسية في معهد دواننغ التابع لكمبردج، ثم التزم في الـ SIS، غير أن عدة تفاصيل من حياة هذا المتطوع الجديد تبدو عصية على الترتيب، وخاصة التأثير الكبير الذي مارسه عليه ابن عمه هنري كوريل Cureil، العضو المهم في الحزب الشيوعي المصري، والذي عاشره بلاك كثيرًا في فترة المراهقة. وفي عام ١٩٤٩، أرسلت الـ SIS بلاك إلى كوريا الجنوبية ومنحته مركز نائب القنصل في سيول على سبيل التغطية. وفي السنة التالية، وبعيد بدء الحرب الكورية، جُعِلَ سجينًا عند الكوريين في الشمال حين غزوا البلد.

قدم الصينيون للمركز الفرص لتجنيد بلاك، إذ إن قواتهم من المتطوعين كانت قد تدخلت "لدعم الكوريين في الشمال". فحين إنشاء الجمهورية الشعبية في تشرين الأول - أكتوبر عام ١٩٤٩، كانت الـ MGB قد اقترحت في الحقيقة أن تقدم العديد من المستشارين للصين، ودعت الصينيين لإرسال بعض ضباط استخباراتهم إلى موسكو وذلك لتأهيلهم في هذا المجال. قَبِل ماوتسي تونغ الاقتراحين... إنما ومنذ البداية، بدا

الصينيون مصممين على ألا يدعوا دوائر مخابراتهم تحت إشراف الـ MGB كما حصل مع بلدان أوروبا الشرقية، ومع رغبتهم باستخلاص الدروس من التجربة ومن المهارة التقنية السوفياتية في مادة الجاسوسية، فقد رفضوا مع ذلك كراريس الـ MGB، باعتبارها متعارضة مع الظروف الصينية، ولم يؤذن لضباط الـ MGB أبدًا بالمساهمة في العمليات الصينية، خلافًا لما حصل في أوروبا الشرقية. غير أن الصين قدمت مع ذلك معلومات كثيرة عن التكنولوجيا الأميركية وزوّدت الـ MGB بقاعدة على أرضها لتدريب "العناصر غير الرسمية" من الجنسية الصينية للعمل ضد "العدو الرئيسي" وضد بلاد أخرى غربية. وقد دخلت الـ MGB كذلك بشكل محدود على سجناء الحرب الغربيين المحتجزين لدى الصين وكوريا الشمالية. ومن بين هؤلاء كان جورج بلاك.

يبدو أن تجنيد بلاك بدأ في خريف عام ١٩٥١. وحسب ما أورده غريغوري كورفيتش الضابط الأول في الـ MGB المكلف بالاستجواب، عبّر بلاك بسرعة عن خيبة أمله بالسياسة الغربية عامة وبالتدخل الأنكلو ـ أميركي في كوريا خصوصًا. وفي فترة أولى لم يفرط بأي سر للـ SIS. إنما وفي خريف عام ١٩٥٣، وعندما أصبح حرًا مع بقية السجناء، كان قد أصبح عميلاً سوفياتيًا من نوع خاص. وحتى نهاية الخمسينات، خان عملاء وعمليات الـ SIS بحماس كبير مثل فيلبي ، إنما ليس بالفعالية ذاتها دائمًا.

خلال السنوات الأولى من الحرب الباردة، نجحت الدوائر السرية السوفياتية بزرع العديد من الجواسيس في أكثرية بلدان أوروبا. ومن كل هذه البلدان، كانت ألمانيا وفرنسا البَلدين اللذين اهتم المركز باختراقهما أكثر من غيرهما. كان اختراق الوظيفة العامة في فرنسا سهلاً بسبب شعبية الحزب الشيوعي الهائلة منذ الحرب ـ ربع الأصوات تقريبًا خلال أكثر من عشر سنوات ـ وبسبب وجود وزراء شيوعيين في

الحكومة حتى عام ١٩٤٧. وبعد ارتداده عام ١٩٥٤، روى كل من فلاديمير وإفدوكيا بتروف بأن الـ MGB والـ KI كانا قد "وجدا الاستخبار سهلاً بشكل خاص في فرنسا... أما القسم العملياتي في الـ KI في هذا البلد فكان طافحًا بالأوراق التي تشبه نسخ الملفات الرسمية الفرنسية المصورة".

ومن العام ١٩٤٧ حتى ١٩٤٩، ترأس مركز الـ KI/MGB "إيفان ايفانوفيتش اغايان" الملقب بـ Avolv. وكان هذا الأرمني، وعمره أقل من أربعين سنة، يتكلم الفرنسية والإنكليزية والفارسية. وتتذكر ايفدوكيا بتروفا بأنه كان الأكثر قربًا للنفس من بين كل زملائها القدامى: "ساحر، ذو ثقافة عالية، لطيف، مفعم بالتهذيب". وبسبب نجاحاته، وُعِد بأن يصبح في العام ١٩٤٩ داخل إدارة المديرية الثانية التابعة للـ KI، مسؤولاً عن كل أوروبا ما عدا المملكة المتحدة. أما الكسي الكسيفيتش كروكين الذي خلفه في باريس منذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٤ فقدّر عاليًا فترة بقائه في فرنسا. أما بتروف فوصفه بأنه "الضاحك أبدًا، المفرط في حيويته، والمسرور بحياته". وكان كروكين يقوم بمهمة أخرى في باريس من عام ١٩٦٦ حتى عام ١٩٧٢، وهذا دليل صريح على نجاح مهمته الأولى.

أما العملاء المتسللون في فرنسا في الفترة التي كان فيها اغايان وكروكين في مركزهما في باريس، فيبدو أنهم لم يسقطوا أبدًا في الشرك، أو على الأقل لم يُعرفوا علانية. وكان جورج باك الأكثر أهمية من بين الجواسيس الفرنسيين في فترة الحرب الباردة وهو الذي أدين إنما فقط بعد أن عمل خلال عشرين سنة عميلاً سوفياتيًا. وبعد دراسات متفوقة، فإن طالب دار المعلمين هذا المتفوق بالإيطالية، كان قد تم تجنيده عام ١٩٤٣، في سنته التاسعة والعشرين على يد الكسندر غوزوفسكي من الـ NKGB. وكان يدير حينها القسم السياسي في دائرة البث الإذاعي التابعة لحكومة ديغول الموقتة

في الجزائر. وبعد الحرب وفي ظل الجمهورية الرابعة، شغل مركز رئيس الحكومة ثم مستشارًا لعدة وزراء. وبما أن هذا كان حال العديد من جواسيس تلك الفترة، فيبدو أن حب الذات هو الذي كان يحرك باك وليس الإيمان الأيديولوجي الذي كان قد ألهم "العظماء الخمسة" والجيل السابق من العملاء المزدوجين.

مصممًا على القيام بدور كواليس العلاقات الدُّولية، وهو دور لا يمكنه ادعاؤه علنًا، أخذ على عاتقه تعديل ميزان القوى بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، القوية جدًا بنظره. وقد دأب باستمرار ضباط الاتصال التابعون لباك على تملُّق حب الذات عنده. وقد ادعى في ما بعد بأنه تلقى رسالة تهنئة من ستالين، ثم رسالة أخرى من خروتشوف... وتقع المرحلة الأكثر إنتاجًا في تاريخ مهنته كعميل سوفياتي بعد عودة ديغول إلى السلطة عام ١٩٥٨، عندما كان يضع يده على أسرار الدفاع المهمة.

إن تقسيم ألمانيا وسيل المهاجرين القادمين من الشرق جعلا من الجمهورية الاتحادية التي أُسِّست عام ١٩٤٩، الدولة التي يمكن اختراقها بسهولة أكثر من غيرها من الدول الغربية. إن أحد أهداف المركز المفضلة كان الوكالة شبه الرسمية للاستخبارات والمسماة "Gehlen Org" والتي ألحقت رسميًا بالمستشارية الفدرالية (رئاسة الجمهورية الألمانية) عام ١٩٤٦ وأصبحت الـ Bundesna Chrichtendients (BND). وفي عام ١٩٤٩ كان تجنيد مركز القيادة الشرقي الألماني التابع للـ MGB في Karlshorst لنقيب قديم من الـ SS عاطل عن العمل هو هانس كليمانس Clemens المرحلة الأولى من عملية الاختراق. وفي عام ١٩٥١، حظي كليمانس بمركز في الـ Gehlen Org وجند فيها رفيقًا قديمًا له من الـ SS هو هانز فلف Felf ونجح في تشغيله لدى MGB. وبمساعدة الـ Karlshorst الفعالة، أصبح فلف بسرعة أحد العملاء الأكثر فعالية في فترة الحرب الباردة. وفي عام ١٩٥٣، أذهل زملاءه عندما أعلن

أمامهم أنه نجح في أن يجهّز لموسكو شبكة عملاء يقودها كولونيل من الجيش الأحمر. أما أكثرية المعلومات التي تقدمها هذه الشبكة ـ مزيج من الوقائع الحقيقية والأوهام، أعدها المركز ـ فكانت تنقل إلى "كونراد إدينهاور"، المستشار الألماني في بون. وقد عملت الـ Karlshort أكثر من ذلك خدمة لفِلف إذ قدمت له تقارير عن اجتماعات حكومة برلين الشرقية، وكذلك سلطات تتيح له توقيف بعض العملاء الألمان الشرقيين المعتبرين ضحايا. لقد وصل عمل فلف إلى أوجه في الوقت ذاته تقريبًا لعمل باك. وفي عام ١٩٥٨ كان قد أصبح "فيلبي الألمان"، ومثل "فيلبي الإنكليز" عام ١٩٤٤، عُيِّن مديرًا لدوائر الجاسوسية المضادة باتجاه الاتحاد السوفياتي. أما بالنسبة لدوافعه، فإنها تقترب من دوافع باك أكثر من اقترابها من دوافع فيلبي. يعتبر فلف نفسه أنه أفضل موظفي الاستخبارات والنجم الصاعد للـ BND، الذي تعترف به هذه المنظمة وتخدعه في الوقت ذاته. وكانت الـ Karlshorst تحرص على مدحه وتملقه فتشجعه على الاعتقاد بأن مآثره تتفوق حتى على مآثر سورج. ويوضح فلف ذاته فيما بعد ذلك بقوله: "أريد أن يعتبرني الروس عميلاً من الصف الأول[١]".

خلال الحرب الباردة، كما وفي المرحلة السابقة لها، كانت السمة البارزة لعمليات الاستخبارات السوفياتية هي التصويب على أعداء خياليين وليس على معارضين موجودين فعلاً. فهذه هي مطاردة التروتسكيين الحقيقيين و ـ أكثر الأحيان ـ الخياليين في الثلاثينات تجد موازيًا لها في عمليات الإلغاء الجارية إبّان الحرب الباردة ضد المتآمرين التيتويين الوهمية غالبًا، فالكل، مثل ستالين وبريا وأباكوموف، يفسر انشقاق تيتو عن موسكو عام ١٩٤٨ عنصرًا في مؤامرة واسعة أمبريالية تستهدف زعزعة

١ - Höhne Heinz et Zolling Herman, *The General Was a Spy,* Edition de Poch, Pan Books (London, 1973), ch. 12.

الكتلة السوفياتية. ففي شهر تموز ـ يوليو، وبمناسبة أحد الاجتماعات، أبلغ جدانوف، رجل ستالين، الكومنفورم بأن الـ MGB لديها البرهان على أن تيتو تحالف مع دوائر الجاسوسية الغربية وذلك بهدف قلب الديمقراطيات الشعبية. إن هذه الادعاءات القائلة بأن الزعيم اليوغوسلافي كان قد تآمر مع الغربيين مستوحاة أحيانًا من الدعاية المعادية لتيتو. وفي أحيان أخرى كذلك، كانت ثمرة ميول ستالين والمركز الذهانية، وقد امتزج هذان العاملان أخيرًا بشكل مبهم يتعذر حلّه.

إن الجاسوس الغربي الخيالي الأهم الذي أدين على تدبيره مؤامرة أمبريالية تيتوية كشفتها الـ KI/MGB في أوروبا الشرقية هو "توبل هافيلاند ـ فيلد". وقد كشق المركز (في موسكو) عام١٩٤٩ بأن هذا الأميركي المنحرف المليء بالنوايا الطيّبة والدبلوماسي القديم والمولع بالأعمال الحسنة كان "عميلاً في المنظمة الأميركية للجاسوسية ونجح في أن يوصل عملاءه إلى أعلى المستويات في الأحزاب الشيوعية وذلك لقلب النظام الاشتراكي لحساب الامبرياليين وتيتو"...

كان فيلد شيوعيًا رومانسيًا وحالمًا. إن سذاجته لا يمكن إلا أن تثير في نهاية المطاف ظنون هؤلاء الذين يؤمنون بالمؤامرة والموجودون في المركز. في عام ١٩٣٤، وحين كان يعمل في وزارة الخارجية الأميركية، تم تجنيده عميلاً في الـ NKVD؛ كان يقدم معلومات ولم يقدم ملفات أبدًا. وفي عام ١٩٣٦، ترك واشنطن للالتحاق بلجنة نزع الأسلحة التابعة لعصبة الأمم في جنيف. وحسب فلور لويس مؤلفة سيرته الذاتية، كان مقتنعًا أنه "وبصفته موظفًا أمميًا، لا يخون أحدًا عندما يعمل سوفياتيًا". ويبدو أن عمله لصالح NKVD بقي تحت رحمة الصدفة. أما ضابط اتصالاته في جنيف فكان بورتسك، المعروف بـ"لودويك" وبـ"ريّس"، الذي سارع في الانتقال إلى الغرب ليقتل فورًا على يد NKVD. وعلى هذا فقد أصبح اتصاله في ما

بعد مع كريفيتسيكي والذي غيَّر ابتداءً من السنة التالية هو الآخر معسكره وخُتم مثل ريس، بخاتم العار الترتوتسكي. وفي نهاية عام ١٩٣٧، توجه فيلد وزوجته إلى موسكو في محاولة للارتباط من جديد مع الـ NKVD. إنما وخلال إقامتهما، فإن بول وهيد ماتسينغ ضابطيْ اتصالاتهما القديمين في واشنطن وبعد أن خاب ظنهما، استدعيا الـ NKVD من غرفة فندق آل فيلد للمطالبة بتأشيرتي خروج، وهددا بالتوجه إلى سفارة الولايات المتحدة لطلب المساعدة بدعم من فيلد إذا لم يلبَّ طلبهما. ومن المفهوم في هذه الأحوال بأن الـ NKVD كانت قد ترددت بدعوة فيلد مرة جديدة...

ورغم هذه السلسلة الغريبة من خيبات الأمل، احتفظ الرومانسي فيلد بإيمانه سليمًا، إيمانه الستاليني الجديد والرومانسي. وقد قال لأصدقائه بأن "ستالين يعرف ماذا يفعل". وخلال الحرب نظم أعمال نجدة ومساعدة لصالح United Service Commitee (USC) أولاً في فرنسا، ثم وابتداءً من عام ١٩٤٢ في جنيف حيث أصبح مديرًا للـ USC في أوروبا. وفي سويسرا، قام بمساعدة العديد من اللاجئين الشيوعيين الألمان والهنغاريين. ولكن عندما عاود الاتصال بآلان دالاس Allen Dulles، مسؤول الـ OSS في سويسرا (والمدير المقبل للـ CIA من عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٦١)، والذي كان قد تعرّف إليه في وزارة الخارجية الأميركية قبل عشر سنوات، أيقظ مرة أخرى ظنون الـ NKVD. أما هو فقد حصل على دعم دالاّس من أجل مشروع تحالف الـ OSS مع الشيوعيين الألمان بنية إنشاء حركة سرية معادية للنازية، غير أن قيادة أركان الـ OSS استبعدت أخيرًا المشروع...

وفي عام ١٩٤٧، أدّت الشكاوى التي أثارتها صلاته بالشيوعيين واتصالاته خارج الإطار الزوجي، إلى فصله من الـ USC. غير أن المركز ارتاب به كذلك أكثر من عناصر اللجنة. وعندما قصد عدة مرات أوروبا الشرقية لمحاولة العمل والانطلاق في

مجال الصحافة المستقلة أو البحث، حامت حوله الظنون بأنه يعمل سرًا لصالح الدوائر الغربية. وفي هذا الجو الهذياني الذي ساد بعد القطيعة مع يوغوسلافيا، اتخذت هذه الظنون مظهرًا حادًا. فخلال الحرب، عقد فيلد في سويسرا العديد من الصلات مع شيوعيين يوغوسلاف وحتى أنه كان قد حصل على دعم آلان دالاّس لصالح أنصار تيتو، وخلال عامي ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥، ساعد شيوعيين هنغار ومهاجرين آخرين للالتحاق بهنغاريا وذلك بأن قام بنقلهم بمساعدة الـ OSS عبر يوغوسلافيا مرتدين الزي اليوغوسلافي. وفي عام ١٩٤٨، وضع مركز الـ KI في فيينا يده على نسخة من رسالة كان قد أرسلها إلى دالاّس في نهاية الحرب، ومع أنها لا تشير أبدًا إلى أي نشاط في مجال المخابرات، فإن رجال المركز أصحاب نظرية المؤامرة، وجدوا فيها العديد من المستندات المرمّزة الخاصة بالجاسوسية[1].

لم يبق سوى الكشف على المتواطئين الخياليين مع فيلد في أوروبا الشرقية. وخلال صيف عام ١٩٤٨، دُعي إلى موسكو ماتياس روكازي، زعيم الحزب الشيوعي الهنغاري، وهناك أظهروا له بأن المتهم الرئيسي هو "لازلوراجك" وزير الداخلية، وكان المقصود الأكثر شعبية من بين قادة الحزب. وحتى إن مؤلف الحكاية الستالينية "مؤمرة راجك" يعترف بـ "سحره الجسدي الكبير": "كان يغري النسوة وأما الرجال فكانوا يقاومون بصعوبة شخصيته الجذابة[2]". مع أنّه كان وفيًا لستالين، فإن راجك كان الوحيد من الحلقة الصغيرة المؤلفة من قادة الحزب الإسبان، وأمضى ثلاث سنوات في

---

١ - Kaplan Karel, *Dans Les Archives du Comité Central,* Albin Michel (Paris,1978), PP. 145-147.

٢ - Kartun Derek, *Tito's plot Aginst Europe: The Story of the Rajk Conspiracy,* Lawrence and Wishar (Londres, 1949), P. 22.

فرنسا في معسكرات اللاجئين وذلك بعد هزيمة الجمهوريين. وبعد نجاحه في العودة إلى هنغاريا عام ١٩٤١، أصبح أمين سر اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي وأحد قادة المقاومة. اعتقله ألماني وذلك قبل عودته إلى بودابست في أيار ـ مايو عام ١٩٤٥. ولسوء حظه، أنه كان قد استفاد من مساعده فيلد له خلال الحرب. فقد تعارف الرجلان في إسبانيا خلال الحرب الأهلية. وكان فيلد قد ساهم بتحريره من معسكر للاجئين الفرنسيين ولعب دورًا في عودته إلى هنغاريا. وفي موسكو، فإن هؤلاء الذين يرون المتآمرين في كل مكان، شكلت لهم هذه الوقائع المقدمة البرهان على وجود مؤامرة هدفها زرع راجك في قيادة الحزب الشيوعي الهنغاري. أما الكشف عن علاقاته مع اليوغوسلاف، مضافة للعلاقات التي عقدها مع فيلد فمهرت مصيره. وقبل القطيعة بين موسكو وتيتو، كان راجك قد عقد "صلات بشكل خاص" مع رانكوفيك، نظيره في وزارة الداخلية الهنغارية.

وخلال صيف ١٩٤٨، وعند عودته من موسكو، وبعد تحذيره حسب الأصول، دعا راكوزي الحلقة المحدودة في الحزب ما عدا راجك. وعرض عليهم "براهين" قدمها المركز، في موسكو، عن تعاون راجك مع الدوائر الأميركية. وكانَ قد دعي إلى الاجتماع "جونا كادار" سكرتير الحزب الأول من عام ١٩٥٦ ـ حتى عام ١٩٨٨. وقد أوضحوا له أنه وبسبب الظنون الخطيرة التي تحوم حول راجك ـ وحتى إذا كان مستحيلاً الحكم في ذنبه مطلقًا ـ، فإن هذا لا يمكنه الاحتفاظ بمركزه كوزير للداخلية ومسؤول عن الـ AVO... فتوجب على كادار تولي وزارة الداخلية وأصبح راجك لفترة ما وزيرًا للخارجية. وجرى إنشاء لجنة سرية جدًا داخل AVO، برأسها "غابور بيتر"، رئيس المنظمة، وأقرب مساعديه وهما العقيدان إرنو زوكس Erno Szucs وغولاّ ديسكي، وذلك لوضع الحجج ضد راجك والمتآمرين الخياليين الآخرين. غير أن

الـ MGB بقيت المسؤول الأول في هذه القضية. أما الجنرال فيدور بيلكين، المستشار السوفياتي الرئيسي في أوروبا الجنوبية الشرقية، فأرسل جنرالين، هما ليخاتشيف وماكاروف، إلى بودابست للإشراف على الاستعدادات القائمة مثل الاعتقالات والمحاكمة العامة - وكان عدد فريق المستشارين السوفيات في الـ MGB حوالي الأربعين رجلاً. وفي أيار - مايو عام ١٩٤٩، وبناءً على طلب الـ AVO، اجتُذب فيلد إلى براغ بعد أن عرض عليه منبر جامعي. غير أن أول رد فعل لرئيس STB التشيكوسلوفاكي، جاندريش فزلي Vesely، القليل الاقتناع بحقيقة مؤامرة يقودها فيلد... كان مقاومة ضغوط الـ AVO. وبناءً عليه تدخل الجنرال بيلكين شخصيًا. وقد أكد فزلي فيما بعد على أن الرئيس غوتوالد Gottwald قال له: "إذا كان الجنرال بيلكين موافقًا على ذلك، إذن قم بما يرغبون به". وفي الحادي عشر من أيار - مايو، أوقف فيلد في براغ، واقتيد في الغد إلى بودابست حيث خضع لاستجواب مزدوج، من الـ MGB ومن الـ AVO العليا وأعلن عن اكتشاف مؤامرة واسعة اشتركت فيها في الوقت ذاته، الدوائر الغربية و "كلب الامبرياليين العميل" تيتو، وخلال خمسة عشر يومًا، جرت مساعٍ لتهدئة ظنون راجك... إذ دعي وزوجته إلى غداء نهار الأحد عند آل راكوزي. وفي اليوم التالي، تم اعتقاله. في الحادي عشر من حزيران - يونيو، وبصفته وزيرًا مسؤولاً عن الـ AVO، أوضح كادار الموقف أمام اللجنة المركزية للحزب: "من المعلوم أن البعض لا يؤمنون بذنب راجك. غير أن الأكثرية كانت مشلولة بسبب الخوف". كما قال فيما بعد، وقد أكد كذلك بأن راكوزي شخصيًا هو من قام بتقديم الوقائع.

استجوب الـ AVO ومستشاروها السوفيات سوية راجك وبإشراف من بيلكين، وقد لاحظ أحد شركاء راجك في التآمر: Bela Szasy أنّ "الهنغاريين كانوا يضحكون بدناءة

من الروس عندما يوجهون إليهم الكلام"، خلال الاستجوابات؛ "وكان رد فعلهم على دعابات ضباط الـ MGB الأشد حمقًا قهقهات من الضحك عالية، خنوعة". وخلال الاستجوابات، كان بيلكين يدخن باستمرار سجائر أميركية من نوع Old Gold في علبة جلدية؛ وكان يغضب لأتفه الأمور. وعندما رفض Szasy تجريم راجك، "نهض بيلكين، غاضبًا، ورمى بعنف كدسة الأوراق التي كان يمسكها بيده، منتزعًا من تحت أنفي العلبة المليئة بسجائر Old Gold وراح يتكلم بالروسية خلال ما يزيد على دقيقة ونصف: - ليس هذا اجتماعًا تورتكسيًا، ليس هذا مكانًا للتحريض!- وكان بيلكين ومستشارو الـ MGB يأمرون مرارًا أن يُضرب السجناء أو يُعذبوا، بينما كانت الـ AVO تمارس العمل القذر[1]". وقد ادعى أحد الجلادين الرئيسيين وهو فلاديمير فاركاس في ما بعد بأنه لم يقم سوى بتنفيذ أوامر موسكو...

وبما أن غابور بيتر، مدير الـ AVO، كان قد تذمر من عدم نجاحه في انتزاع اعترافات من راجك رغم العذاب والضرب، فقد أعلن كادار - كما ادعى في ما بعد - أن "أحدًا لن يتمكن من كسر إرادة راجك حتى شرطة هورثي Horthy، وأنه لن يحصل منه على شيء عندما يوسعه ضربًا. ومن أجل ذلك تخلوا عن أساليب العنف".

كان راجك أشد تأثرًا بالتهديدات ضد عائلته من التهديدات ضده شخصيًا. إنما يبدو أن اعترافاته سببها قبل كل شيء حس ستاليني بالواجب تجاه الوطن. وقد زاره كادار في زنزانته وطلب منه أن يخدم وطنه بأن يدلي أثناء محاكمته بشهادة تبيِّن أن تيتو كان عميلاً امبرياليًا. وقد أكد له بأن كل المكتب السياسي مقتنع ببراءته، إنما يطلب منه هذه التضحية للوطن. وهكذا ستكون إدانته - حتى الحكم بالإعدام - مختلفة تمامًا. وقد

---

١ - Szàsz Béla, *Volunteers for the Gallovies*, (London,1971), PP. 71-105, 108, 138, 172.

وعده كادار بأنه باستطاعته وبعد المحاكمة استئناف حياة جديدة مع عائلتـه فـي الاتحـاد السوفياتي باسم جديد. وكون هذاالحديث كان قد تم تسجيله دون علم كادار، وقد عرض راكازي، وقبل طرده بقليل مـن السلطة عـام ١٩٥٦، التسـجيل أمـام اللجنـة المركزيـة وذلك للانتقام من كادار.

جرت محاكمة راجك العامة والمتواطئين الخياليين معه وعددهم سبعة في أيلـول – سبتمبر عـام ١٩٤٩ فـي بودابسـت، أمـام محكمـة الشـعب. وكـانت مخصصـة لإعـداد موضوع مؤامرة تربط بالدسائس التخريبية التي تقوم بها الدوائر الغربيـة. أمـا الأدوار الرئيسية الأخرى فقد قام بها كل من تيبور سزوني Szonyi، مسـؤول شـعبة الكـادرات في الحزب والصلة الرئيسية المفترضة بين راجك والـ CIA، ورزار برانكوف، ضـابط الاتصال القديم في المخابرات اليوغوسلافية في بودابست وصلة الوصل المفترضة مـع تيتو، والجنرال جيورجي بالفي الذي اعترف بأنه كان يحضِّر انقلابًا. وقد أعلن النـائب العام في قرار الاتهام في المحكمة: "تتخذه هذه المحاكمة أهمية دولية... فمن هم أمامنـا في مقاعد المتهمين ليس راجك وزملاؤه فقط، بـل أكـثر مـن ذلـك يمثـل أمـام المحكمـة معهم أسيادهم الأجـانب، محرضـو بلغـراد وواشـنطن الامبريـاليون... وعلـى أسـاس الشهادات المُدلى بها في هذه المحاكمة، من الواضح أن ـ وفـي السـابق خـلال الحـرب ضـد هتلر ـ دوائـر الاسـتخبارات الأميركيـة كـانت تسـتعد لمقاتلـة القـوى الاشـتراكية والديمقراطية. فوراء زانكوفيك، يلوح خيال كلٍ من فيلـد ودالاّس Dulles... فـالمؤامرة التي دبرها تيتو وزمرته والتي كانت ستنفذها شبكة جواسيس راجك، لا يمكن فهمها إلا في سياق المشاريع الدولية التي يقوم بها الامبرياليون الأميركيون".

صدر الحكم بـالموت علـى راجك وأربعـة متهمين آخريـن. ولا يجهـل مستشـارو الـ MGB وكذلك الـ AVO بأن البراهين المستخدمة كقاعدة لهذا النفـاق المثـالي كـانت

مختلقة تمامًا. وفي الواقع، وحسب دروس الـ MGB، وقبل افتتاح المحاكمة، أجبرت الـ AVO المتهمين على تكرار اعترافاتهم كلمة فكلمة. غير أن أكثرية ضباط الـ MGB لم يشتبهوا بحقيقة مؤامرة واسعة تورط فيها كل من تيتو والـ CIA. ولكشف هذه المؤامرة، اعتقدوا أن لديهم الحق باستخدام أنواع الفسق بشكل تام التي يقدمها لهم الطابع المزيّف لهذه المحاكمة.

أما فاليري الكسندروفيتش كروتوف أحد حضور المحاكمة ومستشار الـ MGB والذي حضر تنفيذ الإعدام براجك، فأصبح في ما بعد زميلاً لغورديفسكي في مديرية S (غير الرسمية) التابعة للـ PDG. وقد أوضح له بأن هذه المحاكمة كانت "ضرورة سياسية". وكان لكلمات راجك تمامًا قبل إعدامه: ـ "البقاء للشيوعية!"... الأثر عميق في نفسه.

تلاحقت أعمال التطهير حتى وفاة ستالين عام ١٩٥٣، مع أنها أصبحت أقل مأساوية، وطالت ممثلين هنغاريين آخرين من المؤامرة المزعومة "التيتوية ـ الامبريالية". أما جانو كادار، خليفة راجك في وزارة الداخلية، فكان هو الآخر محط الظنون، معزولاً عام ١٩٥٠، معتقلاً ومعذّبًا عام ١٩٥١، بقي صامدًا ليُردَّ إليه الاعتبار بعد سنة من وفاة ستالين. وهذا لم يمنع ساندور زولد خليفته في وزارة الداخلية من أن يقتل زوجته وأولاده وحماته وأن ينتحر أخيرًا عندما علم أنه على وشك أن يكون بدوره ضحية أعمال التطهير، وعام ١٩٥٢، أودع إرنو سزوك Szucz المدير المساعد للـ AVH ، التي خلفت الـ AVO، في المركز تقريرًا موجهًا إلى ستالين شخصيًا. ويوضح فيه بأن الموقف ينزلق بطريقة غير مضبوطة. فمن الآن وصاعدًا تهدد أعمال التطهير وجود الحزب بالذات، وبعودته إلى بودابست، تم إيقافه واستجوابه على يد الـ MGB والـ AVH معًا، وأدين بالجاسوسية وأعدم.

نظمتها الـ MGB، ها هي مطاردة المؤامرات التخريبية التي دبرها تيتو أو دوائر المخابرات الغربية تتعمم في كل الكتلة السوفياتية، مدركة حتى الأحزاب الشيوعية في الغرب. أماالأكثر مأساوية في المحاكمات العامة، وذلك بعد محاكمة وزير الداخلية الهنغاري السابق، فجرت في براغ. إذ إنه وفي اجتماع بودابست عشية محاكمة راجك، ألحَّ كلٌ من بيكلين وراكوزي على كارل سفاب، نائب وزير الداخلية التشيكي ومدير الأمن، اللجوء للاعتقالات وللاستجوابات حالما يصبح ذلك ممكنًا. وبعد ذلك بأسبوع، طالب الرئيس غوتوالد والسكرتير العام للحزب الشيوعي التشيكي الـ MGB بمستشارين من ذوي التجربة مع راجك، تجربة قد تكون مفيدة لهم كذلك. وبعد ذلك بقليل وصل الجنرالان ليخاتشيف وماكاروف إلى براغ من بودابست. وقد وصفت لجنة تحقيق شُكِّلت عام ١٩٦٨ خلال ربيع براغ، الظاهرة التي تلت ذلك "بالمطاردة المجنونة لراجك التشيكوسلوفاكي". وقد انتقد الجنرالان السوفياتيان ليونة وتردد الأمن التشيكي وضعفه المفرط بمواجهة الأعداء الطبقيين. وقد عارض سلانسكي، زعيم الحزب التشيكي معلنًا ولادة دائرة أمن جديدة، مستقلة عن وزارة الداخلية وذلك "للتحقيق بالجرائم السياسية حتى داخل الحزب"، وفي المرحلة الأولى، بدا أنه تم تعيين فلاديمير كلامنتس وزير الخارجية السلوفاكي المعزول في آذار - مارس عام ١٩٥٠ ليقوم بدور "راجك التشيكوسلوفاكي"؛ وفي الربيع، بدا كذلك أن مُحاكمة عامة جديدة كبيرة وشيكة الحصول. فقد وُصف "قوميون بورجوازيون آخرون" (ومنهم غوستاف هوسال، زعيم الحزب الشيوعي ورئيس الجمهورية فيما بعد) عند محاكمة صورية كبرى بأنهم "خونة لطبقتهم". وخلال صيف عام ١٩٥٠، تم استبدال ليغاتشيف وماكاروف بفريق جديد من مستشاري الـ MGB بقيادة فلاديمير بوارسكي Boiarsky. وبسرعة كبيرة، غيرت مطاردة المشعوذات هدفها. إنها الصهيونية وليس

التيتوية هي التـــي أصبحـت مـن الآن وصـاعدًا السـلاح الرئيسـي لدوائـر الاسـتخبارات الغربية[1].

تعكس الحملة التي بوشر بها بحجة الدفاع ضد التخريب الصهيوني، تغيرًا جذريًا في اتجاه السياسة السوفياتية تجاه إسرائيل. ففي عام ١٩٤٧ وفـي الأمـم المتحـدة، كـان الاتحاد السوفياتي قد دعم مشروع تقسيم فلسطين الذي أدى إلى ولادة الدولة اليهوديـة. "وكما أكد غروميكو في اجتماع الجمعية العامـة، يستجيب هـذا القـرار لحاجـات الأمـة اليهودية، والتي لا يملك مئات الألوف منها لا وطنًا ولا مأوى". وقـد اعتـبرت موسـكو أن إنشاء دولة إسـرائيل ضربـة قاسـية ـ وجههـا اليهـود التقدميـون مـن أصـل بولونـي وروسي ـ إلى الامبريالية البريطانيـة فـي الشـرق الأوسـط؟ أمـا هجمـات العـرب ضـد الصهاينة ففُسرت على أنها ردة فعل يائسة من حكام أقطاعيين ضد ولادة نظام تقدمــي. أما دعم الاتحاد السوفياتي الدبلوماسي والأسلحة التـي قدمتهـا تشيكوسـلوفاكيا بمباركـة روسية، للصهيانية في حربهم ضد العرب فشكلت مساهمة أساسية فـي ولادة إسرائيل. إضافة إلى ذلك، فإن البلد الأول الذي اعترف بالدولة الجديـدة كـان الاتحـاد السـوفياتي (أيار ـ مايو عام ١٩٤٨)، وقد اتكلت موسكو على الاعتراف الصهيوني من أجل الدعم المبكّر ومن أجل الدور المسيطر الذي قام بـه الجيش الأحمـر فـي هزيمـة هتلـر. كـان الكرملين على اقتناع بأن إسرائيل قد أُعدّت لتكون الحـارس الأمـامي للثـورة "المضـادة للامبريالية". وفي إسرائيل بالذات، كان المابام، وهو حزب اليسار، يعتبر نفسـه "جـزءًا لا يتجزأ من المعسكر الثوري العالمي بقيادة الاتحاد السوفياتي".

---

١ - Kaplan Karel, *Proeés Politiques à Prague*, Éditions Complexe (Bruxelles, 1980), P.45

بنهاية عام ١٩٤٧، دعا الكولونيل أندريه ميخائيلوفيتش أوتراشتشانكو الذي كان يقود شعبة الشرق الأوسط والأقصى في الـ KI (التحق فيما بعد بالـ PDG) إلى اجتماع عملياتي ليعلن أن ستالين كان قد كلف شخصيًا الـ KI بمهمة تحقيق التحالف بين إسرائيل والاتحاد السوفياتي. أما هجرة اليهود الروس إلى إسرائيل فكانت الفرصة المثالية لإرسال عملاء يعملون في هذا البلد. وهنا، قد يتمكنون كذلك من العمل ضدّ العدو الرئيسي وضد الأهداف الغربيَّة الأخرى. وقد قاد الكولونيل الكسندر ميخائيلوفيتش "ساشا" كوروتوف، الرجل الرياضي المتزوج من يهودية، مديرية الـ KI المسؤولة عن غير الشرعيين (وقد عمل كذلك في الـ PDG فيما بعد). وقد كُلِّف باختيار المرشحين للهجرة وبتدريبهم على النشاطات اللاشرعية. أما مساعده الأول، الليوتنان ـ كولونيل فلاديمير فرتيبورك والمعروف أكثر باسم "ديادا فولوديا" فقد عُيِّن عام ١٩٤٨ مندوبًا أول للـ MGB/KI في إسرائيل. وقد عاد عليهم نجاح هذه العملية بوسام لكل منهما ووُعِدا بترقيتهما إلى رتبة جنرال.

منذ عام ١٩٥٠، أجرى الاتحاد السوفياتي تغييرًا كاملاً في سياسته إزاء إسرائيل، وكلن السبب الأول في ذلك حماس اليهود السوفيات للدولة الجديدة. فعندما توجهت غولدا مائير برفقة بعض أعضاء البعثة الدبلوماسية الإسرائيلية الجديدة، إلى الكنيس في موسكو للاحتفال بـ Rash ha-shana، أي السنة اليهودية الجديدة، في الرابع من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٤٨، تحلق حولها أكثر من ٣٠,٠٠٠ شرطي من إخوانها في الدين. أما اللجنة اليهودية المعادية للفاشية التي أنشئت خلال الحرب لحشد دعم اليهود في المعركة ضد النازية فتلقت في المقام الأول الأمر في أن تعلن: "لا! إن اليهود السوفيات لن يستبدلوا وطنهم الاشتراكي بأي وطن آخر". ثم وفجأة حُلَّت اللجنة. ويقول خروتشوف بأن سولومون ميخاتيلوفيتش ميخائيل، الذي كان رئيسها، رمته الـ KGB

تحت دواليب سيارة شحن فمات فورًا. وخلال شتاء ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، تم إقفال المسارح اليهودية في موسكو ومدن أخرى وتم إيقاف كل الكتاب والممثلين باللغة الياديشية تقريبًا. حتى أنه تم إيقاف زوجة مولوتوف جيمتسوجينا، المديرة السابقة لجمعية التجميل الدولية والتي تدين بهذا اللقب لعطر يحمل اسم "Haleine de Staline" ولمنتوجات أخرى، وأُبعدت فيما بعد أي عام ١٩٤٩ إلى منفى داخلي. وعلى حد قول خروتشيف، استشاط ستالين غضبًا عندما امتنع مولوتوف عن التصويت على قرار طرد زوجته من اللجنة المركزية. وكان هو نفسه، قد احتفظ بمركزه في المكتب السياسي ولكنه فقد منصبه كوزير للخارجية. ورغم الحملة التي قامت في الاتحاد السوفياتي ضد الصهيونية، فقد استمر هذا في دعمه لإسرائيل في الخارج إلى أن توطدت العلاقات بين إسرائيل والغرب (خاصة الولايات المتحدة) فاقتنع حينئذٍ بتغيير سياسته: ومن الآن فصاعدًا، راح يقدم دعمه لمعارضي الدولة العبرية من العرب. ومنذ ذلك الحين، راحت العقيدة الرسمية تفسر الصهيونية على أنها عنصر من مؤامرة واسعة معدَّة لقلب الكتلة السوفياتية وذلك باستخدام السكان اليهود، وإزاء هذا الخطر الصهيوني... وكان ستالين يتحاشى في خطاباته العامة كما وفي كتاباته إظهار كامل شعوره، غير أنه كان يسخر من اللهجة والأساليب اليهودية، وذلك بناء على رغبة أصدقائه القدامى المعجبين. وإن نسي خروتشيف فهو لم ينس اليوم الذي علم فيه عن خريف الـ MGB ومن رسميين من الحزب بالاضطرابات في معمل خاص بصناعة الطيران، كان ستالين قد أجاب: "لا بد من تزويد عمال المصنع الطيبين بالهراوات ليتمكنوا من ضرب اليهود مع نهاية العمل". وفي البداية، أحدث إعلان الخط الجديد المعادي للصهيونية بعض المشاكل في المركز. وبمناسبة اجتماع قيادة قسم الشرق الأقصى والأوسط في الـ KI، أوضح الكولونيل أوترا شنتشانكو بأن الصهيونية قد

تحالفت مع الرأسمالية. وكان الجمع بين هذين المفهومين مصدر التباس لدى بعض الكوادر. إنما وعلى ذمة المرتد ايليا دجيركفلوف، استدرك هؤلاء بسرعة: "من الواضح بأن هذه الحالة الخاصة لا "تتطابق" مع الماركسية اللينينة، إذن لا بد أنها تتماثل مع التروتسكية، وقد كنا جميعًا علىقناعة تامة بأنها كانت شرًا".

قامت الـ MGB بهجومها الكبير الأول في تشيكوسلوفاكيا ضد المؤامرة الصهيونية، ومنحت قيادة الحزب فلاديمير بوارسكي، مستشار الـ MGB الرئيسي في براغ ابتداءً من صيف ١٩٥٠، حرية التصرف لكشف "المؤامرة الصهيونية". وقد أُعلن بأن "عدونا الرئيسي هو الصهيونية الدولية. إنها تتصرف بشبكات الجاسوسية الأكثر تفوقًا". وقد أعقب ذلك موجة كبيرة من الاعتقالات استمرت كل شتاء ١٩٥٠ ـ ١٩٥١. وفي شباط ـ فبراير عام ١٩٥١ وبتحريض من بوارسكي ولا ريب، تم تعيين مطاردة أعداء الدولة؛ فأنشأ على الفور شعبة خاصة مكرسة للصهيونية. وكان كيرت يسخر مرددًا أمام زملائه أنه وفي كل مرة يرى أنفًا أعقف، فإنه إما أن يفتح ملفًا باسم صاحبه، أو يرمي به في السجن.

كان بوارسكي يبدو مقتنعًا أكثر فأكثر بأن المؤامرة الصهيونية كانت بقيادة شخصية أقوى من شخصية سلانغ. وفي صيف عام ١٩٥١، عرّف به على أنه رودولف سلانسكي، الأمين العام للحزب التشيكي والذي كان في الحقيقة من مؤيدي ستالين. وبرأي الليوتنان كولونيل بوهميل دوبك، رئيس فرع الأبحاث في StB، فإن بوارسكي ومستشاري الـ MGB كانوا يحلون على "النفوذ المتنامي لليهودية على حلبة السياسة الدولية؛ وهم يذكرون روكفلر وروتشيلد وآخرين من المشتركين جميعًا في نشاطات سلانسكي المهتدية بالتواطؤ اليهودي". وفي حزيران ـ يونيو من عام ١٩٥١، وضع دوبك وأحد مساعديه تقريرًا كاملاً حول الجاسوسية ومناورات "القوميين

البورجوازيين اليهود "التخريبية". ويشيران فيه إلى سلانسكي وبدريش جماندر، القائد اليهودي للقسم الدّولي في أمانة سر الحزب، وعلى ذنبهما المباشر. وبعد عدة تعديلات وضعها بوارسكي ومستشارو الـ MGB، أُرسِل التقرير للرئيس غوتوالد وإلى وزير الأمن لاديسلاس كوبريفا.

غير أن ستالين اعتبر أن التقرير ضعيف الحبكة إلى حد أنه يحول دون استخدامه كأساس لمحاكمة عامة ناجحة ضد الصهيونية. وفي رسالة إلى غوتوالد في العشرين من تموز - يوليو، أوضح ستالين أن البراهين التي تم جمعها حتى الآن لا تكفي لتجريم سلانسكي وجماندر، وأعلن عن استدعاء بوارسكي الذي لم يتمكن من معالجة القضية بصورة مرضية. وفي رسالة شخصية أرسلها بعد أربعة أيام، أضاف بأنه سيتم استبدال بوارسكي "برجل حازم، أكثر تجربة" وبانتظار ذلك بينت تقارير مستشاري الـ MGB بوضوح بأن على سلانسكي التخلي عن مركزه كأمين عام للحزب.

إن قرار ستالين بالاهتمام شخصيًا بقضية سلانسكي هي الدليل على وسواسه المتصاعد من التهديد الصهيوني وعلى ثقته الضعيفة بأن يكون أباكوموف في مركز قيادة الـ MGB. وفي خريف عام ١٩٥١، طُرح هذا الأخير في السجن، بصفته سكرتير الحزب في موسكو، اضطر خروتشوف أن يتوجه إلى قاعة طعام ضباط الـ MGB لتبرير هذا الاعتقال. فذكر سببين اثنين، الأول هو فساد أباكوموف: فقد عرف عنه في أوساط MGB بأنه نظم شبكة من المنازل المقفلة واستورد بعض السلع الغذائية الفاخرة والغالية الثمن من البلاد الغربية. وأما السبب الثاني فهو تباطؤ أباكوموف جدانوف... وقد تم إعدام هؤلاء على ارتكابهم "جرائم خطيرة" ضد الدولة. (وأخيرًا عندما حوكم أباكونوف وأعدم عام ١٩٥٤، بعد سنة من وفاة ستالين، كانت إحدى الجرائم التي أدين بها هي وعلى وجه الدقة اختلاقه أدلة كاذبة لتجريم متهمي

لينينغراد...). وعندما تخلص من أباكوموف، وضع ستالين في أولوياته وحاول ولا ريب الحد من نفوذ بريا على أمن الدولة. أما مدير الـ MGB الجديد، سيمون دنيسوفيتش اينياتيف، الذي سارع في استعادة الإشراف على ماتبقى من الـ KI، فكان عضوًا في منظمة تشيكا ومتحدرًا من اللجنة المركزية. وعلى عكس أباكوموف، فهو لا يدين بشيء لبريا. وعلى هذا، فقد أطلق حملة تطهير في مانغرليا Mingrelia والتابعة لجورجيا، مسقط رأس بريا.

في بداية تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٥١، وصل الجنرال ألكسي ديمتري بشتشاسنوف إلى براغ ليحل مكان بوارسكي الذي أقيل من مركز المستشار الأول للـ MGB. وفي الحادي عشر منه، وكان مقتنعًا في الظاهر أنه يمتلك المادة الكافية لكشف المؤامرة الصهيونية، أرسل ستالين أنستاز ميكويان العضو الذي يتمتع بالأقدمية في المكتب السياسي، حاملاً رسالة شخصية للرئيس غوتوالد، يطلب فيها اعتقال سلانسكي فورًا. وأمام تردد غوتوالد، توجه ميكويان إلىالسفارة السوفياتية للاتصال بموسكو وعند عودته أخبر غوتوالد عن إصرار ستالين على مطلبه، تنازل غوتوالد وتم إيقاف سلانسكي في الرابع والعشرين من تشرين الثاني ـ نوفمبر.

أشرف بشتشاسنوف ومساعداه، إيسيكوف وغالكين على استجوابات سلانسكي وشريكيه، وكانت الـ StB مكلفة بتعذيب أو ضرب السجناء لانتزاع الاعترافات منهم. وقد تم إرسال ثلاثة مستشارين جدد من الـMGB هم "غ. غروموف" و"غ. موروزوف" و "ج. تشرنوف" خلال سنة لمراقبة الاستعدادات للمحاكمة. ابتدأت "محاكمة قادة مركز المتآمرين ضد الدولة بقيادة رودولف سلانسكي" في العشرين من تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٥٢. وبعد خطاب الافتتاح، قرأ المدعي العام أسماء أربعة عشر متهمًا، كلهم أعضاء بارزون في الحزب. وتم تسجيل أحد عشر منهم، بما فيهم سلانسكي على

أنهم "من أصل يهودي"، واثنين تشيكييْن وواحد سلوفاكي. وقد اقترح مستشارو الـ MGB أولاً الصيغة "جنسية يهودية" أو ببساطة "يهودي"، غير أنهم قبلوا أخيرًا هذه التسمية الأخيرة الأقل دقة، وذلك بعد اعتراضات غوتوالد والمكتب السياسي التشيكوسلوفاكي. ومهما يكن، فإنّ هذا التدقيق كان شيئًا جديدًا بالنسبة لكلّ المحاكمات الستالينيّة في الماضي. ففي الثلاثينات، لم يرد أبدًا أي إشارة إلى الأصل اليهودي لترتسكي وزينوفيف وكامينيف أو الآخرين من ضحايا الإرهاب. أمّا في بودابست، وخلال محاكمة راجك، فلم يدقق أحد بأن ثلاثة من سبعة متهمين كانوا يهودًا. وفي محاكمة سلانسكي، تم تبرير الخيانة بالتربية اليهودية، وحسب الكلمات الخاصة لشاهد: "لقد كان لدى كل هؤلاء الخونة ما هو مشترك أي أصلهم البورجوازي واليهودي. فقد استمروا على جنسيتهم البورجوازية والانتهازية حتى بعد انضمامهم للحزب الشيوعي التشيكي وقبولهم في مراكز عالية في قيادة الحزب، وكان هدفهم هو إسقاط القيادة البلشفية لحزبنا وتدمير النظام الديمقراطي الشعبي. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، اتصلوا بالمنظمات الصهيونية وبممثلي الحكومة الإسرائيلية والذين هم في الواقع عملاء للامبريالية الأميركية". وقد صدر الحكم بالإعدام على أحد عشر متهمًا، من بينهم سلانسكي، وبالسجن مدى الحياة على ثلاثة منهم.

اشتدت الحملة ضدّ الصهيونية كذلك في كل الاتحاد السوفياتي وفي الكتلة السوفياتية وذلك بعد "هزيمة" المؤامرة الصهيونية داخل الحزب الشيوعي التشيكي. وفي المركز، فإن الخوف من المؤامرات الصهيونية أصبح دون حدود واضحة. وحامت الشبهات حول بعض العملاء السوفيات الأكثر فعالية بتهمة أن المخابرات الغربية قد اخترقتهم. ومن بين هؤلاء، سمولكا/سمولّي، مدير الشعبة السوفياتية في وزارة الإعلام البريطانية أثناء الحرب، الذي شُهِّر به ـ وقد كان ذلك محط استغراب ـ

في محاكمة سلانسكي "كعميل امبريالي". أعدَّ المركز خطة (دون إعدامـه) لخطفـه مـن النمسا حيث يسكن... ونقله إلى موسـكو حيث كـان عليـه الإجابـة علـى مسألة تجنيده خـلال الحـرب ليهـودي آخـر هـو ايفـان مايسكي الـذي أصبـح يعمـل سـفيرًا للاتحـاد السوفياتي في لندن.

وصلت حملة تطهير Nomenklatura إلى أوجها عام ١٩٥٢، ولم تكن نشـيطة فـي أي مكان مثل نشاطها في المركز. ففي ربيع عام ١٩٥٣، تم استبعاد كـل اليهـود مـن الـ MGB، ما عدا بعض "اليهود المختبئين"، أي اليهود جزئيًا من الذين ينتمـون رسـميًا إلى جماعات أتنية أخرى. بلغت حملة الـ MGB ضـدّ الصهيونيـة الأوج مـع "مؤامـرة القمصان البيضاء". ففي نهاية عام ١٩٥٢، وجهت ليديا تيماتشوك، الطبيبـة الشـابة مـن الكرملين، رسالة إلى ستالين اتهمت فيها رؤسـاءها ـ وأكـثريتهم مـن اليهـود ـ بالتـآمر لاختصـار حياة القادة السوفيات وذلك بعرقلة أو تخريب علاجاتهم الطبيّة؛ وقـد مُنحـت وسام لينين على كشفها هذه المؤامرة... وفـي ١٣ كـانون الثـاني ـ ينـاير عـام ١٩٥٣، أطلقت البرافدا حملة ضد "الوحوش والقتلة الذين داسوا رايـة العلـم المقدسـة بـأقدامهم، متسـترين خلـف رسـالة الأطبـاء النبيلـة والشـريفة". وكشـفت الصحيفـة بـأن "هـؤلاء الوحـوش" كـانوا عمـلاء فـي الدوائـر السـرية الإنكليزيـة والأميركيـة يعملـون بواسـطة "منظمة فاسدة مـن البورجوازييـن القومييـن اليهـود". وهـاجمت "يوميـة" الحـزب كذلـك دوائر الأمن التي لم تفضح أصحاب المؤامرة قبل ذلـك. وحسـب خروتشيف "استشـاط ستالين غضبـًا، وهـدد اينيـاتييف، وزعـق، مطالبًـا بتقييد الأطبـاء وضربهـم بعنـف بـل وسحقهم". وقد تم استجوابهم على يد مساعد اينياتييف، المدعو. د. ريومين، والمعروف عنه بأنه أكثر قسوة من رئيسه. وقد علَّق خروتشيف قائلاً: "لم يفاجأ أي شخص، عندما اعترف كل الأطباء أو كلهم تقريبًا، بجرائمهم".

وفي عداد المتآمرين الصهاينة الذين كشفهم ريومين، الجنرال بيلكين منظم محاكمة راجك لصالح الـ MGB. فقد اتصل ستالين شخصيًا بـ"راكوزي" لإعلامه بأن بيلكين اعترف بتجنيده لـ"غابور بيتر"، مدير الـ AVH اليهودي، وذلك لحساب دوائر المخابرات البريطانية والصهيونية. وبعد اعتقال بيتر، سارعت الـ AVH بالكشف عن مؤامرة "القمصان البيضاء" في هنغاريا بالطريقة ذاتها التي تمت في الاتحاد السوفياتي. وقد سارع الكومنفورم وكل الصحافة الشيوعية في أوروبا إلى وصف محاكمة سلانسكي ومؤامرات "القمصان البيضاء" على أنها "حلقات في السلسلة ذاتها، ومظاهر من نشاطات الامبرياليين الأنكلو ـ أميركيين المجرمة، هدفها الوحيد هو تفجير حرب عالمية جديدة".

وفي نهاية حياته، بدا أن ستالين كان يحضر لحملة تطهير جديدة ورهيبة. وفي المؤتمر التاسع عشر للحزب المنعقد في تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٥٢ ـ وهو الأول منذ عام ١٩٣٩ ـ حلّ محل المكتب السياسي المؤلف من عشرة أعضاء مجلس رئاسة جديد بلغ عدد أعضائه ستة وثلاثين عضوًا. وكان خروتشيف يخشى أن لا تكون هذه المناورة جزءًا من خطة "تستهدف التخلص عما قريب من أعضاء المكتب السياسي القدامى". وبدا أن ستالين بالذات كان يعاني من عدم ثقته بأي شخص من حاشيته. وفي احد الأيام سمعه خروتشيف يتمتم قائلاً: "لقد انتهيت، لا أثق بأحد، حتى بنفسي". وفي كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٥٢، تخلص من الكسندر يوسكريبيتشف الذي كان أمين سره الخاص، منذ حوالي ربع قرن (وكان المتحدث باسم تشرشل قد وصفه بأنه رجل "طوله ١،٥٠، ذو قدرة هائلة، ظهره منحنٍ، وجهه عريض، وفكه كبير، وأنفه طويل أعقف، وعيناه خاطفتان") وذلك بحجة مستحيلة هي نشر ملفات سرية. وبعد ذلك بوقت قصير، أمر باعتقال جنرال الـ MGB نيقولاي فلازيك، قائد

حرسه الخاص منذ أمد بعيد. وبما أن طبيبه الخاص، الدكتور فينوغرادوف، كان قد اعترف بمشاركته بمؤامرة "القمصان البيضاء" الخيالية، أصبح ستالين يخاف من أن يقترب أحدهم منه. وراحت تقض مضجعه حتى نجاحات الدوائر السرية السوفياتية في كواليس السلطة في البلدان الأجنبية. وهكذا كان ستالين موسوسًا بفكرة أن الدوائر الغربية في موسكو قد تمكنت من الحصول على النتائج ذاتها التي حصل عليها الاتحاد السوفياتي من الخارج. وقد ارتاب كذلك بالجنرال فوروشيلوف من أن يكون جاسوسًا بريطانيًا، وظن أن مولوتوف يعمل لحساب CIA!...

ويبدو أن بريا كان قد اكتشف خلال شتاء عام ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ بأن ستالين قد صمم على إبعاده: "من هنا عنف حقده، الذي جَهَرَ به بوضوح خلال مرض ستالين الأخير". هذا ما كتبه مؤخرًا مؤرخ سوفياتي. وفي ليلة ١ ـ ٢ آذار ـ مارس عام ١٩٥٣، إذ وقع الدكتاتور ضحية غيبوبة، راح بريا يتدبر في الحال أمر خليفته. أما خروتشيف الذي كان قد قاسى هيمنة "الأب الصغير للشعب"، فوجد هذا التصرف "بأنه غير محتمل أبدًا": "ففي كل مرة كان يبدو أن ستالين يستعيد وعيه، وكنا نعتقد بأنه يشفى، كان بريا يركع على ركبتيه، يمسك بيده ويغمرها بالقبلات. وعندما كان ستالين يغرق من جديد في الغيبوبة، كان بريا ينهض ويبصق على الأرض"...

وفي الخامس من آذار ـ مارس، يوم وفاة ستالين، ابتهج بريا أيما ابتهاج. وقد تذمر خروتشيف قائلاً: "وبكلمات فجة، علق علبة الموتى أمام جثة ستالين حتى قبل وضعه في النعش"... وخلال أقل من ٢٤ ساعة، جعل بريا الـ MGB والـ NVD (وزارة الداخلية) جسمًا واحدًا برئاسته هو MVD. فصل اينياتيف، اعتقل ريومين وأفرج عن أباكوموف ونصب أصدقاءه في مراكز قيادية في جهاز الأمن الجديد.

وبالاتفاق مع الطامعَيْن الرئيسيَّين الآخرَين بخلافة ستالين، أي مع خروتشيف ومالانكوف، وضع بريا حدًا لحملة "مطاردة المشعوذات" ضد اليهود. وفي الرابع من نيسان، فضحت البرافدا جهود المحرضين من قدماء الـ MGB، وذلك "لتأجيج الفتن العرقية وتقويض وحدة الشعب السوفياتي، الملتحم تحت لواء الأممية". وقد أعلن بأن كل الأطباء الذي اعتقلوا في كانون الأول ـ ديسمبر أبرياء، وأن مضطهديهم سينالون عقابهم. أما ميكويلز رئيس اللجنة المعادية للفاشية السابق الذي مات تحت عجلات سيارة شحن بعد أن رماه رجال الـ NGB، فأعيد الاعتبار إليه ونودي به "فنانًا سوفياتيًا بارزًا". وراح الألوف من الرجال والنساء يعودون من المنفى الداخلي ومن الفولاغ. وفي مقدمة هؤلاء كانت جيمستوجينا، زوجة مولوتوف.

في السنوات الأخيرة من حياة ستالين، استمر الإيمان بوجود مؤامرة صهيونية، ولم تسمح الـ MVD ولا KGB فيما بعد، بعودة أيٍ من الكادرات اليهودية الذين أصابتهم حملات التطهير في أوائل الخمسينات، ولا حتى رُفع الإجراء الذي يحظر العودة إلى البلاد... وعلى مدى السنوات التي قضاها غورديفسكي في الخدمة داخل الـ KGB، اعتُبرت الصهيونيّة من الاتّجاهات، إذا لم يكن الاتّجاه الرئيسيّ، التخريبيّة الإيديولوجيّة في الاتّحاد السوفياتيّ. وفي تمّوز من عام ١٩٨٢، وبُعَيد وصوله إلى لندن، تلقّى مركز الـKGB "خطة عمل ضد الصهيونية للفترة الواقعة بين العامين ١٩٨٢ و١٩٨٦". ومن الواضح أن موسكو لم تتنازل عن فكرتها الثابتة: "إن كل أنواع عمليات التخريب" التي نُظمت ضد الكتلة السوفياتية كانت من صنع الصهيونية الدُّولية. وكان على المخابرات السياسية (PR) وتلك المضادة للجاسوسية (KR) التابعة للمركز أن توجه إلى موسكو تقريرًا سنويًا عن العمليات المنوي تنفيذها في السنة المقبلة ضد الأهداف الصهيونية. وكان غورديفسكي يعرف كذلك مراكز غربية أخرى ـ في

الولايات المتحدة وكندا وفرنسا وإيطاليا واليونان وقبرص ـ حيث إنه كان للعمليات المضادة للمنظمات اليهودية شأن أكبر مما في إنكلترا. وأحيانًا اعتقد حتى أصدقاؤه الأشد ذكاءً والأفضل توازنًا بالأطروحة القائلة بأن اليهود يضعون يدهم على الرأسمالية الغربية. وكانت مواجهة الصهيونيّة خلال سنوات ستالين الأخيرة قد تركت أثرها الدائم، الذي يمكن رؤيته بوضوح خلال السنوات الأولى من عهد غورباتشيف[1].

---

١ ـ أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١) ص٤٠١ ـ ٤٥٧.

نِهَايَةُ "العظمَاء الخَمسَة" في بريطانيَا

عندما استلم زمام الأمور في PDG في عام ١٩٥٦، ورث ساخاروفسكي، حظيرة هامة ومميزة من العملاء المندسين في أوروبا الغربية، وكان أبرزهم على الإطلاق، كيم فيلبي "الذي كان بالنسبة إليه كظله".

وبعد مرور ثلاث سنوات على عودته من واشنطن في عام ١٩٥١، رأى المسؤول عن التعامل معه، يوري مودين خطورة في الاتصال به مباشرة بسبب المراقبة الشديدة المفروضة من دائرة الاستخبارات البريطانية MI-5. ولم يتمكن من لقائه إلاّ في عام ١٩٥٤ وبواسطة "أكثر العملاء إخلاصًا"، حسب تعبير فيلبي نفسه. وكان هذا الوسيط يدعى أنطوني بلانت.

ذات يوم، التقى مودين ببلانت، في معهد كورتولد، ربما للمرة الأولى منذ عام ١٩٥١؛ فناوله بطاقة بريدية رُسمت عليها لوحة زيتية، وطلب رأيه بها. وأخذ بلانت البطاقة التي كان مكتوبًا على ظهرها رسالة بيد بيرغيس يحدد فيها موعدًا للقائه خلال السهرة في مقهى أنجيل، في شارع كاليدونيان رود..

وهناك، في مقهى أنجيل طلب مودين من بلانت تحديد موعد للاجتماع بفيلبي.

وبعد ثلاثين عامًا، امتدح مودين في معهد أندروبوف الدقة التي أظهرها بلانت أثناء تأدية مهمته... ومنذ أول لقاء، بعد انقطاع دام سنوات، اكتفى المراقب بتطمين فيلبي على الحالة العامة، الأمر الذي "خفف من قلقه وطمأنه كثيرًا".

إن حاجة فيلبي للشعور بالاطمئنان الفكري والراحة النفسية كانت نابعة من ترك مدير الـ KGB في أستراليا فلاديمير بتروف، وزوجته إيفدوكيا.

وتمكن الهاربان من إعطاء بعض المعلومات الصحيحة المتعلقة ببرغيس وماك لين، وأولها الخبر الأكيد والثابت عن وجودهما في موسكو.

وتمكن مودين من التأكيد لفيلبي: بأن آل بتروف يجهلون عنه كل شيء حتى كونه عميلاً سوفيتيًا.

ولهذا السبب، تلقى البريطاني دون قلق كبير، التهمة الموجهة إليه من مجلس العموم في عام ١٩٥٥، والتي قال فيها النائب ماركوس لبتون بأن فيلبي هو "الرجل الثالث"، وكان لبتون قد استحصل على هذه المعلومات بطريقته الخاصة إذ تسربت إليه من دائرة التحقيقات في الشرطة الفيدرالية في الولايات المتحدة FBI.

وقد شرح فيلبي في ما بعد، كيف أن هذا الاتهام أدى له خدمة كبرى، وأفاده بدلاً من الإضرار به.

وعمد هارولد ماكميلان، السكرتير في مكتب الشؤون الخارجية حينذاك إلى إلغاء الاتهام الموجه ضد فيلبي، نظرًا لعدم وجود الأدلة والبراهين لإدانته، وهكذا توقفت أعمال الملاحقة. وبطبيعة الحال، عقد فيلبي بعد ذلك مؤتمرًا صحافيًا هامًا في صالون والدته وأعلن أمام حشد من الصحافيين: "آخر مرة وجهت فيها الكلام إلى شيوعي كانت في عام ١٩٣٤، وكنت أعلم أنه شيوعي".

وجاء دفاعه الواضح والصريح عن نفسه أمام الملأ ليدعم ويقوي مركز أصدقائه في SIS (دائرة المخابرات السرية) الذين كانوا يعتقدون أن اتهامه كان باطلاً وغير عادل.

ونجحوا في عام ١٩٥٦ في تأمين عمل له في بيروت، بحيث يكون مراسلاً للأوبزرفر والإيكونوميست في آن معًا.

لكن فيلبي، بعد ذلك بسنوات في موسكو، أراد أن يوهمهم بأنه احترف الصحافة كغطاء لإخفاء نشاطاته "كعميل لمركز المخابرات التجسسية SIS (الذي سلف MI-5) في بيروت".

وكما كانت العادة المتبعة مع جميع الضباط القدماء العاملين في SIS مركز الأنتلِّجنس سرفيس، فقد دعوه للبقاء على اتصال "بالبيت"، ولكن، بناء على ثرثرة بعض الأصدقاء فقد علم أن دخوله إلى المخابرات في SIS محظور عليه حظرًا تامًا، بالإضافة إلى أن مدير ذلك الفرع في الوقت الذي عاش فيه فيلبي في لبنان، السير ديك وايت كان من ألد أعدائه.

كان السير وايت مديرًا عامًا قديمًا في MI-5، ونظرًا لوجوده في ذلك المركز فقد كان مقتنعًا تمام الاقتناع بإدانة فيلبي منذ أربع سنوات.

جدير بالذكر أن إعادة فتح ملف فيلبي في لندن، بعد ترك أناتولي غوليتسين في سنة ١٩٥١، قد أثبت وجود شهود على الجواسيس الخمسة العظام.

لذلك، فإن إيوري مودين الذي غادر العاصمة البريطانية عام ١٩٥٨، توجه إلى بيروت ليخبر فيلبي بعدم الرجوع إلى انكلترا وبالتفكير باللجوء إلى موسكو.

ويعود الفضل في كشف خيانته التي لا تدحض، إلى إحدى صديقاته القديمات، قبل الحرب. ففي عام: ١٩٦٢، اعترفت فلورا سولومون بالفعل ـ ولكن بعد فوات الأوان ـ بأنه قام بأكثر من محاولة لجعلها من الأعضاء العاملين إلى جانبه. ومن البديهي القول إن مركز الأنتلجنس سيرفيس SIS، كان يريد اعترافًا كاملاً من

العميل السوفياتي، لأن عدم وجود ذلك الاعتراف كبرهان ضروري على خيانته كان سيجعل محاكمته عقيمة.

وكان المسؤولون في مركز التجسس SIS متأكدين من أن محاولة إعادته إلى لندن سوف تدفعه - على عكس ما يبغون - للسفر الفوري إلى الاتحاد السوفياتي، فلذلك، قرروا مجابهته والتصدي له في بيروت.

كان فيلبي متعبًا جدًا من الناحية النفسية، حتى كاد يصل إلى حافة الانهيار في السنتين الأخيرتين من إقامته في العاصمة اللبنانية، وكثيرًا ما كان يغرق في الكحول هربًا من الكآبة، التي كانت تنتابه.

وكثيرًا ما شاهده أصدقاؤه هناك غائبًا عن الوعي، في السهرات التي كان يعب فيها الشراب بشكل جنوني؛ فكانوا يضعونه في أول تاكسي يصادفهم ليوصلوه إلى البيت.

وحكت زوجته الثالثة، إليانور، أن الكوابيس كانت تنتابه ليلاً.. وأنه كان يستيقظ فجأة فيصرخ ويقول أشياء غير مترابطة ببعضها البعض.

بالإضافة إلى كل ما تقدم فإنّ نيقولا إليوت، أحد أصدقاء فيلبي القدامى في الأنتلجنس سيرفيس، والرئيس السابق للمركز في لبنان، جاء لزيارته في بيروت عام ١٩٦٣؛ فوجده معصوب الرأس برباط: كان العميل السوفياتي مخمورًا، عندما وقع على رادياتور.. وجرح. فالتفت إليه إليوت قائلاً: "لقد دوختني لِعِدَّةِ سنوات.. أما الآن، فإنني سأنتزع الحقيقة منك حتى لو اضطررت إلى استعمال القوة معك! لقد احترمتك وبجلتك كثيرًا في الماضي.. ولكن، يا إلهي! كم أنني أحتقرك اليوم! وأعتقد أنه لا يزال لديك بقية من أدب ولياقة، لكي تدرك السبب".

واعترف فيلبي...

اعترف في النهاية قائلاً له إنه كان عميلاً سوفياتيًا وأخبره عن مهنته السابقة. وعرض عليه إليوت الإعفاء عنه، وحصانته مقابل الحصول على اعترافات كاملة. لكن فيلبي تردد عدة أيام عن الإدلاء بما لديه.. ثم اختفى!.

ما كاد يصل إلى موسكو طالبًا اللجوء إليها، حتّى اخترع قصة أثارت فضول الصحافيين الغربيين وأدهشتهم؛ إذ قال: إن الهدف من مهمة إليوت لم يكن الحصول على اعتراف كما ادعى.. بل دفعه للمغادرة حتى لا يسبب الإزعاج "للوايت هول" مدة أطول...

يُذكر أنه بين استدعائه إلى واشنطن، وسقوطه، مرت اثنتا عشرة سنة ـ لم تكن ذات أهمية كبرى بالنسبة لعميل سوفياتي متغلغل في الداخل.

أما أضخم الأعمال الباهرة للخمسة المعروفين باسم (العظماء الخمسة Magnificent Five) فقد انتهت في عام ١٩٥١ مع هرب بيرغيس وماكلين، واكتشاف كيرنكروس، وطرد فيلبي من مركز التجسس البريطاني في SIS.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن KGB كان يعتمد في الخمسينات على جاسوس آخر في SIS هو جورج بليك، الذي عاد في العام ١٩٥٣ من معتقل للسجناء في كوريا الشمالية واستلم عمله من جديد في لك المركز.

وكان يوري مودين أول مفتش راقبه، وعمل جورج تحت إشرافه منفذًا أوامره بحذافيرها، ثم، بعد رحيله إلى لندن، انتقل للعمل مع سيرجي الكسندروفيتش كوندراتشيف. ويبدو أن مودين قام بدراسة ملف بليك في عام (١٩٥٥)... أما أول عملية كبرى شارك فيها بليك فقد حملت الاسم الاصطلاحي "Operation Gold"، أي

"عملية الذهب" وكانت هذه العملية الفَلَقَة الثانية للعملية الأولى، "Operation Silver"، أي "عملية الفضة" التي أدَّت إلى وضع خطوط هاتفية سوفياتية في فيينا على طاولات تنصت.

كانت "عملية الذهب" تعني نَفَقًا تحت برلين الشرقية يصل طوله إلى ٥٠٠ متر، وذلك ليتفرع على خطوط المواصلات الموجودة تحت الأرض انطلاقًا من المشبك الحربي السوفياتي في كارلزهورت، الذي كان يضم أيضًا QG (المركز الرئاسي للمخابرات).

وبحثت التفصيل في لندن عام ١٩٥٤، خلال اجتماع موسع حضره أعضاء SIS وCIA، (المخابرات البريطانية، والمخابرات الأميركية)، وترأسه جورج يونغ، المدير المساعد في دائرة التجسس والمخابرات السرية في بريطانيا العظمى.

أما الفريق الأميركي فكان بقيادة بيل هارفي، مدير مركز وكالة التجسس المركزية للأمم المتحدة، في برلين، وقد وافق على تغطية النفقات وتأمين أكبر قدر من اللوجستيكية، وتكليف البريطانيين بحفر النفق.

وبما أنه كان أصغر الضباط الموجودين في الاجتماع، فقد تلقى بليك الأمر بوضع الوثائق في مكان أمين في نهاية المناقشات.

وبدأ العمل في النفق، وفي ١٩٥٥، وتحديدًا في شهر حزيران - يونيو، كان النفق جاهزًا. (راجع الجزء التالي من هذه الموسوعة)

وحينما اكتشفت دوائر أمن الدولة (KGB)، "بالصدفة" النفق المشيد تحت الأرض، في شهر نيسان - إبريل من عام ١٩٥٦، فإن مجموعة المعلومات والاستخبارات التي جمعتها كانت هائلة جدًا استغرقت سنتين في معالجتها.

وأوضحت إحدى الرسائل وجود عميل سوفياتي في قلب المخابرات البريطانية في برلين، غير أنهم لم يكتشفوا هوية بليك إلا في العام ١٩٦١.

تجدر الإشارة إلى أن بليك، في غضون السنين الأربع التي قضاها في برلين، "سلّم" عدة عملاء بريطانيين وأميركيين، من بينهم جنرال الفرقة العسكرية، روبيرت بيالياك، في دائرة أمن الدولة (SSD) في (RDA) (جمهورية ألمانيا الديمقراطية) الذي كان قد ارتد في العام ١٩٥٣، وكان يعيش في برلين الغربية تحت اسم مستعار.

ذات أمسية من شهر شباط ـ فبراير ١٩٥٦، وفيما هو يتنزه مع كلبه، هوجم بعنف ثم وضع قسرًا في سيارة، وأعيد إلى المركز الرئاسي في (SSD) دائرة أمن الدولة، في برلين الشرقية حيث نفذ فيه حكم الإعدام.

ولم يكتفِ بليك بما فعل، بل إنه خان أيضًا الليوتنان ـ كولونيل في "GRU" (الوكالة السوفياتية للاستخبارات الحربية)، بيوتر بوبوف الذي أصبح في عام ١٩٥٣ أهم جاسوس من CIA في خدمة المخابرات السوفياتية. وألقي القبض على بوبوف إذ أوقفته دوائر KGB في عام ١٩٥٩، بعد عدة أشهر من رجوع بليك إلى لندن، وجرت محاكمته السرية عام ١٩٦٣ في الصالة الكبرى المخصصة للضباط في مركز أمن الدولة. واستعرضت جميع الاعترافات بما فيها اعترافات بوبوف قبل افتتاح جلسة المحاكمة، واستمرت المناقشة واستعراض الاتهامات مدة ساعتين، ثم ما لبث بوبوف أن انتقل بعدها إلى منصّه خاصة لينفّذ فيه حكم الإعدام.

لعل أبرز ما حدث في عام ١٩٥٦، أن نيقولاي بوريسوفيتش رودين، قد رجع إلى لندن خلال الصيف، لتولي إدارة KGB هناك للمرة الثانية، تحت الاسم المستعار "كوروفين"، حيث أنيطت به مهمة الاتصال ببليك، الذي كان سيلتقيه في هولندا لأن الإنكليزي كان يستطيع التردد إليها بحجة رؤية بعض أهله فيها.

كان المركز في لندن يضم ٦٠ ضابطًا، كانوا يعملون في ظروف سيئة للغاية. لكن رودين الذي رجع إلى لندن وهو يحمل رتبة جنرال ـ وكان ذلك شيئًا نادرًا في تلك المرحلة في PDG (مركز التجسس في دائرة أمن الدولة)، كان يسيء معاملة مرؤوسيه ويتعالى عليهم، بعكس ما كانت عليه معاملته في الماضي، مما جعله غير محبوب لديهم، حتى أن بعضهم استاء منه استياءًا أسطوريًا.

وبينما كان السفير يصل إلى مكتبه في الساعة ٨:٣٠ تمامًا، فلم يكن يأتي إلا قبل ساعة الغداء في سيارة يقودها سائق من المركز.

وكان يحتل في السفارة مكتبًا فسيحًا مجهزًا بجهاز تبريد، وتحت تصرفه حاشية من المتملقين المستعدين لتنفيذ جميع رغباته.

أما الضباط الشبان الذين كانوا يتلقون منه الأوامر، ويعملون تحت إشرافه، فكان يعاملهم بعنجهية تعسفية مستبدة.

ولأجل ذلك، تخاصم معه يوري مودين، الذي كان نائبًا مساعدًا ورئيسًا لفرع PR (الاستخبارات السياسية)، والذي اشتهر عنه كونه الضابط المتعامل مع "الخمسة العظماء"، وعملاء غيرهم من مجموعة جورج بليك.

واضطرت موسكو لطلبه للمثول أمامها، بعد تلك المشاجرة الحامية بينه وبين مودين، وظل يحمل في نفسه حقدًا كبيرًا، وكراهية شخصية لمودين حتى أوائل الثمانينات.

جدير بالذكر أنه في غضون محاضراته في معهد أندريوف، كثيرًا ما كان يذكر موقف خصمه كمثل، مما لا يجب تقليده واتباعه إذا ما أراد المسؤول إدارة مركزه بشكل فعال وناجح.

لكن هذا لم يمنع رودين من أن يكون ضابط ارتباط يعرف مهنته تمامًا، فقد كان يدير جاسوسًا لمدة أربع سنوات جعله يتغلغل داخل القيادة البحرية تحت اسم جون فاسال.

وكان فاسال المثل الكلاسيكي الصارخ للموظف المغرور المتكبر، والذي لا يملك الإدارة القوية، ولكنه يتوصل إلى المعلومات ذات المستوى العالي.

وتساءل في مذكراته مندهشًا كيف أن دائرة أمن الدولة ألقته في عام ١٩٥٤ بمكتب الملحق البحري البريطاني في موسكو؛ وكان معروفًا عنه الشذوذ الجنسي.

وبعد انقضاء عام، جعلته دائرة أمن الدولة في KGB يغني بعد أن صورته خلال سهرة للشاذين جنسيًا، نظمها المكتب الثاني العام: "في وقت محدد، جعلوني أرى تلك الصور التي التقطت لي أثناء السهرة... وعندما رأيت الصورة الثالثة لم أعد أستطيع التحمل أكثر من ذلك، لقد جعلوني أشعر بالمرض! إذ كنت هناك، أنعم بجميع أنواع اللذة الجنسية، في جميع الوضعيّات... وبمختلف الطرق، مع عدة شركاء".

وقبل عودته إلى انكلترا، بفترة وجيزة في عام ١٩٥٧، سلمته دائرة أمن الدولة في KGB جهاز Minox صغيرًا جدًا يستطيع إخفاءه داخل علبة سجائره، وأرشدته إلى طريقة استعماله.

وطار رودين إلى موسكو حيث التقى فاسال تحت الاسم المستعار "غريغوري" واتفق معه على موعد في لندن، في محطة مترو في شارع فينشي رود. وقد تأثر رودين "بشخصيته القوية وخبرته": "شيء واحد صدمه (أو على الأقل جعلني أعتقد ذلك)، أن لا تتصف نشاطاتنا بعملية تجسس... ثم أفهمني جيدًا أن كل معلومة أنقلها إليه إنما ستخدم قضية السلام وأن ليس ثمة أي ضررًا أو إساءة، في ما أفعله".

والتحق فاسال في لندن بقسم المخابرات البحرية في وزارة الحربية وبالدائرة العسكرية للقيادة البحرية.

واستطاع في غضون أربعة أعوام أن يحصل على آلاف الوثائق والأوراق - التي كانت "غاية في السرية" - المتعلقة بالأهداف البحرية في بريطانيا العظمى الـ OTAN (حلف شمال الأطلسي)، وبتطور أسلحتها، وسلمها إلى رودين.

وبالرغم من الاحتقار الذي كان يكنّه رودين لعميله، فإنه كان يقوم بمجهود كبير ليبدو "لطيفًا لائقًا معه". وكتب فاسال في مذكراته بكثير من السذاجة وحسن النية: "كان رجلاً في منتهى التهذيب، وكان يدرك ويحترم مشاعري، وكانت لدينا أشياء كثيرة مشتركة، وكنا نتناقش ونتحدث في الرحلات، والرسم، والموسيقى والطبيعة الإنسانية".

ويبدو أن رودين تمكن من إقناعه بأنه يشعر بالسرور في "أحاديثهما المفيدة"، التي كثيرًا ما كانا يجريانها في المطاعم الفخمة، وقد سعى ليجعله يعيش مستقلاً ماديًا. وذلك بتأمين المال الضروري بخاصة وأن الشقة الفخمة التي كان يقطنها في ساحة دولفين سكوير، كانت أجرتها تفوق قدراته المادية.

فجأة، غادر رودين لندن عندما وصلت معلومات حملها البولوني ميكيل غولينسكي إلى دوائر SIS و MI-5 في مركز التجسس البريطاني سمحت بكشف عملية جورج بليك. ففي نيسان - إبريل ١٩٦١، كان هذا الأخير يتابع دروسًا في العربية في لبنان حينما استدعته لندن بواسطة SIS ثم ألقت عليه القبض. أما رودين فلم يرجع أبدًا.

وصدر الحكم على بليك بالسجن ٤٢ سنة، غير أنه بعد قضائه ستة أعوام في السجن، "أخلي سبيله" نظرًا للجهود التي بذلها أحد واضعي القنابل في IRA، (الجيش الجمهوري الإيرلندي)، وبواسطة اثنين من المجاهدين ضد الأسلحة النووية.

واكتشف أمر فاسال في عام ١٩٦٢، فحكم عليه بعقوبة ثماني عشرة سنة ـ لكنه لم يقض منها في السجن سوى عشر سنوات فقط.

لكن دائرة الأمن البريطاني MI-5 اكتشفت في شقته جهاز "براكتينا" صغيرًا لتصوير المستندات، وجهاز "مينوكس" وكليشيهات ١٧٦ وثيقة سرية في أفلام ٣٥ ملليمتر مخبأة في قعر درج سري.

صادفت عودة رودين للقيام بمهام منصبه في إدارة مركز لندن، للمرة الثانية مع وجود أحد العاملين الأكثر مهارة وذكاء، في انكلترا، كونون تروفيموفيتش مولودي الذي كان يعمل مستقلاً عن المركز الشرعي لدائرة KGB.

ولد مولودي في موسكو عام ١٩٢٢؛ كان أبوه عالمًا كبيرًا، وما كاد يبلغ السابعة من عمره حتى أرسلته أمه ليعيش مع خالته في بيركلي، في كاليفورنيا، حيث ذهب إلى المدرسة هناك.

لكنه في عام ١٩٣٨، آثر العودة إلى الاتحاد السوفياتي، وعندما نشبت الحرب، التحق بدائرة NKVD (كوميساريا الشعب في الداخل التابعة لأمن الدولة)، قبل إنشاء MVD (وزارة الداخلية السوفياتية). وفي عام ١٩٥٤، دخل إلى كندا بواسطة جواز سفر مزور، ثم حصل بعد ذلك على وثيقة ولادة خاصة بأحد الكنديين المتوفين: غوردون أرنولد لونزدال، وانتحل هويته.

وسافر إلى لندن سنة ١٩٥٥، حيث تسجل في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية (SOAS)، لكي يتسنى له تعلم اللغة الصينية فيها.

وبفضل الأموال التي كانت تؤمنها له دائرة KGB عمل كمدير لعدة مؤسسات "للجوك ـ بوكس" وماكينات توزيع أوتوماتيكية، وماكينات الدراهم.

ذات يوم، بعد مرور تسع سنوات، شرح لغورديفسكي في موسكو، أن دروس اللغة الصينية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية لم تتطلب منه جهودًا كبيرة بخاصة وأنه كان يتكلمها بطلاقة ، وبطبيعة الحال، فإن أساتذته وزملاءه في الدارسة كانوا يجهلون من يكون.

غني عن القول أن كثيرين من الطلاب كانوا من ضباط المخابرات الغربيين الذين أراد مولودي عقد روابط صداقة معهم. وكان يحب دائمًا أن يذكر، بعد ذلك بسنوات، في المركز، أن أحد رفقاء الصف قال له يومًا: "غوردون، ينبغي ألا نكون، أنت وأنا من الجواسيس!".

يُذكر أنه بالإضافة إلى نجاحه الكبير في الأعمال التجارية، فإن مولودي لم يكن فخورًا بها: لقد عرض ذات يوم أمام غورديفسكي صورة فوتوغرافية لجهاز إليكتروني أنتجته إحدى مؤسساته وحصلت بالتالي على الميدالية الذهبية في عام ١٩٦٠ في المعرض الدولي في بروكسيل.

ولم يكتفِ بتمويل نشاطاته التجسسية بنفسه، ولكنه كان يساعد الأعضاء العاملين في KGB، فيوزع عليهم المبالغ الطائلة. كما كان يجزل العطاء لعملائه. وقد أخبر فيما بعد أحد الصحافيين السوفيات: "دعني أذكرك بأن جميع المداخيل والفوائد التي كانت تجنيها مؤسساتي الأربع (كان مدخولها ملايين الجنيهات الإسترلينية)، التي كانت تتزايد سنة بعد سنة دون أيّ مساعدة شخصية مني، كانت "أملاكًا اشتراكية".

ولم يخفِ مولودي أنه كان يعامل عملاءه البريطانيين بتهكم وفظاظة؛ إذ إن هذا الموقف كان سائدًا لديه وكان يناظر في KGB خلال الحرب الباردة: "عندما كان المدير، المعروف "لا الرئيس"، يتخذ عميلاً جديدًا، أو مساعدًا، كان يعمل ما في استطاعته ليشعره بأنه لا يدخله لدائرته كأحد الأعضاء العاملين، ولكنه يشتري منه

المعلومات التي يكون بحاجة إليها... غير أنــه لا يكـاد أن يغـرس أظـافره فـي العميـل، حتى لا يستطيع هذا الأخير الإفلات منه".

إن مواصفات العميل الجيد هي المواصفات الأساسية التاليــة: "إنـه يعمـل مثـلاً فـي دائرة حربية، ويحتل مركزًا عاديًـا أو وسطًا، ولكنـه استراتيجي يمكنـه مـن الحصـول على المعلومات؛ وهذا يعنـي أنـه لـن يطمـح فـي الترقيـة؛ ويحـدّث الجميـع بفشله فـي الوصول إلى درجة أعلى في العمل (المشاكل الصحيّة مثلاً منعته من إتمام دراسته فـي المدرسة الحربية)؛ إنــه يشـرب (وهـذه العـادة تكلفـه بـالطبع غاليًـا)؛ إنـه ضعيف أمـام الجنس اللطيف (الذي يكلفه الأموال الكثيرة)؛ إنه ينتقد حكومته ولكنه مخلص لحكومـة ضابط الارتباط الذي يتعامل معه".

وكان مولودي يتمنى لـو أن العمـلاء كـانوا يتمتعـون "بقواعـد إيديولوجيـة صلبـة". "ولكن، للأسف! فإن جواسيس ذوي اقتناع من طـراز "الخمسـة العظمـاء Magnificent Five" وجورج بليك أصبحوا "نوعية نادرة الوجود" في انكلترا ما بعد الحـرب".

"فالإنكليزي المتوسط لا يكترث للسياسة ولا يبالي بمعرفة من الذي يحكمه، أو أيـن يذهب البلد، أو إذا كانت السوق المشتركة جيدة أم رديئة؛ إن كل ما يهمه هو عمله، ثـم راتبه وسعادة زوجته".

وكان ميلودي يبدو جافًا ومتهكمًا مع العملاء "غير الشـرعيين" الذيـن يبحثـون عـن ارتباط عاطفي وليس عن علاقات عابرة.

"إن ضابط المخابرات لا يعرف كيف يتدبر أمـوره بـدون امـرأة، ولكنـه سيكتشـف بأنه لن يستطيع تدبر تلك الأمور مـع امـرأة واحـدة ... لذلـك، فـإن أحـد زملائـي ذكـر باهتمام بارز وصول الشابات الفرنسيات إلـى انكلـترا بحجـة إتقـان اللغـة الإنكليزيـة...

كان من الطبيعي أن لا تطول مدة إقامة الحسناوات الفرنسيات في البلد، ولكن زميلي بعد التعرف إليهن، قضى معهن ثلاثة أشهر، ثم انتهت المغامرة بعد ذلك بعبارة: إلى اللقاء سيدتي الجميلة!، وإلى اللقاء، يا سيدي اللطيف! وعادت الفرنسيات بعد أن حملت إحداهن معطفًا من الفراء، وحصلت الثانية على خاتم صغير".

كان سلوك مولودي بهذا الخصوص سلوكًا ممتازًا بالنسبة لما كان منتشرًا في دائرة KGB خلال - وبعد - عهد سيروف.

كان من الضروري أن يعمد المدير في المركز إلى معارضة اشتغال النساء بعمليات تجسس، ولكنه كان يطلبهن للمغامرات الجنسية، أويوظفهن لأجل اجتذاب عناصر نسائية أخرى.

وكان معروفًا عنه أنه يكره ويعارض وجود ضباط مكتب من الجنس النسائي، بالرغم من السمعة الكبيرة التي حصلت عليها ريبكينا وزميلاتها في أول مديرية لأمن الدولة في KGB.

لذلك، فقد منع سيروف منعًا باتًا استخدام النساء في العمليات، وظلت تلك العادة تقليدًا ساري المفعول حتى مجيء غورباتشيف.

ولعل ما يجدر التنويه به أن مولودي، مثل العديدين من زملائه كان يتعالى على اليهود ويضطهدهم. وبعد رجوعه إلى موسكو في عام ١٩٦٤ بقليل، أمَّن له غورديفسكي (الذي كان مسؤولاً عن تنظيم أحداث ثقافية في المديرية S، المخصصة لغير الشرعيين) بطاقات دخول إلى المسرح الفولكلوري "روناني" في موسكو.

والتقى مولودي به بعد عدة أيام في أوراقة المركز. فسأله بلهجة لا تخلو من الضيق: "ماذا فعلت بي؟ قلت لي بأني سأشاهد جماعة من الغَجَرِ، ولكنهم يهود!".

إن ما يدهش في القصة أن مولـودي قد استفاد خـلال مـدة إقامتـه فـي لنـدن التـي استغرقت ست سنوات، من الدعم التقني من زوجين يهوديين أمـيركيين همـا: موريـس ولونا كوهين، المعروفين باسم بيتر وهيلين كروغر.

كان الزوجان عضوين في شبكة روزنبرغ في الولايات المتحـدة، ثـم أصبحـا فيمـا بعد من أشهر أصحاب المكتبات التي تبيع الكتب النادرة في انكلترا.

وعندما قامت دائرة MI-5 (الأمن البريطاني)، والفرع الخاص (Special Branch) بجولة في بيتهما في "رويزليب" في ضاحية لنـدن، فـي عـام ١٩٦١، اكتشـفت الدوريـة المكلفة بالتفتيش وجود جهاز إرسال في منتهى القوة بحيث يصل بسهولة إلى موسـكو، وجهازًا آخر بموجات قصـيرة لتضليل رسـائل المركـز علـى الذبذبـات العاليـة، وكـان الجهازان مخبأين في تجويف محفور في أرض المطبخ؛ كما وجد أفرادها خلال البحث بعض شبكات الأرقام القديمة المخبأة داخل فـلاش آلـة تصويـر، وجهـاز ميكـرو داخـل وعـاء ملـيء ببـودرة الأرز، كمـا وجـدوا أيضًـا معـدات كاملـة تصلـح لصناعـة "الميكروبوان"، ووعاء للمطبخ يحتوي على أوكسيد الحديد الممغنط لطباعة الرسـائل بطريقة مورس بسرعة قصـوى علـى أشرطة تسجيل، وآلاف الجنيهـات الإسترلينية، ودولارات وشيكات سياحية، و٧ جوازات سفر.

تجدر الإشـارة إلـى أنـه مـن بيـن شـبكة العمـلاء البريطـانيين الذيـن كـان يديرهـم مولودي بمساعدة الكوهينَين التقنية، فإن هوتون هيوتون وعشـيقته إيثـل جـي الوحيـدان اللذان حكم عليهما. وكان هوتون (المعروف باسم الكـود "شـاه") صـورة طبـق الأصـل للجاسوس البريطـاني الـذي وصفـه مولـودي. كـان يشـتغل فـي الترسـانة البحريـة للغواصـات، فـي بورتلانـد فـي دورسـيت، حيـث اسـتطاع الحصـول بسـهولة علـى المعلومات السرية جدًا، المتعلقة بالصراع المحتدم في أعماق البحر، لقاتلة الغواصـات،

والغواصات النووية. ولا شك في أن "ميكال غولينوسكي" جاسوس الـ CIA في قلب دوائر الأمن البولونية، ذو فضل عظيم على MI-5، إذ جعلهم يكتشفون مولودي في النهاية، بعد أن مهد إلى ذلك بالتوصل إلى هوتون.

لا ريب في أن مولودي قد غدر بهوتون، هذا ما أكده هوتون نفسه في المذكرات التي كتبها بعد عشر سنوات من خروجه من السجن شارحًا الأسلوب الذي تعامل به معه للإيقاع به.

كان ضابط الارتباط يعامل العملاء الجواسيس لديه كأشخاص محتقرين، بينما كان الإنكليزي واثقًا من أن "روابط صداقة عميقة" توطدت بينهما منذ لقائهما الأول.

وبالرغم من تأنيب الضمير الذي كان ينتابه لأنه صار جاسوسًا، فقد اعترف بأن مغامرته، التي اضطر للقيام بها في البداية تحت تأثير الضغط، قد تبدلت تدريجيًا بفضل رعاية مولودي واهتمامه، وتحولت إلى نشاط مريح جدًا: "كان ثمة صحبة حقيقية بيننا".

علاوة على ذلك، وبالرغم من عشيقاته العديدات ونشاطه الجنسي الكبير، فقد استطاع مولودي إقناعه بأن "أيّ علاقة مع هذه أو تلك هي خارج إطار المسألة".

ومجمل القول إن المحاكمة التي جرت في عام ١٩٦١، قد قضت بسجن مولودي لمدة خمسة وعشرين عامًا، والكوهينَيْن عشرين عامًا، أما هيوتون وجي، فقد حكم على كل منهما بالسجن خمس عشرة سنة.

وأفرج عن مولودي إبان تبادل الجواسيس في ١٩٦٤، بيد أن دائرة KGB لم تسع جديًا إلى تحرير الآخرين، بخاصة وأن بعض عملاء الشبكة لم يلق عليهم القبض مطلقًا.

ويدعى مولودي في مذكراته - وهذه هي الحقيقة فعلاً - أنه جمع أيضًا معلومات حصل عليها من داخل دائرة الأبحاث الميكروبيولوجية في بورتون داون - "مركز الحرب البكتريولوجية" كما كان يسميها.

كتبت تلك المعلومات بمساعدة فيلبي ثم نشرت برعاية الدائرة A - دائرة "الإجراءات والتدابير الفعالة" في PDG - التي ادعت بأن مهمته الرئيسة في مركز الأبحاث Microbiological Research Establishment، في بورتون داون؛ كانت تتضمن تجربة المشاريع المجنونة لدى نازي متفهم، أو بالأحرى مجرم حرب؛ الذي خطرت في باله فكرة نشر فيروس جديد في المملكة المتحدة، بشرط أن يضع فيها اللوم على KGB.

"هل كان ثمة ما هو أفضل من إحباط مشاريع القتل الذي يقوم به المهووسون والمعتوهون حينما يضعون سمومًا وجراثيم مميتة همها الوحيد إلغاء الأرواح البشرية؟".

إن أهمية الدور الذي لعبه مولودي ظهرت حينما علقت صورته على جدار صالة الذكرى في البانتيون مع عشرين بطلاً من أبطال المخابرات، علمًا بأنه كان الوحيد، غير الشرعي في عهد وجود غورديفسكي في ما بعد الحرب.

والجدير بالذكر أنه مات في عام ١٩٧٠ عن عمر يناهز الثامنة والأربعين فقط، بعد حفلة شراب طويلة تحت أشعة الشمس المحرقة إبان قيامه بنزهة.

وعرض جثمانه بعد الوفاة، في صالة الضباط في KGB؛ وفوق وسائد مخملية كانت تتلألأ الميداليات العديدة التي نالها، وقد حضر رئيس المركز، يوري أندروبوف بنفسه إلى المكان للإعراب عن تقديره واحترامه للراحل.

كانت شهرة مولودي قد اثارت بعض الغيرة لدى زملائه. جدير بالذكر أن أحد مواطنيه الذي عمل مدة خمس عشر سنة، وفي منتهى السرية والخفاء في ألمانيا الفيدرالية، قال ذات يوم لغورديفسكي، بشيء من المرارة: "لقد فشل مولودي! لأنه قام بتأدية عملياته بتقطع، وقد كلفنا كثيرًا إخراجه من السجن. إنني عملت في خدمتكم خمسة عشر عامًا، بيد أن أحدًا لم يسمع عني شيئًا![1]".

---

١ ـ أندرو ورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتية، ص٤٨٣ ـ ٤٩٦

مُوسكُو وعدوُّها الرّئيسيّ

في غضون صيف ١٩٥٨، تعرض سيروف الذي ضرب الرقم القياسي بطول مدة رئاسته لدائرة مجلس أمن الدولة KGB ، تعرض لهجومات شابين تركيين طموحين كان خروتشيف يصغي إليهما: ألكسندر نيقولافيتش شيلبين، السكرتير الأول للمجلس المركزي في الكومسومول، الذي جنَّد عدة مئات من ألوف الشباب السوفيات، لأجل العمل في برنامج الأراضي البور الذي حدده السكرتير العام؛ ونيقولاي رومانوفيتش ميرونوف، رئيس دائرة مجلس أمن الدولة في لينيغراد.

واستطاع الاثنان التأثير كثيرًا على الرئيس السوفياتي بمشروعهما الذي خططا فيه لتجديد مجلس أمن الدولة؛ لقد أرادا منح أعضاء المجلس ليونة أكبر وتأثيرًا وفعالية أقوى.

وقد كافأهما خروتشيف بأن عهد إليهما بمراكز على مستوى عال في جهاز المجلس المركزي.

ونظرًا للسمعة التي لحقت بسيروف "كجزار"، فقد أثرت علاقاته على الصعيد الديبلوماسي بها، وأصبحت تشكل له مضايقات كثيرة.

وحينما ذهب إلى لندن للأطلاع على التدابير الأمنية واتخاذ الإجراءات الضرورية قبل زيارة خروتشيف وبولغانين التي كانت مقررة في ربيع عام ١٩٥٦، انطلقت صيحات الاستنكار في الصحافة، فاضطر للعودة بسرعة.

وجاءت الشائعات والأقاويل التي سرت عن الدور الذي لعبه في تحطيم الثورة الهنغارية، في ما بعد، تؤكد سمعته كرمز حي لانهيار الستالينية بالنسبة للرأي العام الغربي.

وكان واضحًا أن دائرة مجلس أمن الدولة لو أرادت أن تحصل على صورة أفضل وأكثر مناسبة لها، كان عليها تغيير زعيمها.

في خريف ١٩٥٨، ناقش مجلس الرئاسة الانتقادات التي كان قد واجهها شيليبين والتي كان قد دبّجها سيروف في تقرير أخير له عن عمل مجلس أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي وفي الخارج.

وقدر شيليبين الأعضاء العاملين في أمن الدولة وأثنى على كفاحهم ضد "أعداء الشعب"، وعلى اختراقهم أسرار القوى الامبريالية.

ولكن دورهم، كما شرح، قد أضحى سلبيًا جدًا، إذ لم يفعلوا شيئًا للقتال ضد الغرب استراتيجيًا أو إيديولوجيًا.

وساند الرئيس شيليبين ووفّق في صفه. وعُيّن هذا الأخير، رئيسًا لدائرة مجلس أمن الدولة، في شهر كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٥٨؛ أما سيروف، فلم يطرد، ولكنه اعترافًا بخدماته السابقة، نقل من مركزه، إلى مركز أقل شأنًا من السابق، حيث استلم رئاسة "الوكالة السوفياتية للاستخبارات الحربية GRU".

وكان شيلبين مثل بيريا الذي سبقه، وأندروبوف الذي خلفه فيما بعد، يأمل في تحقيق أهداف وطموحات أعلى مستوى من رئاسة الـ KGB.

زد على ذلك أنه عندما كان لا يزال طالبًا في العشرين من عمره، سئل ذات مرة ماذا يريد أن يصبح في المستقبل.

وبناء على أقوال المؤرخ السوفياتي روي ميدفِف، أجاب فورًا: "رئيس!".

وكان شيلبين يعتبر مجلس أمن الدولة جسر عبور للوصول إلى مركز لائق به يقوده إلى منصب السكرتير العام للحزب.

وغادر مركزه كرئيس لمجلس أمن الدولة، في شهر كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٦١، بيد أنه ظل يشرف عليه كرئيس لمجلس المراقبة القوي في الحزب وفي الدولة.

وأصبح فلاديمير إيفيموفيتش سميتشسني الرئيس الجديد لمجلس أمن الدولة، وكان في السابعة والثلاثين من عمره ومحسوبًا على شيليبين، إذ كان يعمل تحت إشرافه.

تميزت بداية حكم شيلبين بتغيير مفاجئ في طريقة القيادة. وقد لاحظ أحد ضباط الاستعلامات الغربية، المسؤول عن تحليل الرسائل الهاتفية المسجلة لدائرة مجلس أمن الدولة، أن فعل "تفرض" الذي كان يستعمل حتى ذلك الوقت لنقل أوامر الرئيس قد ألغي ليحل محله فعل "تطلب": واكتشف هذا الضابط نفسه، بعد فترة قصيرة، أن شيلبين قد حل مكان سيروف.

وصارت مجموعة الجيل الجديد من الجامعيين، وأصحاب الشهادات الجامعية، الذين كان بعضهم تحت حماية شيلبين في الكومسومول؛ تُستَبعَدُ من القيادة الشائخة. وهذا التغيير في الموظفين كان صاعقًا في الدائرة الثانية (لمكافحة ـ التجسس) التي، كانت تبدو تعيسة إلى جانب الدائرة الأولى.

تجدر الإشارة إلى أنه خلال المرحلة التي كان يوري نوسنكو يعمل فيها في الإدارة الأولى من الدائرة الثانية، من عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٥٥، اثنان فقط من ستين ضابطًا كانوا يملكون دبلومًا جامعيًا؛ كما أن بعضهم لم يكونوا قد أتموا دراساتهم

الثانوية، وقليلاً منهم كانوا يتكلمون اللغة الإنكليزية. وعندما عاد نوسنكو نفسه، إلىنفس الإدارة في شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٠، كان حوالي ٨٠٪ من الموظفين يحملون درجة جامعية و٧٠٪ كانوا يتكلمون الإنكليزية: وفي نفس الوقت الذي حقن فيه الجهاز القديم بذلك الدم الجديد، حاولوا أن يخلقوا صورة جديدة له.

"وألغيت اغتصابات الشرعية الاشتراكية تمامًا"، كما أكد ذلك شيلبين عام ١٩٦١... و"أصبح بإمكان التشيكيين النظر في عيون الشعب والحزب، وهم مرتاحو الضمير".

وبعد انقضاء عشرين سنة على إهمال دْرزجنسكي، في عهد ستالين، أُعيد إليه الاعتبار والتعلق بعبادة شخصه.

وبات "فليكس الحديدي" نموذجًا لقائد "التشيكا"، ذي الدم البارد، والقلب الحار الذي يحمي الشعب السوفياتي من هجمات وضربات محرضي الحرب الامبرياليين.

ودهش شيلبين للنجاحات العديدة التي حققها وسجلها الاختصاصيون بالتنصت في الدائرة الثامنة العامة، بعد أن تفحص العمليات المنفذة في الخارج، في غضون شتاء عام ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩.

أصبحت تلك النجاحات ممكنة من خلال التسلل إلى داخل السفارات الأجنبية الموجودة في الكتلة السوفياتية وبواسطة تعيين موظفي الشيفرة والديبلوماسيين الأجانب في موسكو وفي خارج الاتحاد السوفياتي، كأعضاء جدد.

وفكر شيلبين أن العمليات التي قامت بها الدائرتان الأولى والثانية، لأجل مساندة وترويض الدائرة الثامنة قد أسيء تنسيقها. لذلك فقد أنشأ "فرعًا خاصًا" داخل الدائرة الأولى العامة، ووضعه تحت إشراف الكسندر ساخاروفسكي، مدير الدائرة، وتحت

مراقبته المباشرة، وذلك حرصًا منه على حسن التنسيق وتحسين العلاقات بين الدوائر الثلاث.

وكان الهدف الرئيسي لهذا "الفرع الخاص"، "العدو الرئيسي" أي الولايات المتحدة، بلا أدنى شك.

وكلف رئيس الفرع الأميركي في الدائرة الثامنة، ألكسندر سيليزنيوف، "الفرع الخاص" بجمع المعلومات عن أنظمة الشيفرة المتناسبة مع السكريبتاناليست.

وكانت خطة ذلك الفرع الدخول إلى "تاشيونال سيكوريتي إيجنسي NSA وكالة الأمن الأميركية الوطنية"، التي كانت أكبر وأغنى دائرة استخبارات، والتي كان مركزها الرئيس في فورت ميد، قرب واشنطن.

وكان كل الأميركيين الذين يشاهدون التلفزيون أو يطالعون الصحف يعرفون بوجود "وكالة التجسس المركزية في الولايات المتحدة CIA"، لكن جزءًا يسيرًا منهم كانوا يعلمون بأن دولتهم تملك مركزًا للتنصت.

وكان كل الذين يعلمون بوجود وكالة الأمن الأميركية للمخابرات في واشنطن يتكلمون عنها وهم يمزحون قائلين بأن "وكالة مثل هذه ليس لها وجود No Such Agency".

تجدر الإشارة إلى أن الاستخبارات السوفياتية كان لها ثلاثةِ عملاء داخل "فورت ميد". وهذا الفوز المميز كان الفضل يعود فيه إلى "الفرع الخاص" وليس إلى الصدفة، أو إلى فشل وكالة الأمن الأميركية الوطنية.

وكان هؤلاء العملاء الثلاثة بمثابة الآذان الصاغية لكل كبيرة وصغيرة تجري هناك.

وفي كانون الثاني - يناير ١٩٥٩، ذهب اثنان من السكريبتاناليست في وكالة الأمن الأميركة إلى كوبا خِلْسةً: بيرنون ف. ميشيل (٣٠ عامًا) ووليام هـ. مارتن (٢٨ عامًا).

وهناك أخضعتهما دائرة الـ KGB إلى عملية استجواب (Debriefing) لأخذ بعض المعلومات الهامة، ثم وضعت أمامهما قائمة ببعض الأسرار التي كانت تهمها.

ومن المدهش فعلاً، أن وكالة الأمن الأميركية قد عينت ميتشيل لديها برغم اعترافه بأنه خلال ست سنوات كانت له "تجارب ..." مع إناث الكلاب والدجاج، حتى بلوغه عامه التاسع عشر.

جدير بالذكر أن التحريات التي أجريت حول مارتن قبل استخدامه في وكالة الأمن الوطنية، أثبتت بعد الاستماع إلى جيرانه والمحيطين به أنه كان شخصًا مخفقًا، وانطواؤه متأصل فيه.

يبدو أن موهبة وامتياز ميشال ومارتن بالرياضيات قد شفعا بهما مقابل انحلال شخصيتيهما، وفي حالة ميتشيل، تكفي تجاربه في مزرعة الدجاج.

في بداية ١٩٥٩، كسرا نظام وكالة الأمن الوطنية عندما قدما شكوى إلى عضو الكونغرس، واين هايز، ضد المهمات الجوية للاستخبارات الإلكترونية التي كانت تنتهك حرمة الفضاء الجوي السوفياتي.

وظن واين، خطأً، أنهما مبعوثان من قبل وكالة الاستخبارات المركزية في الأمم المتحدة ليتفحصا مقدرته على حفظ السر، فلذلك لم يتخذ أي تدبير.

وكان مارتن وميتشيل ساذجين سياسيًا، وغير مقبولين في المجتمع، لذلك سحرتهما الصورة المثالية التي كانت تروجها الدعاية السوفياتية حول الاتحاد السوفياتي، إذ كانت

تظهره كدولة همها الأوحد العمل من أجل السلام، وأنه لا يغامر بانتهاك حرمة الدول الأخرى الجوية، كما أنه كان ينعم بنظام اشتراكي متقدم جدًا، وأنه سيؤمن لهما الكفاية الذاتية التي لم يستطيعا الحصول عليها أو إيجادها في الولايات المتحدة.

وفي ٢٥ حزيران ـ يونيو عام ١٩٦٠، طارا إلى مكسيكو في بداية إجازتهما السنوية التي لم تتعد الأسابيع الثلاثة.

وفي اليوم التالي، سافرا على متن إحدى الطائرات المتوجهة إلى هافانا حيث نقلتهما طائرة نقل سوفياتية إلى الاتحاد السوفياتي. وبهذا الأسلوب تمكنا من الإجابة على أسئلة دائرة أمن الدولة السوفياتية ووضعا الأجوبة بين أيدٍ أمنية.

وبعد ثمانية أيام فقط من نهاية إجازتهما، انطلقت الوكالة الأميركية للبحث عنهما.

واكتشف ضباط وكالة الأمن الوطنية، في بيت ميتشيل، مفتاح صندوق لأحد مصارف ماريلاند، وكان ذلك المفتاح قد ترك خصيصًا لأجل لفت النظر: وذهب الضباط إلى المصرف وفتحوا الصندوق حيث وجدوا مظروفًا مغلقًا قد كتبت عليه بعض الكلمات التي وقعها مارتن وميتشيل، طالبين من خلالها أن محتوى ذلك المظروف يجب أن يلقى اهتمام الرأي العام. وكان يحتوي على إدانة الحكومة الأميركية، "التي لم تكن متحسبة ولا مدققة، بالرغم من اتهامها الاتحاد السوفياتي بذلك"، كما تضمن إطراءً وتقريظًا للمجتمع السوفياتي "حيث كانت مواهب النساء تلقى التشجيع، وتستعمل بشكل أفضل بحيث يستفاد منها إلى أعلى مستوى... أكثر من الولايات المتحدة"، مما جعل من النساء السوفيات "شريكات مرغوبات".

وعقد مارتن وميتشيل في ٦ كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٦٠، في دار الصحافيين في موسكو، مؤتمرًا صحافيًا ربما كان الأكثر إثارة وقلقًا في تاريخ

المخابرات الأميركية. لقد أعلنا بشكل خاص أن وكالة الأمن الوطنية كانت تلاحق الاتصالات والمراسلات الخاصة بحلفاء الأمم المتحدة، وقد ذكر مارتن من بينهم "إيطاليا، وتركيا، وفرنسا، ويوغوسلافيا، والجمهورية العربية المتحدة (مصر ـ سوريا)، وأندونيسيا، والأوروغواي ـ وهذا يكفي بالطبع لإعطاء صورة عامة".

وبالرغم من أنهما لم يذكرا في المؤتمر شيئًا عن الطيران، فقد كانا على علم أكيد بحلقات الطيران التي كانت تقوم بها طائرات "U-2" فوق الأراضي السوفياتية، كما علما أيضًا مسبقًا ـ من الغريب أنهما لم يذكرا شيئًا لدائرة الأمن السوفياتي ـ بالمهمة التي قام بها غاري بورز، الذي هوجمت طائرته في الفضاء الجوي السوفياتي في شهر أيار ـ مايو ١٩٦٠، والتي منحت الدعاية في موسكو فرصة للفوز والانتصار.

كان ثمة عميل سوفياتي آخر، قد يكون أكثر أهمية من مارتن وميتشيل اللذين لم يعرفاه قط، يدعى جاك. إ. دنلاب، وهو سيرجانت في الثانية والثلاثين، من عمره، ظل في مكانه في فورت ميد.

وقد نال دنلاب وسام القلب الأرجواني، والنجمة البرونزية "نظرًا لتمتعه برباطة الجندي في القتال، ولولائه المخلص الذي برهن عنه في غضون خدمته: أثناء الحرب في كوريا. ولكنه كان رجلاً مولعًا بالنساء، وأبًا لسبعة أولاد، وبحاجة ماسة إلى المال.

وفي عام ١٩٥٨، أصبح السائق الخصوصي للجنرال غاريسون ب. كوفردال، رئيس هيئة أركان الحرب في فورت ميد، وكان عمله يقتضي نقل بريد الوثائق السرية للغاية بين مختلف أقسام وكالة الأمن الوطنية NSA وكان مركزه كسائق خاص للجنرال يخوله مغادرة فورت ميد دون أن يخضع للتفتيش، وتلك كانت حالة نادرة في ذلك المكان.

وقد اغتنم ستة علىألأقل من الموظفين في الوكالة الفرصة لكي يخرجوا بواسطته، وبأسلوب الخداع والغش، آلات كاتبة وبعض الأجهزة الخاصة بالمكتب، مما ضاعف أمامه فرصة التسلل والدخول إلى المركز العام في وكالة الأمن الوطنية.

ذات يوم، في الربيع أو في بداية صيف عام ١٩٦٠، قصد دنلاب السفارة السوفياتية في واشنطن، (على الأقل هذا ما اشتبهوا به) حيث قدم وثائق من وكالة الأمن الوطنية مقابل الحصول على المال!.

وابتداءً من تلك اللحظة، بات تقريبًا مراقبًا مراقبة أكيدة من ضابط ارتباط في الوكالة السوفياتية للاستخبارات الحربية.

وكان دنلاب قادرًا على تأمين أعمال التأسيس، وكتب أول موجزات عن التصليح، ونماذج حسابية ومشاريع دراسات لماكنات الشيفرة الأكثر سرية في الولايات المتحدة. كما استطاع أيضًا وضع يده على التقديرات التي اعتمدتها وكالة التجسس المركزية في الولايات المتحدة عن القوات السوفياتية والصواريخ في أوروبا الشرقية، وبشكل خاص في جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

وفي غضون صيف ١٩٦٠، أصبح ثريًا بشكل غريب لم يجدوا له تفسيرًا.

وبالرغم من المرتب الضئيل الذي كان يتقاضاه والذي لم يكن ليزيد على مائة دولار أسبوعيًا، فقد كانت لديه عشيقة بالإضافة إلى عائلته الكثيرة العدد؛ وابتاع سيارة جاكوار، وسيارتي كاديلاك وسفينة صغيرة طولها تسعة أمتار ومجهزة تجهيزًا كاملاً.

وبالرغم من ذلك، فإن ثراءه المفاجئ لم يثر حوله أدنى شك. حتى عندما أرسلت وكالة الأمن الوطنية سيارة إسعاف لتحمله بعد إصابته في سباق للمراكب، واكتفى حينذاك بإعطاء تفسيرات مختلفة جدًا وغامضة.

وفي ربيع ١٩٦٣، لم يعد يستطيع تحمل الضغط الذي نشأ عن الحياة المزدوجة التي كان يحياها.

وفي شهر آذار - مارس، اعترف خلال الاختبارات المتنوعة التي أجريت له، بأنه قد اقترف "اختلاسات صغيرة" وأنه اتبع "سلوكًا غير أخلاقي".

ونقل إلى مركز آخر في فورت ميد بعد شهرين. وفي ٢٢ تموز - يوليو وضع نربيشًا في رأس قسطل مدخنة سيارته. وجعل الطرف الثاني يمر من خلال النافذة الأمامية اليمنى، وأدار المحرك، ثم انتحر مختنقًا.

وبعد انقضاء ثلاثة أيام... أقيمت له جنازة ودفن في المقبرة الوطنية في أرلنغتون بعد أن نال شرف التكريم العسكري. وكان من الممكن أن تظل خيانته مدفونة معه، لو لم تكتشفها زوجته بالصدفة، عندما وجدت في مخبأ ما في البيت بعض الوثائق التي تعتبر غاية في السرية، والتي لم يتمكن من إيصالها إلى مراقبه المشرف عليه.

وأثبت التحقيق الكدود التي قامت به وكالة الأمن الوطنية، بأن حجم وقيمة المعلومات التي نقلها قد فاق كثيرًا مجموعة الاستخبارات التي نقلها مارتن وميتشيل مجتمعين.

وفي اليوم الذي اكتشف فيه انتحار دنلاب، باح ضابط آخر قديم في وكالة الأمن الوطنية بأكثر من سر عن فورت ميد لمجلة "إزفستيا" التي نشرتها في صفحتها الأولى؛ وكان الضابط عربيًا نال الجنسية الأميركية ويدعى فيكتور نوريس هاملتون.

وكان هاملتون على شاكلة مارتن ميتشيل؛ كان شخصًا غريبًا غير مستقر، استطاع أن يحير رؤساءه في التحقيق الأولي الذي أجروه عنه؛ وقد عمل في "مكتب الإنتاج" في قسم الشرق الأوسط في عام ١٩٥٧.

وفي شباط ـ فبراير عام ١٩٥٩، أعلن الأطباء النفسيون في الوكالة أنه مريض عقليًا، لكن المكتب احتفظ به نظرًا للنقص في عدد الموظفين المؤهلين لديه.

وأخيرًا، أجازوه فأوقفوه عن العمل في شهر حزيران ـ يونيو عندما شخص الأطباء أنه يشكو من "أزمة شيزوفرانيا حادة" (انفصام الشخصية).

لكنه ظهر على الساحة السوفياتية في موسكو بعد انقضاء أربع سنوات على طرده، وأعلن للملأ عن نجاح "مكتب الإنتاج" في الشرق الوسط: "من المهم جدًا الإشارة إلى أن السلطات الأميركية تستفيد من وجود الأمم المتحدة فوق أرضها... فإن البرقيات والرسائل المصطلح عليها، التي ترسلها الجمهورية العربية المتحدة، والعراق، ولبنان، والأردن، وتركيا، واليونان إلى ممثليهم في الجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة تقع بين أيدي إدارة الدولة قبل وصولها إلى المرسلة إليهم، وأصحاب الشأن فيها.

وبينما كان دنلاب يخرج الوثائق بأسلوب سري من فورت ميد، تمكن مجلس أمن الدولة السوفياتي، خارج الولايات المتحدة، من التوصل إلى معلومات غاية في الدقة تتعلق بالأسرار السكريبتوغرافية الأميركية.

وكان عميلها جاويشًا في الجيش، غير راضٍ عن حظه في الحياة. وفي عام ١٩٥٣، حينما كان العميل روبرت لي جونسون، في حامية برلين الغربية، ذهب إلى برلين الشرقية طالبًا اللجوء السياسي له ولخطيبته هيدي، التي كان يشغّلها كمومس.

وأقنعه مجلس أمن الدولة السوفياتي بضرورة العودة إلى برلين الغربية والانتقام بالتجسس، لحساب الاتحاد السوفياتي، واعدًا إياه بمده بالمال.

وقام جونسون بدوره بإقناع رقيب شاذ جنسيًا: جيمس ألين مانتانبوغ - بالعمل معه، وبالتعاون مع شاذين آخرين موجودين في القاعدة، لأجل التعامل مع مجلس أمن الدولة.

كان جونسون عميلاً صعب المراس، وقد أعطى خلال السنوات العديدة التي عمل فيها مواد ليست بذات قيمة كبيرة. وفي عام ١٩٥٦، قطع كل علاقة كانت تربطه بمجلس أمن الدولة، واستقال من الجيش ثم رحل إلى لاس فيغاس مع هيدي؛ وكان يأمل في جمع ثروة من الكازينوهات، مخططًا ليصبح مؤلفا ناجحًا.

وبما أنه لم يكن قادرًا على تحقيق أحلامه الخيالية، فقد اتجه إلى شرب الخمر وأجبر هيدي للعودة إلى الدعارة.

ومرضت هيدي، وفي نهاية عام ١٩٥٦، منعها مرضها الشديد من الاستمرار في العمل، ووجد جونسون نفسه لا يملك قرشًا.

وفي ذلك الوقت بالذات، أو في بداية كانون الثاني - يناير ١٩٥٧، ظهر مانتكانبوغ أمام عربتهما المسكن (الكرافان) وفي يده مبلغ ٥٠٠ دولار، وضعها مجلس أمن الدولة تحت تصرفه مع دعوته للعودة إلى التعاون معه.

وكان مجلس أمن الدولة يريد من جونسون الالتحاق بسلاح الجو لأجل نقل المعلومات عن عرض القذائف والصواريخ.

ورفضت دائرة سلام الجو في الولايات المتحدة طلبه. ولكن سلاح البر، قبل ترشيحه. ولربما جاهلاً ماضيه وإدمانه للكحول والمقامرة، (دون الإشارة إلى التجسس)، فانضم إليه من جديد، وعين كحارس على مواقع وجود الصواريخ في كاليفورنيا وتكساس.

واستطاع خلال سنتين كاملتين، أن يمد مانتكانبوغ بالكليشيهات والخرائط والوثائق، حتى أنه تجرأ ذات يوم وأحضر له قليلاً من "كاربور القذائف" التي تمكن من الحصول عليها بناء على طلب مجلس أمن الدولة.

وحمل مانتكانبوغ هذه المواد جميعًا، ليسلمها إلى ضابطه في مكان لقائهما المعتاد قرب واشنطن، حيث تعودا على اللقاء في كاباريه لـ"ستريب - تيز"، الذي كان بيوتر نيقولافيتش البياف، يميل إليه، حسب قول مانتكانبوغ ويؤثره على سواه.

وفي عام ١٩٥٩، تم نقل جونسون من تكساس إلى قاعدة أميركية في فرنسا.

وبعد فترة وجيزة من الزمن، اتصل به ضابط ارتباط جديد ("فيكتور")، اسمه الأصلي فيتالي سيرجافيتش أورجوموف، والتقى به في باريس، ثم ناوله باكيت من السجائر كانت في داخلها ٥٠٠ دولار مطوية بعناية - "إنها هدية عيد الميلاد" - قال له بمرح.

وبدأت هيدي تشكو من مرض عقلي، أما جونسون فقد باتت المراقبة عليه صعبة نوعًا ما، وكان من العسير قيادته. بيد أن الصبر، والتملق، والدولارات... استطاعت أن تؤثر فيه في النهاية، وتخضعه. ووجد جونسون عملاً، في عام ١٩٦١، داخل مركز بريد القوات المسلحة الأميركية في مطار أورلي الذي كان يؤمن نقل الوثائق ذات السرية المطلقة، وأنظمة الشيفرة والأجهزة السكريبتوغرافية بطريقة الترانزيت بين واشنطن ومختلف القواعد الأميركية في أوروبا، والأسطول السادس.

وطوال السنة التي تلت، وبناء على المديح والتملق من قبل "فيكتور"، توصل جونسون للدخول إلى الغرفة السرية، المقفلة بثلاثة أقفال، حيث كانت تُحفظ المواد فائقة الحساسية.

وتمكن من خلال محاولته الثانية إقتحام "الغرفة المنيعة" من طبع مفتاح الباب المؤدي إلى الغرفة الحصينة.

وبعد فترة من الوقت، وجد في إحدى سلال الورق، ملاحظة استطاع بواسطتها أن يحل رموز القفل الثاني؛ وأخيرًا، وبفضل جهاز أشعة إكس، يُحمل باليد، أمنته له دائرة مجلس أمن الدولة، اكتشف تركيبة القفل الثالث.

وفي فجر يوم ١٥ كانون الأول ـ ديسمبر، ولج الغرفة المنيعة، وبحوزته حقيبة سفر كبيرة، ملأها بالأوراق الديبلوماسية المحتوية على المواد السكريبتوغرافية والوثائق السرية.

وحمل كل ذلك معه إلى الموعد المحدد له مع ضابطه المسؤول والمبعوث من قبل أورغوموف، فليكس إلكسندروفيتش إيفانوف، الذي حمل الحقيبة الثمينة إلى مقر مجلس أمن الدولة، الموجود في السفارة السوفياتية في باريس!

وهناك، كان فريق من الاختصاصيين في الانتظار، فأزالوا الأختام عن الأوراق بدقة وعناية، وصوروا الوثائق، ثم أعادوا كل شيء إلى مكانه.

وفي خلال ساعة من الوقت، حصل جونسون على الحقيبة ثم عاد بها لإرجاع الأوراق إلىداخل الغرفة المحصنة، قبل أن يستفيق الموظفون من نومهم، للمداومة في أعمالهم.

وإذا أردنا تصديق نوستكو في ما قاله، فإن عملية أورلي، سمح بها خروتشيف ذاته، منذ البداية، وأن بعض نماذج "تلك السرقة" قد أرسلت له، كما أرسلت أيضًا إلى أعضاء آخرين في مكتب البولتبيرو السياسي. وبالرغم من الاقتراح الشهير الذي اقترحه خروتشيف إبان زيارته إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥٩ ـ إذ كان بإمكان

الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي أن يقتصدا من المصاريف بجمع قواهما من أجل الخدمات الاستخباراتية ـ، فإنه كان لدى خروتشيف تعلق خاص كالسحر في ما يختص بالأسرار "الامبريالية" التي كانت مخابراته تحصل عليها.

وفي صبيحة عيد الميلاد عام ١٩٦٢ نال جونسون تهاني الرفيق خروتشيف الخاصة، كما حاز على تهنئة مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي، وعلم أنه حصل على رتبة قائد في الجيش الأحمر كما منح مبلغ ٢٠٠٠ دولار صرفها في مونت كارلو.

جدير بالذكر أنّ جونسون، حتى شهر نيسان ـ إبريل ١٩٦٣، كان قد نقل إلى مجلس أمن الدولة، سبع عشرة حقيبةً من حقائب السفر ملأى جميعها بالوثائق التي تتضمن أنظمة الشيفرة الأميركية، وأماكن وجود الرؤوس النووية في أوروبا، وخطط دفاع حلف شمال الأطلسي، والجيش الأميركي.

ولكن، وبسبب عدم مبالاته وقلة حرصه المتصاعدة، آثر مجلس أمن الدولة التحفظ بمتابعة العملية، خوفًا من اكتشافها.

وعندما قرر القيام بها فعلاً، كان جونسون قد نقل إلى مكان آخر، وألقت السلطات القبض عليه أخيرًا، في عام ١٩٦٢، استنادًا إلى المعلومات التي أدلى بها نوسنكو بعد مغادرته.

***

كان شيلبين يأمل عندما اعتنى عناية خاصة بالبحث عن مواد الشيفرة، وفي تحسين العلاقات بين دوائر المخابرات، في أن يؤثر على الحكومات وعلى الرأي العام في الغرب نظرًا للإجراءات التي اتخذها بهذا الخصوص.

لقد أنشأ في كانون الثاني ـ يناير ١٩٥٩، قسمًا جديدًا في داخل الدائرة الأولى العامة أسماه بالإدارة "D" (عرفت فيما بعد بمركز الخدمات "A")، وكان القسم يتألف في بداية عهده من أكثر من خمسين ضابطًا. وكان رئيسه، حتى وفاته، الجنرال إيفان أيفانوفيتيش أغايانتس، وهو أرمني طويل القامة، كثير التأفف، ولكنه ذو سحر لا يضاهي. وكانت أفدوكيا بيتروفا تحتفظ عنه بذكرى طيبة، وأكثر حرارة من بقية زملائه القدامى.

كان يتكلم الإنكليزية بطلاقة، كما كان يجيد الفرنسية والفارسية، وعاش في طهران من عام ١٩٤١ حتى عام ١٩٤٣، وخدم في باريس من عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٤٩ تحت الاسم المستعار آفالوف، ثم عيّن على رأس دائرة أوروبا الغربية، في KI، أولاً، وهي الوكالة السوفياتية للاستخبارات الخارجية التي كانت تضم الدوائر الخارجية في الوزارة السوفياتية لأمن الدولة، ثمّ في مديرية أمن الدولة السوفياتية، من عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥١ ثم انتقل بعد ذلك إلىالوزارة السوفياتية لأمن الدولة MGB ، وبعدها إلى مجلس أمن الدولة KGB.

تجدر الإشارة إلى أن أغايانتس قد حاز على المنصب نظرًا لنجاحه الذي حققه عندما نشر مذكرات مزيفة، وأعمالاً من نفس النوع؛ حيث كان من بينها مذكرات الجنرال فلاسوف، "اخترت المنشقة J'ai choisi la potence"، والنص الكاذب المشكوك في صحته "وظيفتي في القيادة العليا السوفياتية "Ma Carrière dans le haut Commandement Soviétique" لإيفان كريلوف، كما نشر أيضًا مراسلات خيالية كاذبة بين ستالين وتيتو في المجلة الأسبوعية "على مفترق الطريق Carrefour". أما المؤلف الحقيقي لمعظم تلك الكتب، فمن المحتمل أن يكون غريغوري باسدوفسكي، وهو ديبلوماسي سوفياتي قديم كان يعيش في باريس في فترة ما بين الحربين، والذي تعاون

فيما بعد مع NKVD. تلك الكتب المزيفة ـ التي يضاف إليها كتابان عن ستالين كتبهما ابن أخ ليس له وجود ـ كانت مدبجة بطريقة جيدة دفعت الأخصائي المعروف جدًا إ. هـ. كار للوقوع في الخطأ، عندما قبل أن يكتب المقدمة في عام ١٩٥٥ للكتاب الذي نشر بعنوان: ملاحظات حول مذكرات خاصة "Les Notes d'un Journal"، التي نسبت إلى "كوميسر الشعب القديم في الشؤون الخارجية: مكسيم ليتفينوف".

ينبغي ذكر أن بعض الأعمال الأخرى المزورة والتي زيفها "القسم أ" في السنوات ١٩٧٠ ـ ١٩٨٠، كانت تعتبر بالنسبة إليها أكثر فظاظة ووقاحة.

في عام ١٩٥٩، أصبحت ألمانيا الغربية أول هدف من أهداف أغايانتس، خاصة وأن الـ KGB أراد أن يظهرها بمظهر الجمهورية ذات الصبغة النازية.

ولكي يختبر أحد "إجراءاته الفعالة"، أرسل أغايانتس فريقًا من موظفيه، إلى مكان يبعد عن موسكو ٨٠ كيلومترًا، طالبًا منهم تلطيخ جدران إحدى القرى بالصليب المعقوف، وكتابة الشعارات المعادية للسامية، والعبث في المقابر، ليلاً.

ونقل إليه المخبرون في أمن الدولة، فيما بعد، أن معظم سكان القرية المشردة، قد اشتكوا من تلك الممارسات، وذلك الغزو على قريتهم، وأن أقلية ضئيلة من "أصحاب النشاطات" قد اقترفوا أعمالاً معادية للسامية متشبهين في ذلك بمن سبقوهم.

وفي شتاء ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠، استعمل أغايانتس نفس التقنية في جمهورية ألمانيا الفيدرالية حيث نجح فيها نجاحًا كافيًا.

وهكذا، وبهذه الوسيلة بُثّ عملاء ألمان شرقيون وانتشروا في ألمانيا الغربية ومهمتهم الأصلية تهديم المباني اليهودية، وأماكن عبادة اليهودية، وآثارهم التذكارية، وأماكنهم التجارية، ورسم الشعارات فوق الجدران، وهي الشعارات المعادية للسامية.

وبسرعة، تحرك بعض الغوغائيين فساهموا في العملية بالمناوبة. وبين ليلة الميلاد في عام ١٩٥٩ ومنتصف شهر شباط ـ فبراير ١٩٦٠، أحصت السلطات ٨٣٣ عملاً ضد السامية تمّت فوق أراضيها.

وفجأة، توقفت الحملة! ولكن ليس قبل أن تتعرض الجمهورية الفيدرالية لفقدان احترامها العالمي وكرامتها التي أصيبت في الصميم.

وقام رجال السياسة بشجب العمليات، كما تعرض رجال الدين علنًا لتلك الممارسات، حتى أن جريدة نيويورك هيرالد تريبيون، لخصت ردة فعل الصحافة الأجنبية في صفحتها الأولى قائلة:

"بون عاجزة عن إلغاء السم النازي".

وفي أيّار ـ مايو ١٩٥٩، عقد شيلبين في موسكو أضخم مؤتمر للاستخبارات منذ تأسيس "التشيكا" وذلك لكي يتحدث عن أفضلية أعمال مجلس أمن الثورة.

وقد شارك ٢،٠٠٠ من الضباط بحضورهم، كما حضر ممثل مجلس الرئاسة "السيريزديوم" الكسي إيلاريونوفيتش كيريشنكو، وأعضاء من المجلس المركزي، ووزراء الداخلية والدفاع.

ورسم شيلبين خطة طويلة الأمد، قصد من ورائها حشدًا عامًا لجميع دوائر المخابرات في الكتلة السوفياتية لأجل تحقيق الأهداف البعيدة للسياسة السوفياتية بشكل أفضل، وفي نفس الوقت تجريد الولايات المتحدة من .قوة تأثيرها التهديدية، وحلفائها في الحلف الأطلسي، وفي اليابان.

وأخذت الدائرة "D" على عاتقها مسؤولية مطابقة برنامجها "للتدابير الفعالة" مع الدائرة العالمية للمجلس المركزي وأجهزة الحزب والحكومة.

وبالرغم من التعقيد في برنامج "التدابير الفعالة" أوالإجراءات النشيطة التي كان يقوم بها سيلبين، فإن هذا الأخير، لم يكن في نيته التخلي عن الأشكال والنماذج ذات الفعالية المباشرة "كعملية خاصة".

وكانت الإدارة الثالثة عشرة في المديرية الأولى العامة، المكلفة "بالعمليات المشبوهة"، هدفًا لعدة فضائح أمام الرأي العام.

وبعد فشله في تصفيته زعيم "الاتحاد الشعبي للعمل NTS"، (وهي المنظمة المؤلفة من المهاجرين الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الأوكرانيين) جورجي أوكولوفيتش في فرانكفورت، وترك قاتل نيقولاي كوخولوف في عام ١٩٥٤، فإن مجلس أمن الدولة استأجر قاتلاً مرتزقًا ألمانيًا، يحمل اسم وولفغانغ ويلدبريت، لتصفية رئيس NTS فلاديمير بوريسكي، في عام ١٩٥٥.

وكما فعل كوخلوف، قبل ذلك، فإن ويلدبريت، ذهب إلى الشرطة الألمانية الغربية ليقص عليها ما حدث...

وفي أيلول ـ سبتمبر ١٩٥٧، حاولت الدائرة "١٣" أن تسمم كوخلوف بواسطة "التاليوم الذري" (معتقدة أن هذه المادة لن تترك أثرًا في التشريح). وفشلت مرة ثانية... لكن ذلك الفشل لم يمنع الاغتيال الناجح الذي ذهب ضحيته اثنان من الزعماء الأوكرانيين اللاجئين إلى جمهورية ألمانيا الفدرالية: أحدهما ليف ريبيت، الأيديولوجي في منظمة الأوكرانيين الوطنيين، الذي قتل في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٥٧، وستيفان بانديرا، زعيم الحركة، في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٥٩.

وأقنعت هذه التصفيات الجسدية خروتشيف، الذي كان موافقًا على تنفيذها، وشيلبين أيضًا، واعتبر الاثنان أن اختيار هذه الطريقة للقتل تظل طريقًا لعمليات ينفذها مجلس أمن الدولة في الخارج. وفي حالتي القتل هاتين، كان القاتل شابًا في الخامسة

والعشرين من عمره يدعى بوغدان ستاشينسكي. أما سلاحه، فقد دبره مختبر مجلس أمن الدولة في "خوزياسنفو": غيليز نوفو، وكان عبارة عن مسدس ينبعث منه غاز "السيانور" الموجود داخل أنبوبة، وكان ذلك الغاز يسبب توقفًا في القلب لدى الضحية.

وكان ستاشينسكي قد جرب سلاحه على كلب في غابة في ضواحي كارلسهورست: ربطه إلى شجرة ثم أطلق عليه المسدس؛ فأصيب الكلب بتشنجات وما لبث بضع ثوانٍ يتشنج حتى مات.

وكانت الدائرة "١٣" تعتقد وهي أكيدة في اعتقادها، بأن الطبيب الذي سيفحص المريض ـ دون علم منه بالعملية ـ سوف يشخص أنه مات بعد توقف قلبه عن النبض. ولكي يقتل ريبيت وبانديرا، انتظرهما ستاشينسكي عند هبوط الليل، في "منوَر" الدرج المؤدي إلى بيتهما ونفذ العملية.

وطلبته موسكو... فاستدعته في كانون الأول ـ ديسمبر، ١٩٥٩.

وفي غضون احتفال أقيم في المركز، هنأه شيلبين لأنه "نفذ مهمة في غاية الأهمية كانت الحكومة قد أوكلته بها وقدم له رتبة العلم الأحمر". وأعلمه أنه سيتلقى دروسًا لإتقان اللغة الألمانية وأنه سيتعلم الإنكليزية بعد ذلك، حتى ينطلق للعيش في الغرب مدة ثلاث إلى خمس سنوات، لتأدية "أعمال" أخرى... "إن ما ننتظره منك"، قال شيلبين، "صعب ولكنه مشرّف".

وكما فعل كوخلوف وويلبرت من قبل، فقد فكر ستاشنسكي بعمليات الاغتيال التي نفذها، مقتنعًا برأي صديقته الألمانية الشرقية المناهضة للشيوعية، إنجي بوهل، التي تزوجها عام ١٩٦٠. وذات يوم من شهر آب ـ أغسطس ١٩٦١، وقبل أن يغلق جدار برلين كل الطرق المؤدية إلى الهرب من الشرق، التجأ الزوجان إلى الغرب. وسلم

ستاشنسكي نفسه إلى السلطات حيث اعترف بقتل ربييت وبانديرا؛ وخضع للمحاكمة التي تمت في كارلستورت، في تشرين الأول ـ أكتوبر، عام ١٩٦٢، وقد اصدر القضاة عليه حكمًا بالسجن ثماني سنوات لاشتراكه في عملية الاغتيال. وأعلن القاضي أن المذنب الرئيسي في العملية: هو الحكومة السوفياتية التي سمحت بل أسست الاغتيال السياسي.

وبدأت الرؤوس في مجلس أمن الدولة تتساقط!.

ووفق أقوال أناتولي غوليستين الذي رحل بعد ستاشنسكي بأربعة أشهر، فإن سبعة عشر ضابطًا على الأقل طردوا أو نقلوا من مراكزهم، بعد أن جردوا من درجاتهم.

وأهم من ذلك، فإن فشل كوخلوف وستاشنسكي جعلا المكتب السياسي (البولتبيرو) ومديرية مجلس أمن الدولة يعيدان النظر قبل المخاطرة بتنفيذ "العمليات المشبوهة".

وبعد الدعاية العالمية التي حققتها محاكمة ستاسنسكي، فقد تخلى المكتب السياسي عن الاغتيال كأداة عادية في السياسة الخارجية، ولم يعد يلجأ إليه إلاّ في مناسبات نادرة جدًا، منها على سبيل المثال تصفية الرئيس الأفغاني حافظ اللّه أمين في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧٩.

في نهاية الحرب الباردة، كما في بدايتها ظل "العدو الرئيسي" الهدف الهام في عمليات مجلس أمن الدوة الخارجية.

وفي فجر أعوام الستينات، نجح مجلس أمن الدولة، ولأول مرة، بوضع قاعدة هامة في "الساحة الخلفية" للولايات المتحدة، في أميركا اللاتينية.

وسنحت الفرصة بعد الإطاحة بديكتاتور كوبا، باتيستا، في الانقلاب الذي قام به ضده فيدل كاسترو في عام ١٩٥٩.

ظل الكرملين حتى ذلك الوقت بعيدًا عن الساحة، في ما يتعلق بالتطلعات الثورية في أميركا اللاتينية، معتبرًا أن التأثير الأميركي كان قويًا جدًا هناك بحيث لا مجال لسيطرة الشيوعيين أو لنجاح سلطة شيوعية.

والجدير بالذكر، أن كاسترو نفسه كان قد تلقى دراسة خاصة حسب عادات وتقاليد العائلات الكبرى في الجزيرة، وكانت اعتقاداته السياسية تنبع من الحزب الأرثوذكسي ومن المثل العليا لمؤسسه، إدواردو شيباس.

وأكد الحزب الشيوعي الكوبي حتى صيف عام ١٩٥٨، بمساندة موسكو، أن باتيستا لا يمكن أن يتنازل عن الحكم إلا بقيام ثورة شعبية، للعمال الكوبيين، يقودها الشيوعيون.

وأدركت الدائرة الثانية (أميركا اللاتينية) في PDG (الدائرة الأولى العامة للتجسس) في مجلس أمن الدولة، قدرة كاسترو قبل وزارة الشؤون الخارجية أو الدائرة العالمية للمجلس المركزي.

إن أول من أدرك ذلك كان ضابطًا شابًا في مجلس أمن الدولة، وكان يتحدث الإسبانية، ومقيمًا في مكسيكو في منتصف الخمسينات، يدعى نيقولا سيرغافيتش ليونوف.

في عام ١٩٥٥، وبعد إطلاق سراحه من أحد السجون الكوبية حيث قضى عقوبة سنتين لهجومه على إحدى الثكنات العسكرية للجيش، عاش كاسترو منفيًا لمدة سنة في مكسيكو حيث طلب أسلحة من السوفيات للقيام بحملة حرب عصابات ضد باتيستا.

لكن الطلب رفض ولم يؤخذ بعين الاعتبار، أما ليونوف فاكتشف فيه زعيمًا قويًا؛ وأخذ يقابله بصورة منتظمة ويقدم له الدعم المعنوي الفعال.

ووجد ليونوف أن سياسة كاسترو متفككة وغير مستقرة، غير أنه لاحظ تمسكه، بل تصميمه على الاحتفاظ بالسيطرة علىحركته التي قام بها في ٢٦ تموز ـ يوليو، وإرادته ليمنح النظام المقبل لونًا اشتراكيًا.

ولاحظ في نفس الوقت أن شقيق كاسترو، راوول، واللويتنانت الرئيسي لديه ومرافقه، تشي غيفارا، كانا يعتبران نفسيهما ماركسيين.

في البداية، كان تفاؤل ليونوف حول وجهات نظر وتطلعات حرب العصابات في كوربا ـ التي بدأت منذ عودة كاسترو إلى كوبا في كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٥٦ـ، وجدت قليلاً من الاهتمام في موسكو؛ ولكن بعد أن استطاع الزعيم الكوبي الاستئثار بالحكم، فإن بعد نظر الضابط والروابط الجيدة التي كان عقدها معه، دفعته للوصول إلى أعلى المراكز في مجلس أمن الدولة: إذ أصبح في عام ١٩٨٣ المدير المساعد في PDG أول مديرية عامة للتجسس في مجلس أمن الدولة، ومسؤولاً عن جميع العمليات في مختلف مناطق القارة الأميركية.

وحينما تولى كاسترو مقاليد الحكم في كانون الثاني ـ يناير عام ١٩٥٩، شككت موسكو في مقدرته على مقاومة الضغوط الأميركية.

واعتبر الحزب الشيوعي الكوبي اتحاده معه نوعًا من التكتيك يشبه ذلك الذي جعله يتحد في الماضي مع باتيستا.

وفاجأ كاسترو الحزب! فطهّر إدارته واستغله لوضع يده على كوبا. بعدئذ، اتجه صوب موسكو، مطالبًا بالسلاح وبالمساعدة الضرورية لأجل مساندة الثورة وتحقيق حلمه، أن يصبح "بوليفار" الكاريبي. وفي شهر تموز ـ يوليو ١٩٥٩، انطلق رئيس مخابراته، الكومندان راميرو فالديز، إلى مكسيكو حيث أجرى مقابلات سرية مع

السفير السوفياتي هناك، ومدير مجلس أمن الدولة KGB المقيم، الذي أرسل أكثر من مائة مستشار للمحافظة على أمن كاسترو والإشراف على إدارة المخابرات ومراقبتها.

وكان عدد كبير من هؤلاء المستشارين خارجين من صفوف "تينوس"، أي أولاد الشيوعيين الإسبانيين النازحين إلى الاتحاد السوفياتي بعد الحرب الأهلية.

ونظم الخبير الجمهوري، أنريك ليستر فارجان، لجان دفاع الثورة، وجعل الحراسة من حي إلى حي، وقصده من وراء ذلك خنق أي تدخل لإضعافها، كما أسس الجنرال ألبيرتو باجار مدارس لتعليم حرب العصابات.

ولكن موسكو لم تهتم بتقديم المساعدة العسكرية المفتوحة لذلك النظام الأرثوذكسي: بل إن التشيكيين ـ ولم تكن تلك المرة الأولى ولا الأخيرة ـ قاموا بالمهمة.

وفي الخريف، وصل إلى براغ وفد كوبي برئاسة راوول كاسترو لإجراء بعض المحادثات بهذا الشأن.

واستطاع راوول، الماركسي المتحمس أن يعطي عن نفسه انطباعًا حسنًا بالرغم من تعوده على النوم بالجزمة، ومعاشرته للمومسات الشقراوات.

وشرح لويس ماس مارتن، زعيم الدعاية والمعلومات في PSP لضيوفه أن حزبه كان يسعى لاستخدام راوول للتاثير على فيدل: "إنني شخصيًا، أعتقد أن فيدل رجل "أنارشيست" (لا يؤمن بالحكومة ولا بالقوانين السياسية) ولكن حقده على الولايات المتحدة سيدفعه للارتماء في أحضان PSP (الحزب الشيوعي الكوبي)، بخاصة إذا استمر الأميركيون في التصرف بحماقة".

وفي غضون زيارته إلى براغ، استلم راوول دعوة من خروتشيف للذهاب إلى موسكو.

ووصل إلى هافانا في نفس الوقت، "وفد ثقافي"، سوفياتي برئاسة رئيس KGB القديم في بيونس - ايريس، ألكسندر إيفانوفيتش شيتوف ("ألكسييف").

وقدم شيتوف إلى فيدل زجاجة من الفودكا، وعدة علب من الكافيار وألبوم صور فوتوغرافية عن موسكو، ثم عبر له عن "الإعجاب الكبير" الذي يكنّه الشعب السوفياتي لشخصه وللثورة الكوبية.

وفتح كاسترو العلبة ثم أرسل يستحضر البسكويت. "ما أطيب هذه الفودكا! وما ألذ هذا الكافيار! قال بتهذيب؛ أعتقد بأن هذا يدعونا لإقامة علاقات تجارية مع الاتحاد السوفياتي. حسنًا جدًا، يا فيدل"، أجاب شيتوف، ولكن ما رأيك بالنقطة الأكثر أهمية: "العلاقات الدبلوماسية؟".

وعندما اعترف الاتحاد السوفياتي، في أيار - مايو ١٩٦٠ بالنظام الجديد، بقي شيتوف في هافانا، حيث عيّن رسميًا كمستشار ثقافي وممثل لوكالة تاس؛ وفي الحقيقة كان مديرًا مقيمًا لدائرة مجلس أمن الدولة في الـ KGB. ومنذ تلك اللحظة، ساند خروتشيف كوبا بكثير من الدعم.

ذات يوم بينما كان يلقي خطابًا معاديًا للأميركيين في ٩ تموز - يوليو، صرح قائلاً: "سوف نفعل كل شيء لأجل مساندة كوبا في معركتها... فاليوم، ليست الولايات المتحدة منيعة كما كانت من قبل حتى لا تقبل الطعن".

وفي اليوم التالي، أعلن تشي غيفارا للملأ بأن كوبا منذ الآن فصاعدًا تستند إلى حماية "أكبر قوة حربية في التاريخ".

ثم أخذ كاسترو وملازموه يؤكدون بأن الثورة الكوبية "هي الخطوة الأولى في مسيرة تحرير أميركا اللاتينية".

وظلت بعض الشكوك تحوم حول أيديولوجية كاسترو، لكن احتفاظه بالسلطة بين يديه بدّل استراتيجيات مجلس أمن الدولة والكرملين في أميركا الجنوبية.

وكانت السياسة التقليدية تعتمد الاتكال علىالأحزاب الشيوعية، ولكنها ألغيت لصالح الاتحادات المتطابقة مع حركات التحرر الوطنية المدعومة من الجماهير.

علاوة على ذلك، فإن فشل غزو خليج "الخنازيرBaie de Cochons" الذي أيّدته وساندته CIA، في نيسان - إبريل ١٩٦١، أجبر السوفيات على مراجعة تقديرها للصلابة الأميركية. إذاً، كانت الولايات المتحدة معرضة لأيّ خسارة، وغير قادرة على صد الهجوم حتى في ساحتها الخلفية.

وبما أن كاسترو كان يكره السفير سيرجي كودرياستيف، فقد ازدادت تلك الكراهية مع الأيام، ولكنه نسج روابط صداقة بينه وبين ألكسندروف شيتوف. وأعلن في آذار - مارس عام ١٩٦٢، في حديث تليفزيوني، إلغاء الحزب الشيوعي الكوبي الذي كان يسير على خط ماركسي، ويساند الماركسية بقوة. وكان معروفاً أن كودرياستيف كان يدعم ذلك الخط، فلذلك طلب الزعيم الكوبي إقالته وتعيين شيتوف (الذي كان لا يزال يستعمل الاسم المستعار "ألكسييف") مكانه. وفي أقل من ستة أشهر، تمحض التدخل السوفياتي المتصاعد في الجزيرة عن أكثر الأزمات العالمية خطورة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ففي بداية عام ١٩٦٢، مع إدخال وتركيز الصواريخ الجديدة العابرة للقارات مينوتمان - دون ذكر القذائف المتوسطة المدى التي تمركزت في القواعد في انكلترا وفي تركيا -، فإن الولايات المتحدة كانت قد برهنت عن تقدم واضح في سباق التسلح النووي.

وظن خروتشيف أنه يستطيع الحصول على فائدة كبرى ومؤكدة عندما ينشر صواريخه في كوبا، على مسافة أقل من ١٥٠ كلم، من سواحل الولايات المتحدة. ولم

ترتكز "لعبة الكشاتبين" هذه التي قام بها خروتشيف على تقدير جدي للحالة، بل على سوء تقدير وتحقير - من خروتشيف شخصيًا - لتصميم الأميركيين بشكل عام، وللرئيس الشاب كنيدي بشكل خاص. وصرح الرئيس السوفياتي، للشاعر الأميركي روبرت فروست بالقول: "إن الديمقراطيات الغربية كانت متحررة جدًا لكي تتقاتل".

وكان فقدان الثقة الذي أبداه كنيدي في غضون قصة خليج الخازير، قد أقنع خروتشيف بأن الرئيس كان "تافهًا": إنني أؤكد أن كندي لا يتمتع بالشخصية القوية، وبشكل عام فإن الشجاعة تنقصه لمواجهة تحدّ جدِّي".

وحينما ركز الاتحاد السوفياتي، بشكل سري، صواريخه النووية في كوبا، فقد وضع الرئيس الأميركي أمام الأمر الواقع الذي كان من الصعوبة القصوى موافقته عليها.

وفي صيف عام ١٩٦٢، باشر المهندسون السوفياتيون، باختيار مواقع انطلاق الصواريخ ذات مدى ٣٥٠٠ كلم، والتي كان بإمكانها الوصول إلى قلب المدن الرئيسية على الساحل الغربي في عدة دقائق. يجدر القول أن المخابرات السوفياتية، برهنت من خلال الأزمات السابقة للحرب الباردة، أنها كانت متفوقة على المخابرات في الغرب.

ومن ناحية ثانية، فإن الاستعلامات التي هيأها الأميركيون في تلك المناسبة كانت، ولأول مرة، جيدة جدًا، إن لم تكن الفضلى، فمكان الأزمة لم يبعد أكثر من ١٥٠ كلم عنهم، وهذا يفسر قسمًا مما حدث.

بالإضافة إلى ذلك، فإن المخابرات السوفياتية قد تحسنت بفضل تغييرات كبرى أدخلها الغربيون إلى مجموعة استعلاماتهم. وكانت أولى تلك التحسينات تتعلق بتصاعد المعرفة الجوية. في عام ١٩٥٥، اقترح الرئيس أيزنهاور على الاتحاد السوفياتي

سياسة "السماء المفتوحة" مفوضًا كل جانب أن يراقب التمدد العسكري للجانب الآخر من الفضاء، ورفض الاتحاد السوفياتي الاقتراح. وأخذت الولايات المتحدة تجوب الفضاء السوفياتي عندما جندت طائرات "U-2" للتحليق فوق أراضي الاتحاد السوفياتي على علو ٢٠،٠٠٠م، وكان لتحطم إحدى تلك الطائرات، ومحاكمة طيارها غاري بوارز في عام ١٩٦٠، ردة فعل موقتة لدى الأميركيين. وبعد انقضاء أشهر معدودة على تلك الحادثة، أطلق الأميركيون أول قمر استطلاع، كانت الصور الفوتوغرافية التي التقطها اقل وضوحًا من تلك التي صورتها كاميرات طائرة "U-2".

ومنذ عام ١٩٦٣، بدأت المراقبة بواسطة القمر الصناعي، وقد اعتمدتها القوتان العظميان للحيلولة دون الحصول على الاتصالات والرسائل والصور الفوتوغرافية؛ وقد تقبل الكرملين ذلك الوضع على مضض.

وقد حدث، من ناحية أخرى، ابتداءً من منتصف الخمسينات، تحسن ملحوظ - ولكنه أقل دراماتيكية - في عمليات التجسس التي كان يقودها الغرب في داخل الاتحاد السوفياتي.

ففي ربيع ١٩٦١، تمكنت دائرة التجسس السرية (SIS البريطانية) من سحب العميل الغربي الأكثر أهمية في الحرب الباردة: الكولونيل أوليغ فلاديميروفيتش بنكوفسكي، أحد ضباط "الوكالة السوفياتية للمخابرات الحربية GRU" الملحق بمجلس الدولة للعلوم والتكنولوجيا، وصديق رئيس الوكالة السوفياتية للمخابرات الحربية، الجنرال سيروف، والقائد الأعلى للمدفعية والصواريخ، الماريشال سيرغي سيرغيفيتش فازنتف.

وكانت المعلومات التي حصل عليها بنكوفسكي - حوالي ٥،٥٠٠ كليبشيه صورها بواسطة آلة مينوكس، على مدى ١٨ شهرًا - في غاية الأهمية. وكانت تلك المعلومات

تحمل آخر اختراعات الصواريخ عابرة القارات السوفياتية (عدة ألوف أقل من التوقعات الأميركية)، وطرق التحذير، وأساليب الإطلاق، ودراسات حول دقة الصواريخ والأخطاء التي ظهرت إبّان التجارب.

وبناءً على التقارير عن ثقة السوفياتيين المتزايدة بصواريخهم، وعن إعلانهم عن برنامج ضخم للحرب الكيميائية، فقد اضطر "الحلف الأطلسي" إلى التراجع عن جزء كبير من استراتيجيته. وكانت المعلومات التي ينقلها بنكوفسكي، في بعض الأحيان، تشغل دائرة التجسس السرية في بريطانيا العظمى، ووكالة التجسس المركزية في الولايات المتحدة، حتى قام بدراستها عشرون محللاً أميركيًا، وعشرة مراقبين بريطانيين.

ولكي يتمكن الغرب من حل أزمة الصواريخ في كوبا قبل تركيزها في مواقعها، كان من الضروري امتلاكه للمعلومات الجيدة. وفي ١٤ تشرين الأول ـ أكتوبر، قامت طائرة "U-2" بالتقاط الكليشيهات الأولى لمراكز الصواريخ "الباليستية" التي كانت تشيد في كوبا. واستطاع المراقبون المحللون في وكالة التجسس الأميركية التعرف على طبيعة الموقع بفضل وثيقة سرية للغاية فصلت بدقة مراحل بنيان تلك المواقع؛ وكان بنكوفسكي قد صور تلك الوثيقة، بطريقة سرية، في Q.G مركز الرئاسة العام لقوات الصواريخ والمدفعية حيث سمحت له صداقته للماريشال فارينسوف بولوجه. وفي ١٦ تشرين الأوّل ـ أكتوبر، كانت الكليشيهات أمام عيني الرئيس. فجمع لجنة سرية للغاية لدراسة الأزمة، عرفت باسم "إكس كوم" (أي اللجنة التنفيذية لمجلس الأمن الوطني) التي كانت تتابع دقيقة بدقيقة، تطورات الحالة خلال ثلاثة عشر يومًا.

وفي ١٩من الشهر ذاته، استطاعت طائرات "U-2" خلال تحليقها إعطاء البرهان القاطع للجنة التنفيذية لمجلس الأمن الوطني على تشييد تسعة مراكز لإطلاق

الصواريخ. وفي ٢٢ تشرين الأول ـ أكتوبر، أعلن كينيدي أنه فرض حصارًا، دعا بموجبه إلى "حجز جميع المعدات العسكرية الهجومية الموجودة على متن السفن المبحرة إلى كوبا".

وعاش العالم ما يقرب من اسبوع، في ظل الرعب النووي، ولعب مقر الـ KGB في واشنطن دورًا فعالاً في خلق الأزمة، والمساعدة على حلها، فيما يتعلق بأزمة الصواريخ. وبالإضافة إلى عمله المعتاد، قام بمهمتين أخريين: خلق علاقات خاصة مع البيت الأبيض، والتدخل خلال تنصيب الصواريخ.

وكان المنفّذ الرئيسي جورجي نيكيتوفيتش بولتشاكوف، وهو ضابط في مخابرات مديرية أمن الدولة، يعمل في واشنطن تحت غطاء صحافي. وقد عمل بولتشاكوف، خلال أكثر من سنة قبل الأزمة "كخط أحمر" و "كقنال اتّصال سري بين جون كنيدي ونيكيتا خروتشيف"

بعد أن قدمه أحد الصحافيين الأميركيين إلى روبرت كنيدي شقيق الرئيس ومستشاره، في أيار ـ مايو ١٩٦١، أخذ الرجلان يتقابلان بانتظام مرتين في الشهر.

يبدو أن روبرت كنيدي، الذي كان معجبًا "بإخلاص ووفاء" بولتشاكوف، لم يلاحظ أنه ضابط في مديرية أمن الدولة. قال كنيدي: "كان ممثلاً لخروتشيف ومندوبًا عنه... عندما كان لديه رسالة يريد تبليغها إلى الرئيس، من قبل خروتشيف، أو إذا كان لدى الرئيس رسالة يريد أن يبعثها إلى خروتشيف، كان جورجي بولتشاكوف يعمل وسيطًا بريديًا بين الاثنين.. وكنت ألتقي به لبحث جميع أنواع المواضيع معه".

نجح بولتشاكوف في إقناعه بأنه يستطيع تخطي جواز الديبلوماسية التقليدية والتمكن من الوصول مباشرة إلى خروتشيف "دون اللجوء إلى السياسيين وإلى شلالات الدعاية التي يثيرونها". ووفق أقوال ليولتشاكوف: "استفاد الجانبان فائدة كبرى من تلك

العلاقة السرية التي أمنها لهما: أستطيع القول بأن حوار خروتشيف ـ كنيدي، كان صريحًا ومفيدًا، بين رسالة وأخرى".

وبينما كانت الأزمة تقترب من نقطة النهاية، كانت مهمة "الخط الأحمر" الرئيسة في مديرية أمن الدولة تغطية وجود الصواريخ في كوبا إلى أن أصبح وجودها أمرًا واقعًا. وفي ٦ تشرين الأول ـ أكتوبر، زار بولتشاكوف روبرت كينيدي لينقل إليه رسالة جديدة من خروتشيف.

كان من عادته أن يجد مضيفه يرتدي القميص وقد فك زر القبّة العلوي، ورباط العنق، ولكنه، في هذه المرة، أحس بأن الجو مختلف جدًا: "وبعكس جميع لقاءاتنا السابقة، كان مضيفي يرتدي بذلة غامقة اللون، وكان شعره ممشطًا بعناية فائقة. أما وجهه فكان جامدًا... وكان روبرت جافًا، وبروتوكوليًا. وبدا أن ذلك كان مقصودًا لكي يعطي لاجتماعنا صفة رسمية".

ما كان من بولتشاكوف سوى التصريح بالرسالة التي يحملها: "إن السكرتير الأول خروتشيف قلق من الحالة التي خلقتها الولايات المتحدة حول كوبا، ونكرر بأن الاتحاد السوفياتي يؤمن لها الأسلحة الدفاعية اللازمة والمقررة لحماية مصالح الثورة الكوبية".

رجاه روبرت كينيدي حينئذٍ أن يكرر الرسالة بتمهل، ثم كتبها وأعطاها للسكرتيرة لتطبعها على الآلة الكاتبة، "حسنًا جدًا، قال، سوف أبلغ رسالة السكرتير الأول للرئيس، وسوف يعطي جوابه بواسطتي، إذا كان ذلك ضروريًا". وفي اليوم التالي، تلقى بولتشاكوف دعوة لتناول الغداء من الصحافي شارل بارتليت، الذي كان صديقًا حميمًا للرئيس. وأخبره بارتليت أن جون كنيدي يريد رسالة خروتشيف "بالتفصيل، مكتوبة وليست شفهية بفم شقيقه".

وأعاد بولتشاكوف ما قاله لروبرت كنيدي، مساءً، كلمة كلمة. وكتب بارتليت الرسالة ثم سلمها إلى الرئيس.

بعد مرور تسعة ايام، وضعت بين يدي كينيدي الكليشيهات التي كانت التقطتها طائرة "U-2" التي تظهر مواقع تشييد مراكز الصواريخ.

حكى مستشار الرئيس، تيودور سورينزن، في ما بعد، فقال: "إنّ الرئيس كينيدي كان يلجأ إلى الوسيط بولتشاكوف ليحصل على معلومات آتية مباشرة من خروتشيف، وبالرغم من ذلك فقد أحس أنه قد خدع شخصيًا، وكان فعلاً مخدوعًا شخصيًا".

في ٢٤ تشرين الأوّل ـ أكتوبر، دعا باتليت بولتشاكوف إلى نادي الصحافة الوطني "ناسيونال بريس كلوب" في واشنطن، ثم عرض أمام ناظريه عشرين صورة كانت لا تزال تحمل على الطرف الأعلى اليمين من كل صورة عبارة: "محفوظة للرئيس". وسأل بارتليت بولتشاكوف: "ما رأيك يا جورجي؟ أراهن أنكم تعلمون بأن صواريخكم موجودة بالتأكيد في كوبا".

وبناء على القصة التي سردها، فإن السوفياتي أجابه قائلاً: "إنني لم أر مثل هذه الصور قط، وليس لدي أيّ فكرة عما تمثله. هل هي أراضٍ لملاعب البيس ـ بول؟" ونشرت الصور في اليوم التالي، واتصل بارتليت هاتفيًا ببولتشاكوف. وإذا أردنا تصديق هذا الأخير في كل ما قاله، فإن الأميركي قد رد عليه قائلاً:

"حسنًا، يا جورجي، أليس لديكم صواريخ في كوبا"؟

ـ لا، ليس لدينا

ـ "حسنًا... لقد طلب مني بوبي أن أقول لك بأنكم تملكون هذه الصواريخ في كوبا. لقد قال خروتشيف ذلك، اليوم، فقد استلم الرئيس برقية من موسكو بهذا الخصوص".

هذا النبأ المفاجئ، كما قال بوشاكوف، "وقع على رأسه وقوع الصاعقة"، إذ لم يكن يتوقعه.

وبعد أن نزعت الثقة من بولتشاكوف، فتحت موسكو "طريق اتصالات سرية" مع البيت الأبيض. فاعتمدت على مدير مديرية أمن الدولة المنتدب في واشنطن، ألكسندر سيميونوفيتش فيكليسوف، الذي نال سمعة حسنة في المركز حينما كان ضابطًا في خط PR في لندن، في أواخر الأربعينات. وفي واشنطن، استعمل الاسم المستعار "فومين" منذ العام ١٩٦٠ حتى ١٩٦٤.

اتصل هاتفيًا في ٢٦ تشرين الأول ـ أكتوبر، في الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر بمراسل "محطة الإذاعة الأميركية ABC" المعتمد لدى إدارة الدولة، جون سكالي (الذي أصبح فيما بعد سفيرًا للولايات المتحدة)، والذي كان يعلم عن دخوله وقتما يشاء إلى البيت الأبيض.

كان فيكليسوف يبدو مضطربًا، وطلب من سكالي ضرورة مقابلته خلال عشر دقائق في المطعم الغربي، "أوكسيدنتال رستورانت" في جادة بنسلفانيا.

وعندما وجد نفسه أمام سكالي، قال له بأن ثمة رسالة هامة لديه ينبغي أن يوصلها.

"هل تتعهد الولايات المتحدة الارتباط علنًا بعدم غزوها لكوبا، مقابل سحب الصواريخ السوفياتية؟!.

"هل بإمكانك الاتصال السريع بمصادرك الرفيعة المستوى في إدارة الدولة؟".

والتقى فيكليسوف وسكالي مرة ثانية في الساعة السابعة و٣٥ دقيقة مساء، في مقهى ستادلر هيلتون، وأخبره سكالي أنه قد استشار سكرتير الدولة، دين راسك، وأن هذا الأخير أظهر اهتمامًا شديدًا لاقتراح فيكليسوف. وكانت السلطات الأميركية في

ذلك الوقت قد استلمت رسالة مطولة من خروتشيف بذلك الخصوص[1]، ولم يتم أي تفاوض رسمي بذلك الشأن، بيد أن اقتراح فيكليسوف كان بمثابة الأساس لحل الأزمة.

في ٢٨ تشرين الأول ـ أوكتوبر، أعلن خروتشيف أن جميع مواقع الصواريخ في كوبا سوف يتم تفكيكها؛ وبالمقابل، أكدت الولايات المتحدة بأنها لن تجتاح كوبا وأن صواريخها الجوبيتر الموجودة في تركيا سوف يصار إلى سحبها.

وبالرغم من كل هذه التنازلات، فإن ضربة البوكر التي لعبها خروتشيف، قد انتهت بفشل ذريع مشهود.

وبقي أمام خروتشيف أن يواجه غضب فيدِل كاسترو، الذي ثار لأن موسكو قامت بتسوية العملية دون أن تكلف نفسها عناء استشارته. وكانت مسؤولية ألكسندر شيتوف، الذي كسب صداقته أن يحاول تهدئته.

وأخذ هذا الأخير، في ما بعد، يتفاخر في المركز لأنه أصبح حقًا المستشار الشخصي للزعيم الكوبي طوال مدة الأزمة.

كان كاسترو يعتبر السفارة السوفياتية بيته الثاني حيث كان يلذ له أحيانًا تحضير أطباق صغيرة بصحبة شيتوف.

أما أوليغ بنكوفسكي، الذي لعبت معلوماته دورًا عظيمًا إن من ناحية النشوء أو التصميم على تحقيق عملية كوبا، فقد ألقي عليه القبض في الوقت الذي وصلت فيه إلى ذروتها.

---

١ - Detzer David, *The Brink: Cabun Missile Crisis 1962*, Tomas. Y. Crowel (New York,1979), PP. 236-237 .

أما التحقيق الذي انتهى بتوليه المديرية الثانية "لمكافحة التجسس"، فقد بدأ بقصة غير ذات بال في مراقبة السفارة البريطانية في بداية عام ١٩٦٢.

كانت مديرية أمن الدولة تعتقد حتى العام ١٩٥٩، بأن المخابرات السرية الغربية لم تكن لتتجرأ على إقامة علاقات وروابط مباشرة مع عملائهم السوفياتيين، إلا خارج أراضي الاتحاد السوفياتي، وأنهم كانوا يلجأون في الداخل إلى اتباع أسلوب صناديق الرسائل.

وفي تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٥٩، ألقت مديرية أمن الدولة القبض على الليوتنانت كولونيل في "الوكالة السوفياتية للاستخبارات الحربية GRU" بيوتر بوبوف، الذي كانت قد ألحقته CIA بخدمتها قبل ذلك بست سنوات، في فيينا، والذي كان ينقل المعلومات لضابطه بطريقة "النَّشل" (كان الضابط يأتي للقائه، ويصطدم به عندما يصل إلى محاذاته ثم يأخذ المعلومات دون أن يتوقف).

وكانت نتيجة تلك العملية، أن مدير الدائرة الثانية العامة، الجنرال أوليغ ميكايلوفيتش غريبانوف، قرر وضع سفراء الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى تحت المراقبة الدائمة، على مدى عدة أسابيع، وذلك مرتين سنويًا.

وامتدت هذه العمليات الفظيعة لتطال عائلات الديبلوماسيين، والصحافيين المعتمدين في موسكو، ورجال الأعمال، حتى الموظفين في السفارات، ودعت إلى حشد كتائب وفرق من المراقبة التابعة للمديرية السابقة بناء على أوامر من المديرية الثانية العامة.

وهكذا، استطاع فريق من المراقبين التوصل إلى زوجة الضابط المرتبط ببنكوفسكي في موسكو، جانيت شيزولم، منذ خروجها من السفارة البريطانية حتى

وصولها إلى حي "أربات" حيث كان عليها القيام بتسليم أفلام قام السوفياتي بتأمينها، واستطاعوا مشاهدة حركة "النشل" (حين اقترب منها السوفياتي المجهول، لأخذ ما تحمله، باللمس الخفيف السريع)، ولم يستطيعوا حينذاك التعرف على السوفياتي. وتبعها رجلان من مجموعة فريق المراقبين وهي في طريق العودة، ولكنهما لم يوقفاها وفق الأوامر التي وصلت إليهم. وانطلق الاثنان الآخران في أثر بنكوفسكي، بيد أنهما ما لبثا أن فقدا أثره بعد عشرين دقيقة من الملاحقة.

ولا شك في أن المديرية الثانية العامة، كانت تعلم بوجود عميل سري لبريطانيا في موسكو، يعمل في "المخابرات التجسسية السرية"، وربما كان ثمة شبكة كاملة، بالرغم من عدم الإشارة إلى بنكوفسكي إذ لم يحث شيء يشير إلى وجوده.

وكان لزامًا على جميع ضباط الوكالة السوفياتية للمخابرات الحربية، ومديرية أمن الدولة، الذين قاموا بزيارات إلى السفارات الغربية توضيح الأسباب التي دعت لذلك، مع الإشارة إلى ضرورة إيضاح أسباب الزيارات المقبلة فيما بعد. أما بنكوفسكي، الذي كان مفروضًا عليه حضور استقبال في السفارة البريطانية، فإنه لم يتقيد بالأمر. وقد وجهت إليه المديرية الثانية العامة، اللوم وانتقدت سلوكه، ولكن سيروف، رفيق الشراب الملازم لبنكوفسكي، فكتب تقريرًا لمصلحته، واتخذ الجنرال غريبانوف قرارًا بإخضاعه للمراقبة في بيته، وفي مكتبه... وتمكن خبراء من تثبيت كاميرا ممكن تشغيلها من مسافة بعيدة، في حوض للأزهار في الشقة المجاورة؛ وبهذا الأسلوب استطاعوا رؤية بنكوفسكي وهو يأخذ الراديو ويبحث عن موجة محددة، فيصغي إليها باهتمام ثم يسجل بعض الملاحظات.

في تموز - يوليو ١٩٦٢، وخلال زيارة رجل الأعمال البريطاني غريفيل واين إلى موسكو، اقترف العميل للمرة الثانية، عملاً شاذًا وغريبًا.

كان واين "ساعي البريد" لدى المخابرات البريطانية السرية، وذهب بنكوفسكي ليراه في فندق أوكرانيا، وهذا ما اثار شكوك المديرية الثانية العامة حوله.

بالإضافة إلى ذلك، ولكي يخفي صوته خلال حديثه، فقد أدار الراديو وفتح صنابير المياه في غرفة الاستحمام. بيد أن التقنيين العاملين لدى غريبانوف، وخبراء التنصت تمكنوا من فك رموز والتقاط شذرات من حديثهما السري، بنسبة ما جعلهم يتأكدون أنهم بصدد التعامل مع جواسيس!.

وأرسلت المديرية الثانية العامة العائلة التي تسكن في الطبقة التي تعلو شقة بنكوفسكي في إجازة إلى شواطئ البحر الأسود، وأحدثت ثقبًا في سقف شقة العميل وحشرت كاميرا لاقطة للصوت: شاهدوا بنكوفسكي خلال استغراقه في العمل وهو يستعمل جهاز المينوكس، وكتبًا خاصة بالاصطلاحات وأوراقًا للشيفرة. وقررت المديرية الثانية، بعد ذلك، أن تقوم بحملة تفتيش شاملة في منزله بحيث تقلبه رأسًا على عقب؛ ولأجل إتمام المهمة كان عليها إبعاد بنكوفسكي، لعدة أيام.

لذلك، فقد قام بعض الأخصائيين بالمواد السامة في مديرية أمن الدولة، بطلاء المقعد الذي يجلس فيه بنكوفسكي بمادة مسممة جعلته يمرض مرضًا شديدًا.

شرح الأطباء في الوكالة السوفياتية للمخابرات الحربية، الذين اطلعوا على القضية، لبنكوفسكي ضرورة انتقاله للمستشفى للخضوع للعلاج عدة أيام فيها... واكتشفت الـ KGB خلال غيابه الأجهزة والعدة الخاصة بالجاسوس الكامل الممتاز. لكنها لم تلق عليه القبض سريعًا، ظنًا منها بإمكانية اكتشاف شبكة كاملة.

كانت مراقبة الاتصالات والرسائل المتداولة، إضافة إلى تغلغل الـ KGB في قلب وكالة الأمن الوطنية (الولايات المتحدة)، والتسلل إلى داخل السفارة

الأميركية في موسكو، بالتأكيد، مصدر المعلومات السوفياتية الهامة خلال أزمة الصواريخ.

ويبدو أن خروتشيف، "قد هنأ الوكالة السوفياتية للاستخبارات الحربية GRU على تأمينها المعلومات بفضل آلات التنصت التلفونية الموضوعة في واشنطن في الأماكن الرسمية، مما ساعده على توضيح الأحداث والتوصل إلى حل الأزمة".

علاوة على السرعة التي تطورت فيها الأحداث، والسر المحيط بالمداولات في "Excom"، فإن أجهزة التنصت لم تستطع تأمين سوى جزء محدود جدًّا من القرارات التي اتخذها الرئيس الأميركي وفريقه الصغير من مجموعة المستشارين.

ويبدو أنّه بنقل مدير الـ KGB الطارئ إلى واشنطن، فيكليسوف، لم يعد هناك أيّ معلومات قيمة.

وكان أهم مصدر للمعلومات التي كان يستقيها فيكليسوف إبّان تلك الأزمة عميل يدعى "ساشا"، كان يشبه بنكوفسكي بعض الشبه.

كان "ساشا" ضابطًا في المخابرات الحربية الأميركية، التحق بالعمل عام ١٩٥٩ بواسطة ميخائيل ألكسندروفيتش شيلبين، عندما كان متمركزًا في ألمانيا. وتعلق بإحدى الألمانيات التي أضبحت محظيته؛ وكانت تلك الألمانية مبذرة جدًا، لذلك أثقلته بالديون. فدفع إلى "مديرية أمن الدولة" KGB مجموعة من الوثائق، مقابل الحصول على بعض المال، حسب تعبير نوسنكو.

وكان "ساشا" يعيش في واشنطن، حيث تركز فيها في عام ١٩٦٢، ولكنه لم يتمكن من التوصل إلى أوراق "الايكسكوم" وكان عاجزًا عن تأمين معلومات ذات قيمة. وقد عاش "ساشا" واستمر، بعد أزمة الصواريخ، لكن بنكوفسكي وقع بين أيديهم. ففي أكثر

اللحظات دراماتيكية، فاجأته الكاميرا الموضوعة في ثقب السقف في شقته فالتقطت له صورة أثناء محاولته تزوير جواز سفر، وتخوفًا من أيّ خطة للهرب كان يعدّها بنكوفسكي، قرر غريبانوف توقيفه حالاً، ولم تعلم دائرة المخابرات السرية البريطانية، ولا وكالة المخابرات المركزية في الولايات المتحدة، بالنبأ إلا في ٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر.

وفي اليوم نفسه، كانت إشارة موضوعة على عامود النور في الشارع في موسكو تعلن لمركز CIA أن بنكوفسكي قد ترك لها أغراضًا في أحد صناديق الرسائل.

أما الضابط الذي جاء لالتقاطها من قبل وكالة التجسس المركزية الأميركية، فقد سارعت مديرية أمن الدولة لإلقاء القبض عليه، لكن ذلك التوقيف لم يمنعه من الادعاء بأنه يتمتع بحصانة ديبلوماسية. وقد أثار ذلك التوقيف خصومة بيروقراطية مضحكة جدًا في داخل المديرية الثانية العامة...

في الحقيقة، كانت مديرية أمن الدولة تعتقد حتى ذلك الوقت، أن "المخابرات السرية البريطانية SIS" هي الوحيدة التي كانت تسيّر وتدير بنكوفسكي.

لذلك، فإن الإدارة الثانية (انكلترا، كندا، وأستراليا) هي التي تولت الضابط في CIA، بينما رفضت المديرية الثانية العامة أن تنقل الخبر إلى الإدارة الأولى (الولايات المتحدة)، ولم يشأ الضابط الذي أوكلت إليه عملية التوقيف، أن يصدق بأن سجينه كان أميركيًا، بل إنه بريطاني. ودهش الضابط في وكالة التجسس المركزية الأميركية، وأظهر هويته، مما اضطر الدائرة الثانية، بأسف بالغ، أن تتقاسم مع الإدارة الأولى، كل ما يتعلق بقضية بنكوفسكي.

وتعرّض هذا الأخير للعذاب وللآلام العنيفة إبّان استجوابه النهائي، ثم حكم عليه بالموت وأعدم رميًا بالرصاص في شهر أيار ـ مايو ١٩٦٣...

أدى اكتشاف خيانة بنكوفسكي إلى فضيحة رفيقه في الشراب، وإلحاق العار به، الجنرال سيروف، رئيس مديرية أمن الدولة القديم، الذي أقيل من منصبه وجميع أعماله على رأس الوكالة السوفياتية للمخابرات الحربية.

وبعد فترة من الوقت، لجأ إلى الشراب من جديد، وفيما كان تحت تأثير الشراب، أطلق النار على رأسه في الساحة الخلفية في شارع أربات.

وظهر نعي مختصر في الصحف في صفحة الوفيات؛ وكان موقّعًا من "مجموعة من الرفقاء القدامى" الذين لم يذكروا أسماءهم[1].

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٥١٤ ـ ٥٤٤.

الحربُ البَاردة. . . حاميةٌ في الشرق الأوسط

عرفت صعوبات الإتحاد السوفياتي في الستينات للمحافظة على تفوّقه في العالم الشيوعي، لا سيّما في بكين وبراغ، بعض التعويضات بفضل تأثيره المتزايد على العالم الثالث.

ففي الشرق الأوسط حققت الدبلوماسية السوفياتية وعمليات الـ K.G.B أكبر النجاحات. في هذه المنطقة، ترك تآكل نفوذ بريطانيا وفرنسا بعد الحرب فراغًا عجزت الولايات المتحدة عن سدّه نتيجة التزامها بإسرائيل.

وتوفّرت الفرصة للاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٤ للبروز كبطل للقضية العربية مع وصول عبد الناصر إلى السلطة.

في السادسة والثلاثين من عمره، كان هذا الأخير رئيس الدولة الأوّل المصريّ حقًا الذي حكم بلادًا مستقلة للمرة الأولى منذ إسقاط الفُرس للفرعون الأخير عام ٥٢٥ قبل المسيح. وقد كتب ذات يوم: "وأنا طفل، كنت كلّما رأيت طيارات تحلّق فوق بلادي، صرخت: أيّها الإله الكليّ القدرة، أضرب الإنكليز بكارثة".

لم يعرف العالم العربي المعاصر وطنية كالتي أوصى بها عبد الناصر أو جاذبية كالتي مارسها على الجماهير.

---

١ ـ عبد الناصر جمال، فلسفة الثورة (القاهرة،١٩٥٤) ص. ٤١.

خلال الستينات، أصبح ضحية بلاغته المشتعلة والصورة البطولية التي نجح في إعطائها عن نفسه. لكن، في عهد نجاحاته الأولى على رأس مصر، بدا مصنوعًا من نسيج الأبطال. وفي ١٩٥٤، بعد فترة قصيرة من وصوله إلى السلطة، نجا من محاولة اغتيال خلال اجتماع عامّ، وجُرح رجلان يقفان قربه وانبطح كلّ الموجودين على الدكة للاختباء، أمّا هو فلم يتحرك، وقال: "ليقتلوا عبد الناصر: ليس إلاّ رجلاً بين الرجال، وليعش أو يمت ستستمر الثورة!"...

في ١٩٥٥، صُدم الغرب بإعلانه نيّته شراء كميات كبيرة من الأسلحة بواسطة تشيكوسلوفاكيا... اتفاق عُقد بشكل سرّي للغاية حتى أنّ سفير مصر في موسكو لم يعرف به. وتلقى الاحتكار الغربيّ لبيع الأسلحة في الشرق الأوسط ضربة قاضية.

في تموز - يوليو ١٩٥٦، أمّم الرئيس قناة السويس التي أُديرت حتى ذلك الحين من قِبَل "شركة قناة السوس" الموجودة في باريس، وترمز بتفوّق إلى الاستغلال الغربي بنظر العرب. وجعلت المحاولة الفاشلة الفرنسية - البريطانية والمتفق عليها مع إسرائيل في تشرين الثاني - نوفمبر لإستعادة السيطرة علىالقناة بقوة السلاح، من عبد الناصر معبود العالم العربي - طبعًا باستثناء مرشديه الأكثر محافظة.

عام ١٩٥٨، حين زار الاتحاد السوفياتي لمدة ٣ أسابيع، استُقبل الرئيس استقبال الأبطال؛

توجهت الطبقة الحاكمة كلّها في الاتحاد السوفياتي إلى مطار موسكو لانتظاره عند نزوله من الطائرة، وكان ضيف الشرف في عَرضْ أوّل ايار - مايو حيث حَضَرَه من أعلى الشرفة التي تشرف على ضريح لينين في الساحة الحمراء.

عند عودتـه، شرح للجمهور الكبير المتجمّع أمـام مقرّ الرئاسـة فـي القـاهرة أنّ الاتحاد السوفياتي "بلد صديق دون قصد سيء" ويكن للعرب احترامًا كبيرًا[1]".

رغم ذلك، عرف شهر العسل بين عبد الناصر والكرملن فترات من التوتـر. فقد أحـدث اضطهـاد القائد المصـري للشيوعيين فـي مصـر وسـوريا، خـلال فترة وحـدة البلدين، من ١٩٥٨ حتى ١٩٦١، وتشهيره بالشيوعيين في العراق، إلى نزاعات جدّيـة. ومن المؤكد أنّه بعد انتقاد عبد الناصر علانية السياسة السـوفياتية عـام ١٩٥٩، تقرّبـت منه الـ CIA وعرضت عليه مساعدة أميركية[2].

رغم ذلك، في بداية الستينات، كان خروتشيف والمركز في موسكو، لكن ليس كـلّ المجلس الأعلى هناك، مقتنعين أنهـم أمـام "ميزان جديـد للقـوى" فـي الشـرق الأوسط، عليهم اسـتغلاله فـي صراعهـم ضـدّ "العـدوّ الرئيسـيّ". ومثـل مصـر، توجهـت سـوريا والعراق ضدّ الولايات المتحدة.

وفي ١٩٦٢، قاد بن بللاّ الجزائر على طريق الاستقلال وعيّن عـدة شـيوعيين فـي حكومته. ودعّمت الإهانة التي تلقاها الاتحاد السوفياتي خلال أزمـة الصواريـخ الكوبيـة تصميم خروتشيف على التفوّق في صـراع النفـوذ ضـد الولايـات المتحـدة فـي الشـرق الأوسط، وشجّع أيضًا انتصار فيديل كاسترو في كوبا سياسة تحالفات جديدة فـي العـالم الثالث مع الوطنيين المعادين للأمبريالية... حتى ولـو أظهـروا ميـولاً إيديولوجيـة قابلـة للاعتراض... مكان الثقة المعطاة تقليديًا للأحـزاب الشـيوعية "الأرثذوكسـية" المسـتعدّة للتقيّد بموسكو.

---

١ ـ راجع: Dawiska *Karen, Soviet Foreign Policy Towrds Egypt,* (London,1979) ch. 2 & 3.

٢ ـ السادات أنور، البحث عن هوية، منشورات كوليتز (لندن، ١٩٧٨) ص ١٥٤.

خلق الإيديولوجيون السوفيات مفاهيم "الطريق اللارأسمالية" و"الديمقراطية الثورية" ليحدّدوا مرحلة متوسطة بين الرأسمالية والاشتراكية توصّل إليها بعض قادة الدول في العالم الثالث. وفي ١٩٦١، اعتُبر قرار عبد الناصر بتأميم قسم كبير من الصناعة دليلاً مشجعًا على تقدّمه على "الطريق اللارأسمالية".

خلال الستينات، وضع السوفيات فيه آمالاً أكثر من أيّ زعيم آخر أفريقي أو آسيوي. وتلقت مصر وحدها، من ١٩٥٤ حتى ١٩٧١، ٤٣٪ من مجمل مساعدة الاتحاد السوفياتي في العالم الثالث.

عام ١٩٦٥، حُلَّ الحزب الشيوعي المصري وطلب أعضاؤه الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي العربي في الحكم.

كان مردّ العطف الذي أبداه الـ K.G.B لتملّق عبد الناصر السهولة التي توصّلت بها المؤسسة السوفياتية جزئيًا إلى تجنيد عملاء في محيطه. وأهم هؤلاء سامي شرف، رجل صغير مكرّش ذو شارب مُتَدَلٍ ويحمل اسمًا اصطلاحيًا غير محتمل هو "أسد". وفي ١٩٥٩، مزوّدًا بالقلب الخادع لمدير مكتب استعلامات الرئيس، أصبح رئيس مصالح المخابرات المصرية وأحد المستشارين الأشد قربًا من عبد الناصر. وكان ضابط علاقته، فلاديمير فاسيليفيتش كيربيتشنكو، سفيرًا مقيمًا في القاهرة من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٤. وسمحت له مهارته بقيادة عملائه بصعود سلالم المركز سريعًا حيث توصّل أخيرًا إلى منصب المعاون الأوّل لمدير المجلس الإداريّ الأوّل العامّ (جاسوسية) في الـ K.G.B.

كان شرف مسؤولاً عن المراقبة الأمنية المتعلّقة بموظفي الحكومة المصرية، ويملك بالتالي قدرة التنصّت على كل مخابرة هاتفية ذات أهمية له أو للـ K.G.B. وعمل أكثر أيضًا من أجل المؤسسة السوفياتية حين أعطاها فرصًا جديدة للتجنيد وذلك

بإرساله حسب الأصول موظفي استعلامات إلى موسكو. وكان عبد الناصر يعي جيدًا التعاطف السوفياتي للعديد من وزرائه، من بينهم علي صبري الذي أصبح رئيس وزراء عدة مرات ورئيس الاتحاد الاشتراكي العربي ونائب الرئيس. لكن يبدو أنه اعتبر شرف نفسه قوميًا عربيًا متحمّسًا يرغب في تأمين دعم الاتحاد السوفياتي قدر الإمكان دون المساس بسيادة مصر. ولعب كيريبيتشانكو على وتر الغزو معه فأكّد له دومًا اهتمام خروتشوف ثم بريجنيف بالمعلومات التي يعطيها. وحين التقى شرف أخيرًا بريجنيف في المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي بعد سنة من موت عبد الناصر، أفاض في تأكيد صداقته وعرفانه بالجميل: "أردت أن أشكر الرفيق بريجنيف لإعطائي، رغم كثرة مشاغله، فرصة لقائه... لا أشك في أنها خطوة خاصة منحت لي شخصيًا.. أما أن تستمرّ علاقاتنا دومًا ولا تتعرض لأيّ انقطاع، وأن تكون الأيام المقبلة والمواقف التي سنأخذها دليلاً صادقًا على الصداقة بين الجمهورية العربية المتحدة (أي مصر) وبين الاتحاد السوفياتي، بين أحزابهما، شعبيهما وحكومتيهما... وبما أنّ سامي شرف هو ابن رئيسنا الكبير جمال عبد الناصر... لديّ القناعة أنه يحتلّ في نظر أصدقائه السوفيات مركزًا خاصًا".

رغم الاحترام العامّ الذي أظهره الكرملين لعبد الناصر، فقد بلغت شهرته كبطل لا يُقهر في العالم العربي درجات مفرطة وأصبحت، في المركز كما في غيره، موضوعًا للعديد من النوادر الخاصة.

وفي ١٩٦٤، حصل الرئيس ورئيس مجلس القيادة على أعلى وسام في الاتحاد السوفياتي، وسام "بطل الاتحاد السوفياتي" والذي لم يمنح حتى ذلك الحين لأيّ غريب (وكان هذا أحد أهم الشكاوى ضد خروتشيف خلال اجتماع المجلس الأعلى حيث قُرّر رحيله متقاعدًا)

هذه الترقية المزدوجة أعطت مجالاً لسلسلة من الطرائف والأغاني الشعبية جدًا في المركز بموسكو... ولم يمنع ذلك في نفس الوقت من ظهور إحساس مبالغ فيه للغاية بالثقة في التأثير السوفياتي في الشرق الأوسط. وبدا "ميزان القوى" أكثر فأكثر معاكسًا للغرب. وكان النظامان الرئيسيان المواليان للغرب، وهما النظام الملكي في الأردن والسعودية، يترنّحان تحت ضغط القومية العربية. وفي الكرملن والمركز والقيادة العسكرية العليا، إقتنع معظم المسؤولين بتحوّل الجيش المصري بفضل التجهيزات والتدريب السوفياتيين. واعتُقد بإمكانية تفوّق مصر في حرب ضد إسرائيل بمساندة سوريا والأردن. رغم ذلك، علا صوت شاذ وسط هذا الاتفاق المتفائل. ففي نيسان ـ إبريل ١٩٦٧، ذهب نيقولاي غريغوريفيتش إيغور يتشيف إلى مصر وعاد مقتنعًا بضرورة المساعدة العسكرية المتزايدة، لهذا البلد كما لسوريا، للتأمّل بتحقيق انتصار ضد إسرائيل. وكتب بهذا المعنى تقريرًا لم يأخذه أحد بعين الاعتبار. وفي ربيع ١٩٦٧، وبينما كان التوتر يتصاعد بين مصر وإسرائيل، عكست علاقات شرف بعبد الناصر تفاؤل "المركز" بالنسبة "لميزان القوى".

يوم الإثنين ٥ حزيران ــ يونيو ١٩٦٧، في الساعة ٨ و٤٥ دقيقة (حسب توقيت القاهرة)، حدّد هجوم إسرائيلي مفاجئ بداية الحرب العربية ـ الإسرائيلية الثالثة. جاءت نتيجة هذه الأخيرة بعد ٣ ساعات. في الواقع، كان هذا هو الوقت اللازم للطيران الإسرائيلي ليدمّر ٢٨٦ طائرة محاربة من أصل ٣٤٠ تملكها مصر، وإجبار الجيش المعادي بعد ذلك على القتال في سيناء دون تغطية جوية. ولم يجرؤ أحد من جنرالات عبد الناصر على إبلاغه بتدمير طيرانه قبل ١٦ ساعة. حين علم بالخبر، إقتنع أنّ الإسرائيليين تلقّوا المساعدة من الطيران الأميركي والبريطاني.

في سيناء، كانت مصر تملك نفس عدد الدبابات ورجالاً أكثر من إسرائيل. وفي غضون ٤ أيام، خسرت ٧٠٠ دبابة و ١٧,٠٠٠ جندي، قتلاً أو أسرًا. في الحال، أعلن الرئيس إستقالته... لكن تظاهرات ملايين المصريين الذين كان يجسّد بالنسبة لهم القومية العربية، أقنعته بالبقاء في منصبه.

خارج العالم العربي، استهزئ بالهزيمة العسكرية لمصر وحليفتها سوريا. وشجعت الدعاية الإسرائيلية هذا الميل بمهارة، خاصة بترويج إشاعات زعمت جُبْن العرب في المعركة. وصُوِّر سجناء حرب مصريين بجانب دبابات سوفياتية سليمة يلبسون ثيابهم الداخلية فقط، وفي أوضاع أخرى غير ملائمة[1]... ولم ينفصل الكرملين علانية عن مصر، واستنكر هذا العدوان الإمبريالي وقطع علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل... لكن انتُقد في موسكو، على حِدة، بعنف، ما سُمّي بلا أهلية الجيوش العربية، وغُضب من كمية الأدوات الحربية السوفياتية التي أسرتها إسرائيل. وفي المركز بموسكو، إعتُقد دومًا بوجود مؤامرات صهيونية لكن، وكما لاحظ غورديفسكي، ساد شعور جديد من الإعجاب المتحفّظ بالإنتصار الإسرائيلي...

تركت هزيمة الستة أيام من الحرب خيارين للكرملين: إمّا أن ينسحب "منقذًا الأثاث" وإمّا أن يعيد تأهيل الجيوش العربية. وقد اختار الثاني. وذهب الماريشال ماتفي زاخاروف، رئيس مجلس القيادة العامّ، إلى مصر مع الرئيس بودغورني وأقام فيها بعض الوقت ليرشد المصريين إلى إعادة تنظيم وتجهيز جيشهم - في هذه الفترة، بلغ عدد المستشارين السوفيات في مصر ٢٠ ألفًا. وكان عبد الناصر الذي تمنّى قبل كل شيء إستعادة صورة البطل في العالم العربي، مستعدًا للقيام بتنازلات أكبر ممّا قام به

---

١ - Stephens Robert, *Nasser: A Political Biography,* (New York,1971), Chap. 18.

قبل الحرب مقابل المساعدة السوفياتية. وحدّدت موسكو لنفسها هدفًا إحترابيًا هو إقامة قواعد عسكرية في مصر، وبقدر أقلّ، في سوريا، العراق والجزائر. وتكاثر الوُجود البحري السوفياتي في المتوسط بشكل كبير بفضل إمكانيات الإصلاح والتموين الجديدة في مرافئ الإسكندرية، بور سعيد، مرسى مطروح وسلّوم كما في المرفأ العراقي أم قصر وفي عدن في الجمهورية الديمقراطية الشعبية اليمينية. في ١٩٧٠، وبطلب من عبد الناصر، رُكِّبت قواعد جوية سوفيتية مجهزة بصواريخ سام ـ ٣ وبطائرات طواقمها سوفيتية لدعم الفاع الجويّ المصريّ[١].

وأخبر مستعرب في المجلس الإداري الأوّل العام (جاسوسية) في الـ P.D.G، بوريس بوتشاروف، موظف في الخطّ "ن" في القاهرة، غورديفسكي أنه انتقل إلى الخط PR ليتمكّن من "توجيه عميل مهمّ للغاية في البيروقراطية المصرية بفضل التَّعلُّم بالعربية". وأحرز سيرغي ميخائيلوفيتش غولوبيف، السفير المقيم في القاهرة من ١٩٦٦ حتى ١٩٧٠، بعض النجاحات في تجنيد العملاء، ممّا منحه ترقية عند عودته إلى موسكو. وكانت "الجمهورية السوفياتية المصرية" موضوعًا للكثير من الطرائف في المركز... وكان نفوذ الـ K.G.B في الإدارة المصرية في أَوْجه. لكنّ أسس هذه التوظيفات المهمة، المادية منها والنفسية، بقيت عابرة. ففيض المستشارين هذا يؤكد عل وجود هوّة بين المجتمعين السوفياتي والمصري. ولم يَقُمْ السوفيات والمصريون أبدًا عمليًا بزيارات لبعضهم البعض. حوالي النصف من الـ ١٥,٠٠٠ عربي الذين درسوا في الولايات المتحدة أواخر الخمسينات وخلال الستينات، تزوّجوا من أميركيات بينما بقيت الزيجات بين المستشارين السوفيات والعرب قليلة...

---

١ ـ هيكل محمد حسنين، طريق رمضان، منشورات كولينز (لندن،١٩٧٥) ص٨٣.

بدأ صرح التأثير السوفياتي الهشّ بالتفكّك بعد موت عبد الناصر المفاجئ في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٠. وبعد عشرين عامًا، كان وزير الشؤون الخارجية آنذاك، أندريه غروميكو، لا يزال مقتنعًا أنّه "لو عاش عبد الناصر عدة سنوات أخرى لاختلف الوضع في هذه المنطقة كثيرًا عمّا هو عليه اليوم"...

وشرح ألكسيس كوسيغين، رئيس الوزراء، لأنور السادات، خليفة عبد الناصر، ما يلي:

"لم نكن نخفي عنه شيئًا، ولم يكن يخفي عنّا شيئًا"،

وكان يعي بالطبع عبثية النصف الأول من الجملة؛ أمّا بالنسبة للنصف الثاني فقد كان على الأرجح جدّ صحيح بفضل شرف وغيره.

يوم تسلّمه مهامه، حدثت مواجهة للسادات مع شرف في مكتبه. وقد جرت على الشكل التالي:

"كانت معه حزمة أوراق يريد أن يطلعني عليها. سألته: "ما هذا؟"

ـ "نصّ مضروب على الآلة الكاتبة للمخابرات الهاتفية لبعض الأشخاص الذين كنا نراقب مكالماتهم".

ـ "متأسف"، قلت له. "لا أحبّ قراءة الحماقات... وعلى أيّ حالى، هل لك الحقّ بمراقبة هذه التلفونات؟ إرفع هذا الملفّ". ودفعته بيدي".

لكنّ الرئيس المصري الجديد إهتمّ "بهذه الحماقات" أكثر ممّا أظهر أمام شرف... مثلاً، في ١١ أيار ـ مايو ١٩٧١، حين أحضر له ضابط شاب في الشرطة ـ قال إنه "لا يعرفه" ـ شريطًا ممغنطًا دون عِلم شرف... يثبت التسجيل، على ما يبدو، وجود مؤامرة دبّرها علي صبري ـ الذي كانت الـ K.G.B تأمل أن يخلف عبد الناصر ـ

وسياسيون آخرون موالون للسوفيات "للإطاحة بي وبالنظام". في ١٦ أيّار - مايو، أعطى السّادات الأمر بتوقيف شرف، علي صبري والقادة الآخرين للمجموعة الموالية للسوفيات داخل الإتحاد الإشتراكي العربي.

بعد ١١ يومًا، وقّع السادات وبودغورني في القاهرة معاهدة صداقة وتعاون. وقد إعترف الرئيس المصري في ما بعد بأن هدفه الأساسي كان آنذاك "تهدئة مخاوف القادة السوفيات" بإقناعهم أنه يقوم بصراع داخلي محض من أجل السلطة لا بتوجيه جديد عامّ لسياسته الخارجية. وعند مرافقته بودغورني إلى المطار، شدّد عليه أن ينقل إلى مجلس السوفيات الأعلى رسالة هي: "إذا سمحتم، ثِقُوا بنا! كونوا على ثقة! على ثقة!"... لكن، في المركز، ضعفت كثيرًا الثقة بالسادات.

بعد توقيف مجموعة صبري، ابتعد عدد من العملاء مع موظفي علاقاتهم.

كان احتمال وصول الشيوعيين إلى السلطة في السودان السبب الرئيسي، بالنسبة للمركز، للأمل بعد موت عبد الناصر. إعتبر الـ K.G.B قادة الحزب السوداني، "القادة الأشد إخلاصًا وتفانيًا" من أجل القضية الشيوعية في الشرق الأوسط.

في تموز - يوليو ١٩٧١، قُمعت بعنف محاولة إنقلاب قام بها ضباط في الجيش السوداني بدعم الشيوعيين، بمساعدة السادات. وأُعدم كلّ من السكرتير العامّ للحزب الشيوعي السوداني، عبد المحجوب، وأحمد الشيخ، الحاصل على جائزة لينين، وكثيرون آخرون. في الوقت عينه، إكتشف المركز أنّ فلاديمير نيقولايفيتش ساخاروف، وهو دبلوماسيّ سوفياتي في الشرق الأوسط وظفته الـ K.G.B - ويعمل للـ CIA، حُذّر واستطاع أن يهرب بفضل إشارة متّفَقٌ عليها: باقة زهور توضع على مقعد خلفيّ لسيارة فولسفاكن. وأحد الأسرار التي أعطاها للأميركيين، أن سامي شرف يعمل لحساب K.G.B...

في موسكو، في نهاية ١٩٧١، في جهاز الحزب كما في المركز، اعتُبر أنّ السادات بشكل عامّ خائن. فلم تعد اتصالات الجنرال أحمد إسماعيل، مدير الخدمات المصرية للاستعلامات، مع الـ CIA سرًّا على أحد.

في ١٩٧٢، طرد السادات المستشارين السوفيات: خلال أسبوع، غادر البلاد بالطائرة ٢١ ألفًا، لكنّ موسكو لم تكن بعد مستعدّة للتضحية بهذا الموقع الذي حصلت عليه بصعوبة في الشرق الأوسط، وذلك بالاختلاف علانية مع الرئيس. وقرّر بريجنيف أنّ الإتحاد السوفياتي لا يملك خيارًا آخر غير الإبقاء على مساعدته السياسية والعسكرية لئلا ينتقل السادات فورًا إلى جانب الأميركيين[١].

---

١ ـ كرستوفر وأوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٥٧٠ ـ ٥٧٦.

في عهد بريجنيف

في خلال عهد بريجنيف، حققت الكتلة السوفياتية في العالم الثالث نجاحات أكبر من تلك التي حققتها في الغرب في التسلّل على مستوى عالٍ في الإدارات، مصالح الاستخبارات والقوات المسلّحة. وكانت جمهورية ألمانيا الاتحادية الاستثناء الوحيد في الغرب. فمنحت الـ K.G.B وأكثر أيضًا حليفتها الألمانية الشرقية، الـ HVA (وكالة المخابرات الألمانية الشرقيّة)، بقيادة ماركوس وولف، فرصًا استثنائية.

كان العميد البحريّ الألماني الغربيّ هرمان لودك كمسؤول مساعد عن قسم السوفيات في الحلف الأطلسي (الناتو) مطّلعًا على موضع عدة آلاف من الأسلحة النووية التكتيكية. وقد انتحر في ٨ تشرين الأول ـ أكتوبر سنة ١٩٦٨، بعد اكتشاف صور أخذها مع مينوكْسِهِ وهي مستندات سرّيّة للغاية للناتو، في اليوم نفسه، أطلق أحد أصدقائه، الجنرال هورست وندلاند، المدير المساعد في مصلحة التجسّس في ألمانيا الغربية، رصاصة في رأسه[١].

رسميًا، استُند إلى "أسباب شخصية" لتفسير هذا الانتحار الثاني، لكنّ منشقًا تشيكيًا كشف أنه يتعامل في الواقع مع مصلحة الأمن التشيكية. وانتحر العديد من الأشخاص خلال الأسبوعين التاليين. من بينهم الكولونيل جوهان هينك، مدير مصلحة التعبئة في وزارة الفاع في بون، وهانز تشينك، موظف كبير في وزارة الاقتصاد[٢].

Thomas Paul, Le K.G.B en Belgique, Edit. J. M. Collet (Bruxelle, 1987), pp. 98-100. - ١

Frolik Josef, *The Frolik Defection*, leo Cooper (London,1975) pp. 196, 183-184.- ٢

في نفس الوقت، انتقل العديد من العلماء والفيزيائيين المشهورين الألمانيين الغربيين أصلاً إلى الشرق؛ واعترفوا بذنب التجسس العلمي والتقني. وحين أُوقف عالم آخر لم يرحل، الدكتور هارولد غوتغريد، من المركز في كارلروش، كان يملك أكثر من ٨٠٠ مستند سرّيّ.

خلال هذا الوقت، تتابع "هجوم سكرتاريي" ماركوس وولف.

في ١٩٦٧، اتُّهمت ليونور سوترلين، سكرتيرة في وزارة الشؤون الخارجية في بون، بنقل ٣,٥٠٠ مستند "سريّ للغاية" إلى الـ K.G.B بواسطة زوجها، هانز. حين اكتشفت أنّ هذا الأخير هو عميل للـ K.G.B ولم يتزوجها إلاّ لتجنيدها، انتحرت في السجن، وجُرّمت أيضًا سكرتيرات أخريات جاسوسات تعملن للـ HVA الألمانية الشرقية. من بينهنّ إيرين تشوتز (١٩٧٠) في وزارة البحث، وجيردا شروتر (١٩٧٣) في سفارة ألمانيا الغربية في وارسو.

وصل التسلّل السياسيّ أيضًا إلى أشخاص مهمين. والتقى العديد من المسؤولين في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني (ألمانيا الغربية) بانتظام موظفين من الـ K.G.B يعملون تحت تغطية دبلوماسية، واقتنعوا بقدرتهم على تذليل صعوبات الـ Ostpolitik، وكان عميل الـ HVA الأهمّ في ألمانيا الغربية هو غونتر غليوم، السكرتير الخاص لويلي براندت من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٤، كان غليوم يُعْلِمُ وولف، ومن خلاله المركز في موسكو، عن أقلّ تطوّر في الـ Ostpolitik في بون وعن العلاقات بين بون وواشنطن، بالإضافة إلى الكثير من المعلومات حول الناتو والمصالح الألمانية الغربية للأمن (مصلحة الأمن الألمانية الغربية المضادة للتجسّس).

لم يتوصّل الـ K.G.B، خلال عهد بريجنيف، إلى تجنيد أشخاص مماثلين للودك، ونيدلاند أو غليوم في الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، الحليف الرئيسي "للعدوّ

الرئيسيّ". فعملاء المراكز في هذين البلدين يحتلون مناصب ذات أدوار ثانوية أو وسيطة، ولها رغم ذلك طريق إلى أسرار ذات مستوى عال.

في بريطانيا العظمى، خلال الستينات، وجد المركز طريقة بسيطة لتجنب هذه الصعوبات.

في عهد أربعة سفراء مقيمين على التوالي: نيقولاي غريغوريفيتش باغريتشيف (١٩٦٢ ـ ١٩٦٤)، ميخائيل تيموفيفيتش تشيجوف (١٩٦٤ ـ ١٩٦٦)، ميخائيل إيفانوفيتش لوباتين (سفير مقيم بديل ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧)، وإيوري نيقولايفيتش فورونين (١٩٦٧ ـ ١٩٧١)، لم يتوقف المقرّ عن النموّ بين عامي ١٩٦٠ و١٩٧٠، وازداد عدد أعضاء الـ K.G.B والوكالة السوفياتية للاستعلامات العسكرية من حوالي الخمسين إلىأكثر من ١٢٠ عضوًا ـ أي أكثر مما في الولايات المتحدة (باستثناء الأمم المتحدة) أو في البلدان الغربية الأخرى. ونَمَت مصالح استعلامات الكتلة السوفياتية في بريطانيا العظمى بنفس السرعة. كان الهدف بوضوح هو إغراق الـ MI-5 البريطانية لإجبارها على مراقبة عدد كبير من موظفي الاستعلامات بالنسبة للوسائل التي تملكها. وحين أرسل جوزف فروليك، وهو موظف في مصلحة الأمن التشيكية، إلى لندن، شُرح له أنّ "المخابرات البريطانية ينقصها الرجال والمال لدرجة يسهل معها تجاوزها".

تحسّن الوضع أيضًا في بداية عهد فوروفين عام ١٩٦٧ حين جنّد أحد موظفيه، فلاديسلاس سافين، مُستَخْدَمًا في مكتب التسجيلات في مجلس لندن الأعلى سيريوج حسين عبد القادر، الذي له قدرة في الوصول إلى لوائح أرقام سيارات عناصر مصلحة الأمن البريطانية MI-5 أو "الفرع الخاص". هكذا أُبطلت عمليات عديدة معقدة للمراقبة المتحركة في مصلحة الأمن البريطانية بسبب سهولة تحديد السيارات المستعملة بالنسبة لموظفي الـ K.G.B.

كان العملاء الذين جنّدهم وقادهم مقرّ لندن في عهد بريجنيف في معظم الأحيان متخصصين في القطاعات العلمية والتقنية، خاصة قطاع الدفاع. في المقرّ، كان الخبير الرئيسي في الستينات في هذا المجال، هو ميخائيل إيفانوفيتش لوباتين، أحد مؤسسي هيئة جديدة هي المجلس الإداري "ث" عام ١٩٦٧. هذه المصلحة في المجلس الإداري الأول العامّ (جاسوسية) في الـ K.G.B، المتخصصة في الاستخبارات العلمية والتقنية، استُبدلت في المقرّات الخارجية بموظفين في الخطّ "X". منذ بداية ١٩٦٨، أدارها ليف نيقولايفيتش شيرستنيف، مهندس فظ لكن مؤنس، يتكلم الإنكليزية بشكل شبه كامل بلهجة كندية ويتحمّس للـ HI-FI الغربية. بالإضافة إلى ملاك مقرات الـ K.G.B والوكالة السوفياتية للاستخبارات العسكرية في لندن، أرسل كلّ من المجلس الإداريّ "ث" والوكالة السوفياتية الاستخبارات العسكرية أيضًا إلى بريطانيا العظمى موظفين تحت غطاء بعثات تجارية، كما تعاون معهم الطلاب السوفيات في الجامعات البريطانية. وأورد التاريخ السريّ للمجلس الإداريّ "ث" نجاحات كبيرة خلال الستينات في الدفاع وفي مجالات أخرى تقنية أيضًا من بينها الإلكترونيك، المعلوماتيّة، الكيمياء والصناعة الفضائية.

وعجزت مصلحة الأمن البريطانية عن مواجهة اندفاعة التجسّس العلمي والتقني هذه لا سيّما وأنها لم تستطع الحصول على إدانات في مسائل التجسّس (من المعلوم أنها فضّلت عدم لَفْت الانتباه كثيرًا إلى هذه المسألة). في حال عدم انتزاع اعترافات أو القبض على مشبوه بالجُرم المشهود، كان من المستحيل بشكل عامّ إدانة المذنبين. وتعطي دعوى جيوزيت مارتيللي عام ١٩٦٣ توضيحًا كاملاً عن هذه الصعوبات. فقد استُخدم هذا الفيزيائي الإيطالي وعمره ٣٩ عامًا، منذ سنة في مختبرات كولهام في مصلحة الطاقة الذرية. وسمحت إشارة من منشقّ من الـ K.G.B بتوقيفه: كان بحوزته

تقرير عن اجتماع مع نيقولاي كاربيكوف وموظفين آخرين في الـ K.G.B، ومفكرة لعبة ذات استعمال وحيد للاتصالات المرموزة أُخفيت في علبة سجائر مصنوعة بمهارة، وصحيفة تعليمات حول تصوير المستندات. لكن. من جهة، لا يمكن أن تعتبر حيازة عدّة الجاسوس الكاملة جريمة، ومن جهة أخرى لا يملك مارتيللي رسميًا أبدًا أيّ معلومات سريّة حتى لو كان على اتصال مع اشخاص يملكونها. واعترف أنه التقى كاربيموف لكنه ادّعى أنه ابتكر تخطيطًا ذكيًا لتحويل إحدى محاولات المساومة السوفياتية ضد السوفيات؛ فبُرِّئ.

في عام ١٩٦٥، عرفت حالة جاسوسية علمية نفس النهاية، اتُّهم كلّ من ألفرد روبرتس، مُستخدم في مصنع كوداك في ويلوستون، وجيوفري كونواي، مُستخدم آخر جنّده، ببَيْع صيَغ تغليف غير سكونية لوكالة استعلامات ألمانيا الشرقية. بما أنّ أيّ سرّ من أسرار الدولة لم يكن معنيًا في هذه المسألة، وقع الرجلان فقط تحت ضربة قانون الوقاية من الفساد. خلال الدعوى، جُرِّد شاهد الإثبات الوحيد جان بول سوبرت ــ كيميائي صناعي وعميل مزدوج (أو ثلاثي؟) يعمل لوكالة استعلامات ألمانيا الشرقية، للـ K.G.B ولأمن الدولة البلجيكية ويدّعي أنه كان على صلة بروبرتس ــ من أهليته بواسطة استجواب مضادّ ماهر، ولم تؤدِّ الدعوى إلى أيّ إدانة مع ذلك.

ويمكن أن يُفترض بإنصاف أن معظم حالات التجسّس العلمي والتقني التي اكتشفتها مصلحة الأمن البريطانية لم تمرّ أبدًا أمام أيّ محكمة لأنّه من المعقّد جَمْع البراهين والشهادات اللازمة. في معظم الأحيان، لم تُقبل شهادات المنشقين. حتى لو بدت خارج قاعة الاجتماع جدّ مقنعة، فإنها تُعتبر في الداخل "كشهادات على ذمّة الثلث". نادرًا ما أعطى التاريخ السريّ للمجلس الإداريّ "ث" أسماء العملاء لكنّه برهن أنّ الحالات التي أدّت إلى إدانة لا تمثّل إلاّ رأس الجبل الجليدي الناتئ.

في كلّ مرة أُدين فيها جاسوس في السـنوات الأولـى من عهد بريجينيف ـ ثلاثـة بالإجمال ـ كان الأمر يتعلق برجل له مشاكل مالية ويستغلّ، بواسطة المـال، وفـي ظـلّ عجز نظام الأمن.

فـي ١٩٦٥، حُكم على فرانك بوسـار، وهـو كـادر عمـره ٥٢ عامًـا فـي وزارة الطـيران البريطـانيـة، بالسـجن ٢١ عامًا لنَقْلـه إلـى الوكالــة السـوفياتية للاسـتخبارات العسكرية أسررًا تتعلـق بتطـوّر الأسلحة الموجّهـة مسـافيًا. ادّعـى أنّـه جُنّـد منذ أربـع سنوات بواسطة موظف اتصــال اسـمه الاصطلاحـيّ "غـوردون". وقـد تعـرّف بـه هـذا الأخير فـي خمّـارة "الأسـد الأحمر"، شـارع دوك، فـي وسـط لنـدن، مؤكّــدًا اهتمامــه بالمسكوكية. بعد عدة أيام من هذا اللقاء، أعطاه مبلغ ٢٠٠ جنيـه. ويبـدو محتمـلاً أكثر أن يكون بوسار عرض تلقائيًا خدماته قبل بضعة شهور. التقى نــادرًا موظـف علاقتـه، إيفان بيتروفيتش غلازكوف. طوال شهرين، وضع أفلام مستندات سرية في واحدة مـن عشر صناديق للرسائل ونال بالمقابل مبلغًا من المال متغيّرًا ــ لمرتيـن، ٢,٠٠٠ ورقـة نقد. تميّز صندوق الرسائل بقطع موسيقية مثل "رقصة السيف" أو "ليالي موسكو"، تبثّها إذاعة موسكو ضمن برامج باللغة الإنكليزية، أوّل ثلاثــاء وأربعـاء مـن كـلّ شـهر. فـي حالة وجود مشكلة، يعني الانتقال إلى "بَحَّارة القولفا" أنّ العمليات توقفت مؤقتًا...

بعد توقيف بوسار، أظهر التحقيـق أنّ سجله العدلـيّ ليس بتـولاً، لكـن سـوابقه لـم تشكّل موضوع تحقيق أبدًا. حُكم عليـه عـام ١٩٣٤ بالسـجن ستة أشـهر مـع الأشـغال الشاقة لتحريره شيكات دون رصيد من أجل شراء ساعات وبيعها بعـد ذلـك لمقرضيـن برَهْن حيازة.

في ١٩٦٨، حُكم على دوغلاس بريتن، تقنيّ في القوة الجويّة الملكية، مثل بوسـار قبل ٣ سنوات، بالسـجن ٢١ عامًـا. وكـان ينقـل معلومـات مصنّفـة "جدّ سرية" منذ ٦

سنوات بواسطة وحدات سرية للاتصال لألمانيا الشرقية في قبرص وفي لينكولنشر. جنّده موظف في الـ K.G.B (اسمه الاصطلاحيّ "إيوري") عام ١٩٦٢. خاطبه في متحف العلوم في كينسينغتون وعرّف عن نفسه كهاوي راديو مستعملاً إشارته الاصطلاحية الخاصّة: "غولف ٣ كيلو فوكستروث ليما"...

بعد شهرين، أُرسل بريتن إلى قبرص حيث بدأ بإعطاء المعلومات لموظف اتصال محلّي.

وحين أراد وَضْع حدّ لهذا التعاون، أراه الموظف صورته وهو يستلم مالاً... هذا الإبتزاز أجبره على المتابعة.

في عام ١٩٦٦، نُقل بريتن إلى قاعدة ديجبي في اللينكولينشير وتعهّده مراقب جديد في الـ K.G.B هو ألكسندر إيفانوفيتش بوندارنكو.

بعد الحكم عليه عام ١٩٦٨، أظهرت لجنة الأمن المكلّفة بالتحقيق ماضيًا صعبًا....

في قبرص، حين استدان من مطعم القوات المسلّحة الإنكليزية (NAAFI) واشتكت زوجته من علاقته براقصة، كان قد أجري تحقيق موجز معه. ومع عودته إلى قاعدة ديجبي، تفاقمت أيضًا مشاكله بعد أن رفض العديد من شيكاته لحساب ضباط الصف وفي كاراج محلي. وتوصلت لجنة الأمن إلى الاستنتاج أنّ بريتن "ممثل هزليّ جيّد وكاذب مكتمل"... وحين يقرّر إنسان من هذا النوع خيانة بلاده، يكون قد وضع السلطات الأمنية المعيّنة أمام مشكلةٍ عويصة كي تكتشف خيانته.

في عام ١٩٧٢، نال الملازم دافيد بينغام نفس حُكم بوستر وبريتن. كان يصوّر ومنذ عامين مستندات للوكالة السوفياتية للاستعلامات العسكرية GRU في قاعدة بورتسموث البحرية. كانت زوجته السبب الرئيسي في مشاكله المالية. وفي عام

١٩٦٩، بعد أن يئست بسبب ديونها الثقيلة أكثر فأكثر، اختفت عدة أيام من المنزل موكلة أشخاصًا آخرين بحراسة أولادها. وبعد زيارة السيدة لينغهام إلى سفارة الاتحاد السوفياتي في بداية عام ١٩٧٠، جُنّد زوجها كجاسوس من قِبَل ل. ت. كوزمين الذي أعطاه ٦٠٠ ليرة شارحًا له أنّ جزءًا من هذا المال يعود إلى زوجته. اشترى آلة تصوير وخلية كهرضوئية وفقًا للتعليمات التي تلقّاها. ثم التقى أمام كاتدرائية غليدفورد موجِّههُ الذي شرح له كيفية استخدام صناديق رسائل المنطقة وعلّمه تصوير المستندات. وفي عام ١٩٧٢، بعد أن عجز عن مواجهة الضغط المتعاظم للوكالة السوفياتية للاستعلامات العسكرية GRU ودائنيها، اعترف بكل شيء لرئيسه.

في لندن، كما في عواصم أخرى، عاونت الـ K.G.B مصالح استخبارات أخرى من الكتلة السوفياتية.

كانت مصلحة الأمن التشيكية أكثرها فعالية حتى الردّات التي تَبعَت سَحْق السوفيات لربيع براغ.

في عام ١٩٤٨، حصل نيقولا براغر وعمره عشرون عامًا، وهو ابن مُستخدم في القنصلية البريطانية في براغ، على الجنسية البريطانية مثل والده. وفي السنة التالية، تطوّع في الـ RAF مدّعيًا أنه أمضى كلّ حياته في بريطانيا العظمى وأنه إنكليزي بالولادة. وفي عام ١٩٥٦، ذاعت شهرته كمتخصص في الرادارات، وكان له سبيل إلى أجهزة دفاع "سري جدًا". في عام ١٩٥٩، سافر إلى بلاده الأصلية. حسب جوزف فروليك، وهو منشقّ مستقبليّ عن مصلحة الأمن التشيكية، انتظرته الخدمات السريّة بحزم. وجنّدته المنظمة التشيكية كعميل تحت الاسم الاصطلاحيّ "ماركوني" مستغلّة ميوله الشيوعية وميوله التجارية. وفي عام ١٩٦١، نَقَل براغر كلّ التفاصيل التقنية لأوليات الـ "Bleu Driver" والـ "Red Steer" لتشغيل رادارات القاذفات F المجهزة

بالقوة الضاربة النووية البريطانية. وأعلن المركز الذي يجامل نادرًا أنّ هذه المعلومة هي الأهمّ عل الإطلاق من بين معلومات مصلحة الأمن التشيكية.

خلال السنوات العشر التالية، اشتغل براغر، وهو أجير مؤسسة "الكهرباء الإنكليزية" الآن، على عدد معين من العقود السرية للدفاع ولم يتأخر بإعلام مصلحة الأمن التشيكية. وفي عام ١٩٧١، سمحت المعلومات التي أعطاها المنشقّان جوزف فروليك وفرانتيك أوغست بتوقيفه والحكم عليه بالسجن لمدة ١٢ سنة. وكانت عقوبته أشد ثقلاً لو أنّ البراهين المستخدمة أمام المحكمة لا تعود إلى جُنح عمرها أكثر من ١٠ سنوات...

في لندن، اعتبر الـ K.G.B بشكل عامّ أنّ مصلحة الأمن التشيكية مفيدة بشكل خاصّ لإقامة اتصالات مع رجال السياسة والنقابيين، وهؤلاء، تعاطفًا مع شعب خانه الغرب عام ١٩٣٨ في ميونيخ، كانوا يحذرون من التشيكيين أقلّ من الروس، ونصحت مصلحة الأمن التشيكية بتقنية خاصة في توجيه العملاء. على المجنِّد أن يرثي، باعتباره دبلوماسيًا عاديًا، لقلة الثقة بين لندن وبراغ، ثم يضيف: "لا أعتقد أنّ معظم السلطات المتكوّنة في براغ تدرك حقًا أنّ الحرب الباردة انتهت فيما يتعلق ببريطانيا العظمى. لو نستطيع فقط أن نجد "أحدًا ما" هنا يستطيع إقناع شعبنا ــ بالكتابة، طبعًا ــ أنّ البريطانيين مهتمّون بتحسين علاقاتهم مع حلفائهم القدامى"! ويحصل العملاء الذين يوافقون على كتابة تقرير علىالمال، ويعلّلون لهم ذلك بالقول: "لا نستطيع بالطبع أن نَدَعَكم تقومون بهذا العمل مقابل لا شيء". في حال الاتفاق، تتبع نصوص أخرى ويجد البرلمانيون أنفسهم في الفخّ.

هكذا استطاع مركز مصلحة الأمن التشيكية في لندن أن يضع يده على ثلاثة عملاء عماليين. وكان أشدّهم حماسًا ويل أوين من موربث وقد جنّده، بعد فترة قصيرة

من انتخابه عام ١٩٥٤، جان فاكليك (المعروف "بونفاك"). موظف في مصلحة الأمن التشيكية يعمل تحت غطاء مركز سكرتير السفارة الثاني.

رسميًا، كان "لي" اسم أوين الاصطلاحيّ في مصلحة الأمن التشيكيّة، أمّا في المركز، فيدعى غالبًا "الوغد الجشع". وحسب المنشقّ جوزيف فروليك الذي كان يعمل في مركز لندن وقتذاك، ورأى أوين في العمل، "كل مايهمّ "لي" مبلغ الـ ٥٠٠ جنيه التي ندفعها له كلّ شهر... ورغم المخاطر الأكيدة، كان يطلب دومًا رحلات مجانية إلى تشيكوسلوفاكيا كي لا يدفع بنفسه نفقات عطلته. في كلّ مرة يأتي إلى السفارة في حفلة استقبال، لا يتردد في أخْذ كمية السجائر التي يمكن لجيبه أن يَسَعَها".

خلال ١٥ سنة تقريبًا، التقى أوين عميله الوسيط وهو يذهب لانزاه كلبه باكرًا في الصباح في منتزه لندنيّ. ورغم أنه لا يحمل أيّ حافظة، فقد استطاع الدخول إلى لجنة الدفاع في مجلس العموم. وسلَّمَ "موادًا فائقة السرية ومفيدة للغاية"، حسب فروليك، عن جيش "الرّان" وإسهام بريطانيا العظمى في الـ"الناتو".

انكشف أخيرًا بعد ارتداد فروليك وموظف آخر في مصلحة الأمن التشيكية هو فرانتيزيك أوغست الذي سمع عن حالة "لي". واستقال في نيسان - إبريل ١٩٧٠ بعد أن كشف تدقيق في حسابه في البنك وجود مبالغ مالية ضخمة لم يُعلن عنها أبدًا.

في الشهر التالي، افتُتحت دعواه في أولد بايلي، محكمة جنايات لندن، لكن التهمة عجزت عن إثبات إفشائه معلومات سرية. ولم يكن فروليك وفرانتيزيك أبدًا من العاملين معه، وبما أنهما ليسا معنيين مباشرة، فقد فَقَدت شهادتهما كلّ قيمة قانونية.

بعد تبرئته، اعترف أوين بكل شيء إلى مصلحة الأمن البريطانية وحصل بالمقابل على الوعد بإيقاف كلّ ملاحقة. وسيكتب ليو أبسي فيما بعد، وهو عميل عمّاليّ ومحامٍ شهد اعترافاته: "لقد فعل أوين كل ما يستطيع ليغتصب وطنه الأمّ".

جون ستونهاوس هو المُعتمد العمّاليّ الأهمّ الذي جنّدته مصلحة الأمن التشيكية وأبلغ عنه فروليك وأوغست. تولّى بالتتابع مناصب سكرتير دولة في وزارة الطيران، وكيل وزارة في المستعمرات، وزير الطيران، وزير دولة في التكنولوجيا، وزير البريد ثم البريد والمواصلات الهاتفية في حكومة ويلسون من عام ١٩٦٤ حتى ١٩٧٠، وأصبح ضحية ابتزاز جنسي بعد أن وقع في شَرَك مصلحة الأمن التشيكية خلال رحلة إلى تشيكوسلوفاكيا في نهاية الخمسينات. حسب فروليك فإنه قَبِل مالاً أيضًا من مصلحة الأمن التشيكية: "رغم أنّه لم يكن عضوًا في الوزارة، فقد سمح لنا بمعرفة الكثير بخصوص بعض العمليّات العسكرية والمضادة للجاسوسية".

لكن لا يوجد أيّ دليل دافع عن علاقات متواصلة بين ستونهاوس ومصلحة الأمن التشيكية. وقبل سقوط ويلسون عام ١٩٧٠ بعدة أشهر، وُوجه ستونهاوس، بحضور رئيس الوزارء، بتُهم فروليك، وأوغست، لكنه نفى بشدة. وبما أنّ مصلحة الأمن البريطانية عجزت عن تقديم أيّ برهان يدعم رواية المنشقّيْن، فقد أُهملت القضية.

على أي حال، لم يثبت تصرّف ستونهاوس اللاحق كثيرًا صحة إدعاءاته بالبرءة.

في ١٩٧٤، بعد إصابته بالكثير من سوء الحظ، وضع موضع الفعل انتحارًا وهميًا واختفى مع عشيقته في أوستراليا حيث اكتُشف، ثم أُعيد إلى انكلترا. وفي عام ١٩٧٦، وجب عليه الإجابة عن ١٧ سؤال اتهام، من بينها السرقة والغشّ، وحُكم عليه بسبع سنوات من السجن.

بعد أن أمضى مدة عقوبته، نشر رواية تجسّس روى فيها كيف وقع موظف كبير في المجلس الأووبي، رالف إدموندس، في الشرك بواسطة الفاتنة لوت من المصالح السرية الألمانية الشرقية. - "لم تقُم بغير واجبها"، قال له، في نهاية الرواية، مراقب

رالف. وأمضى هذا الأخير سهرة ممتعة بصحبة لوت التي، بكثير من الإحسان، "توصل موجات اللذة حتى أصغر طيّة في دماغه".

في النهاية، بعد منافسة رائعة وأخيرة" وقبل أن ينام على التمام، "لاحظ رالف ظلّهما في مرآة كبيرة بيضوية فوق السرير". بعد وقت قصير، أُوصلت له بعض الصور التذكارية عن هذه السهرة أُخذت من خلال مرآة سقف الغرفة وهي بدون تصدير. وقَبِل التعاون.... ورغم موهبة ستونهاوس الرديئة كقاصّ، يمكن أن تكون قصة رالف مستوحاة مباشرة من تجربة مؤلفه مع مصلحة الأمن التشيكية[١].

وتبقى الحالة الثالثة من اتصال التشيكيين بالعموم - الاسم الاصطلاحيّ "كروكوديل" - غامضة حتى أنّها تتحدّى التحليل البسيط... اعتُمد توم دريبرغ، "كروكوديل"، خلال ٢٨ عامًا، وهو عضو قديم في اللجنة الوطنية التنفيذية في الحزب العمّالي وحتى حديثًا رئيس الحزب. وعندما توفي سنة ١٩٧٦، كان الثاني في المملكة المتحدة لديه الكثير من السحر وفطنة سياسية كبيرة لكنه يحيا تناقضات لا تُقهر. وتدفعه دوافعه الشاذّة إلى إشباع رغباته حتى في أشكال مخزية.

في عام ١٩٥٦، حين ذهب إلى موسكو لرؤية صديقه القديم غي برغس (الذي خصّص له سيرة حياة خادعة إلى أقصى حدّ، ينكر فيها أنّ هذا الأخير كان يومًا ما جاسوسًا)، قُرِّب درايبرغ من الـ K.G.B ووافق على إعطاء معلومات سريّة عن حياة القادة العماليين الخاصّة وعن السير الداخلي للحزب. وأخبر فيما بعد مصلحة الأمن البريطانية أنّ الـ K.G.B أعطاه محفظتين متشابهتين: عندما يعطي تلك التي تحتوي على تقاريره لعميله الوسيط، يحصل على الأخرى التي تشتمل على المال.

Stonehouse John, *Ralph*, Jonathan Cape, (London, 1982). - ١

اعترف أيضًا أنه أعطى معلومات للتشيكيين. وقد قال لمصلحة الأمن البريطانية: "إنها مهارات غير مؤذية". وحسب فروليك، فإنّ الـ K.G.B الذي كان يعتبر درايبرغ "رَجُله" أخْطَرَ مصالح الأمن التشيكية (STB) المتعاملة مع درايبرغ، أن مصلحة الأمن البريطانية تستخدمه كعميل مزدوج (وحتى ثلاثي). في النهاية، ربّما جهل درايبرغ نفسه لمن يعمل على وجه التحديد...

عميل تشيكيّ رابع مزدوج خلال الستينيات - الاسم الاصطلاحيّ "غوستاف" - لم يُعرف أبدًا. وإذا صدّقنا فروليك فإنّه جُنّد بواسطة فاكلاف تابورسكي حوالي سنة ١٩٥٥ وعَمِل مقابل مال: "لم يكن "غوستاف" بأهمية "لي"، لكنّ مركزه سمح له بإعطاء معلومات مفيدة عن سياسة حزب العمّال في بريطانيا العظمى وفي الخارج حين كان في المعارضة، وفي ما بعد تحت حكومة ويلسون، حول مسائل دفاعية". وكَوْن السير بارنيت كروس، نائب عمّاليّ من ستوك، وُلد في تشيكوسلوفاكيا ويعرف اللغة التشيكية جيدًا ومات سنة ١٩٦٧ (لم يعد يستطع إقامة دعوى إدانة)، كلّ ذلك جعل من المحتوم أن يطابقه بعض المتخصصين في التجسّس مع "غوستاف" بعد الوفاة. لكن يبقى هذا الاحتمال مستبعدًا. وأمِل كلّ من الـ STB و الـ K.G.B بتجنيد نواب محافظين لكنهما لم يبرهنا عن تمييز كبير في اختيار المَرْمى، وجهّز مركز الـ STB في لندن مشروعًا غريبًا لاجتذاب القائد المحافظ ادوارد هيث إلى براغ بحجة إرضاء ولَعه بالأرغن في إحدى كنائس المدينة. بعد ذلك يُعرّض للشبهة ثم يُجنّد. فشل المشروع كما كان مقرّرًا إذ رفض هيث الدعوة للحضور إلى العاصمة التشيكية، وتمكّن ميخائيل بتروفيتش ليوبينوف، وهو موظف في الاستعلامات السياسية في مراكز الـ K.G.B في لندن في بداية الستينات، لامع، مليء بالموهبة لكن الطموح يلتهمه، في تجنيد المعاون البرلمانيّ عميلاً. وحدّد لنفسه فيما بعد هدفًا (أخبر غورديفسكي به بعد ذلك) هو تجنيد الصحافيّ

المحافظ بريغرين ورستون (دون أيّ حظّ في النجاح)، ثم العميل الشاب المحافظ نيقولاس سكوت، وقد طُرِد عام ١٩٦٥ بعد أن حاول تجنيد عامل شيفرة.

تعرّض التقدّم المطّرد لعمليات الـ K.G.B والـ STR للخطر في بريطانيا العظمى خلال الستينات بسبب ثلاثة ارتدادت.

فروليك وأوغست اللذان انتقلا إلى الغرب خلال صيف ١٩٦٩، عملا في لندن ويبدو أنهما اكتشفا معظم العملاء البريطانيين في الـ STR، وكان ارتداد أوليغ أودولوفيتش ليالين من مركز لندن، في أيلول - سبتمبر ١٩٧١، ضربة أشدّ قسوة أيضًا للـ K.G.B. وليالين، وهو خبير في معركة المجابهة ومُطلق نار ممتاز ومِظلّي، ينتسب إلى المديرية في المجلس الإداريّ العامّ الأوّل (جاسوسية) في الـ P.D.G، الذي تأسّس عام ١٩٦٩ ليحل محلّ المديرية ١٣ القديمة التي تأثرت بشكل خطير إثر ارتداد كلّ من خوخلوف وستاتشينسكي. رغم ذلك كانت مسؤولياته أكثر اتساعًا: فعليه، في حالة الحرب أو تهديد خطير بنزاع، أن يضع خطط تخريب طارئة في الخارج تستهدف الخدمات العلميّة، وسائل النقل، الاتصالات والمراكز الحكومية الحسّاسة.

خلال ربيع ١٩٧١، قبل ستة أعوام من ارتداده تقريبًا، جُنّد ليالين توًّا كعميل بواسطة مصلحة الأمن البريطانية. وأبلغ كلّ تفاصيل الخطط التخريبية المنصوص عليها في لندن، واشنطن، بون، باريس، روما وفي عواصم غربية أخرى. وكشف أنّ عملاء المديرية في هذه المدن تلقّوا الأمر باختصار بعض الشخصيات المهمة ومراقبة رواحهم ومجيئهم لاغتيالهم في حالة قيام أزمة. تتضمّن مهمتهم أيضًا تجنيد عملاء محليين لمساعدتهم ولدعم "الغير شرعيين" في المديرية. في لندن، تنصّ مشاريع التخريب على اجتياح المترو، تفجير مركز الرادار المضادّ للصواريخ في لينغدال شمالي يوركشير، تدمير المدفعية V على الأرض ومهاجمة أهداف عسكرية اخرى،

ويشتمل عمل ليالين الرئيسي على اكتشاف الإنشاءات الحيوية التي يستطيع السبيتسناز ("القوى الخاصة") السوفيات تحريكها منذ الساعات الأولى للحرب. ولم تكن بعض الأعمال التي فكرت فيها المديرية V أبدًا أقلّ غرابة من تلك التي وضعتها الـ CIA لاغتيال كاسترو. وكشف ليالين بخاصة أنّ على العملاء السوفيات وهم يمثلون دور السعاة أو المُسلِّمين أن ينشروا في أروقة المباني الإدارية كبسولات تحتوي على سمّ لا لون له يقتل فورًا مَن يطأ فوقه.

نشرت الحكومة البريطانية تفاصيل قليلة حول القضية، لكنّ النائب العامّ أعلن مع ذلك للعموم أنّه كُلِّف "بتنظيم عمليات تخريب في المملكة المتحدة" وتحضير "اغتيال أفراد معتبرين كأعداء للاتحاد السوفياتي". سبّب ارتداد ليالين أزمة كبيرة في المركز، وطبقًا لتوجيهات صدرت من البوليتبورو على ما يبدو، صُفِّيت المديرية V واستُدعي عملاؤها في الخارج إلى موسكو.

بعد هذه القضية بفترة، أقنعت مصلحة الأمن البريطانية حكومة هيث بأن تأمر أخيرًا بترحيل ملاك الاستخبارات السوفياتي بكامله. فطُرد ٩٠ موظفًا من الـ K.G.B وفي الوكالة السوفياتية للاستخبارات العسكرية GRU من لندن، و١٥ آخرين... وخلال عطلة في الاتحاد السوفياتي مُنع من العودة بالإجمال أكثر من ١٠٥ أشخاص وأُصيب المركز بدهشة عميقة.

شكّلت هذه الإبعادات منعطفًا مهمًا في تاريخ عمليات الـ K.G.B في المملكة المتحدة، وفي منتصف الثمانينات، كانت العمليات في بريطانيا العظمى قبل عمليات الإبعاد لا تزال تُذكر كمَثَل في معهد أندروبوف. فمديرو الكليات الرئيسية في المعهد حصلوا على شهرتهم في مركز لندن قبل عام ١٩٧١. فقد كان يوري مودين، وهو مسؤول عن الاعداد في الاستعلامات الفعّالة، مراقب "العظماء الخمسة"؛ وأدار إيفان

شيشكين، الذي كان يحضرّ المجنّدين الجُدد للجاسوسية المضادة، الخطّ KR (جاسوسية مضادة وأمن في مراكز الـ K.G.B) في لندن من ١٩٦٦ حتى ١٩٧٠، وكان، حسب غورديفسكي، أفضل متخصص في مصالح الاستخبارات في بريطانيا العظمى في كلّ الـ K.G.B؛ أمّا بالنسبة لفلاديمير باركوفسكي، وهو مسؤول عن الإعداد للتجسّس العلمي والتقني، فقد حصر عملياته تلك في العاصمة الإنكليزية من ١٩٤١ حتى ١٩٤٦.

حدّد عام ١٩٧١ نهاية العصر الذهبي لعمليات الـ K.G.B. ولم يشفَ مركز لندن أبدًا من عمليات الإبعاد. وعلى عكس الأسطورة الشعبية التي اختلقتها "إفشاءات" الصحافة حول المناجذ السوفيات، فإنّ الـ ١٤ سنة التي تبعت ارتداد غورديفسكي كانت جدّ فقيرة بالاستعلامات العالية المستوى، وواجه الـ K.G.B صعوبات في لندن أكثر من ايّ عاصمة غربية أخرى، وكان عملاء الـ K.G.B والـ GRU الضئيلو العدد مراقَبين أكثر من ذي قبل. ولم يُسمح ليوري فورونين وهو السفير المقيم بالعودة إلى بريطانيا العظمى حيث كان يقضي عطلة إجبارية. وأعطت سياسة الحكومة البريطانية الجديدة - عدم إعطاء تأشيرة دخول لأي موظف مشبوه. أبدًا - ثمارها. فاستبعد كلّ مرشحي موسكو لخلافة فورونين. فعيّن عضو شاب في الخطّ KR (جاسوسية مضادة وأمن في مراكز الـ K.G.B)، إيفجيني إيفانوفيتش لازيبني، الذي عمل كموظف أمن في البعثة التجارية وأفلت من الطَرْد.

أمّن لازيبني النيابة خلال ١٤ شهرًا. وللمحافظة على تغطيته، أبقى على مكتبه في البعثة التجارية وراح يذهب يوميًا إلى السفارة ليهتم بالمركز لكنه لم يبدُ أبدًا بمستوى منصبه. وفي عام ١٩٧٢، خَلَفَه إياكوف كونستانتينوفيتش لوكازيفيكس (المعروف بـ "بوكاتشيف"). تعود شهرته - المغالى في تقديرها - إلى نجاحاته في شبابه خلال

عمليات خداع في ليتوانيا بعد الحرب. وكانت تنقص لوكازيفيكس الفطنة التي ميّزت جيل السفراء المقيمين سابقًا.

بالنسبة لغورديفسكي، فإنّه يذكّر، بثقافته المحدودة وآفاقه السياسية الضيقة، بشرطي في مدينة صغيرة في ولاية. في البدء، هنّأ المركز نفسه لعدم الطرد خلال إقامته لكن، في نهاية هذه السنوات الثمانية، لم يتقدّم إلاّ قليلاً في تجديد العمليات في بريطانيا العظمى. وألزم بعدم التدخّل وأنهى مدة عمله في منصب ثانويّ في ليتوانيا.

خلال عهد بريجنيف، نجح الـ K.G.B في تسللاته الرئيسية في مجال الاعتراض – التفكيك في بريطانيا العظمى كما في الولايات المتحدة. وبمصادفة غريبة جُنّد العميلان الأكثر أهمية بفارق بضعة أيام بعد أن عرضا عفويًا خدماتهما...

في بداية كانون الثاني - يناير ١٩٦٨، عاد العريف جوفري أرثر بريم، بعد عطلة عيد الميلاد، وحدة الاعتراض - التفكيك في ألمانيا الشرقية بين غاتو وبرلين الغربية. في المركز السوفياتي للمراقبة، أعطى موظف الحراسة رسالة يطلب فيها أن تتصل به مصالح الاستخبارات السوفياتية. بعد بضعة ايام، ترك المساعد الأول جون أنطوني والكر، وهو موظف في قيادة سلاح الغواصات الأطلنطية (COMSUBLANT) مُعين لمراقبة اتصالات الراديو، قاعدته في نورفولك في فرجينيا ليذهب إلى واشنطن. أودع سيارته في قلب المدينة، وجد عنوان السفارة السوفياتية في دليل سنويّ في غرفة هاتف، ثم نادى من بعيد سيّارة تاكسي ونزل على مرمى حجر من السفارة. هناك، طلب "أحدًا من الأمن". كان يحمل حجة ذات قيمة. دليل اصطلاحات لآلة ترميز KL-37.

رغم أن بريم ووالكر لعبا أدوارًا متشابهة في شبكة الـ K.G.B، فإنّ شخصيتيهما لا تتشابهان في شيء. فبريم هامشي على الصعيد الاجتماعي كما الجنسيّ. كان يتسكّع

بدل الذهاب إلى المدرسة وهو طفل؛ وحين أصبح راشدًا، بقي وحيدًا. عام ١٩٦٢، بدأ يقوم بمخابرات هاتفية فاحشة بسبب عجزه عن أن تكون له حياة جنسية طبيعية. في ١٩٦٩، بعد زواج أول فشل منذ بدايته، أصبحت الفتيات الصغيرات هدف اتصالاته. شيئًا فشيئًا، صار يعتبر النظام الرأسمالي مسؤولاً عن مشاكله الشخصية والمهنية. وجذبته صورة الإتحاد السوفياتي والديمقراطيات الشعبية كما تُنشر في Soviet Weekly وفي البرامج الروسية والألمانية الشرقية التي يسمعها. عام ١٩٨٢، بعد توقيفه، اعترف أنّه بدأ يعمل من أجل الـ K.G.B جزئيًا بسبب "رؤية للشيوعية الروسية شوّهها تجميل أساسه مشاكل نفسية شخصية".

لم تُعط الكلمة التي تركها بريم في مركز المراقبة في برلين إلى موظفين في المجلس الإداري الأوّل (جاسوسية) الـ K.G.B بل إلى أعضاء في المجلس الإداريّ الثالث الأكثر تواضعًا. كان هذا الأخير مسؤولاً خاصة عن أمن مراقبة القوات المسلحة السوفياتية، لكنه توصّل أحيانًا إلى تجنيد عملاء، على مستويات جدّ منخفضة في معظم الأحيان، بين القوات الغربية المرابطة في ألمانيا. وكان المجلس الإداريّ الثالث يأمل بإعلاء نفوذه بتجنيد بريم والتفوّق بذلك على منافسه. في ملاحظته، طلب بريم أن يلتقي موظف استعلامات في مطعم في لاينيز ستراس. لكن، وبواسطة رسالة أُخفيت في أسطوانة مغناطيسية مثبتة إلى باب سيارته، عُيِّن له موعد في محطة المترو فريدريشستراس في برلين الشرقية.

خلال سلسلة لقاءات مع "إغور" و "فاليا"، وهما موظفا علاقات في المجلس الإداريّ الثالث لم يعرفهما أبدًا بأسماء أخرى، خضع لعدة استجوابات محرجة. دارت الأسئلة حوله لكن أيضًا حول عمله الاعتراضيّ - التّفكيكي في غاتو. ادّعى أنّ دوافعه إيديولوجية لكنّ ذلك لم يمنعه من قبول ٣٠ إلى ٤٠ ليرة في كلّ لقاء. انتهى التزامه

في ألمانيا الشرقية في آب ـ أغسطس. بالاتفاق مع مراقبيه، حصل على منصب في القسم العامّ للاتصالات (GCHQ) حيث يعالج رسائل روسية محتجزة. قبل استلامه مهامه الجديدة في أيلول ــ سبتمبر، أمضى أسبوعيًا في شقة الــ K.G.B في كارلشورست حيث تلقّى إعدادًا في اتصالات الراديو، الاتصالات الرمَّزة، النقاط الصغيرة للكودات، التصوير بـ Minox واستعمال صناديق الرسائل. كلّ مساء، بعد الدروس، احتُجز في الشقة. قبل العودة إلى بريطانيا العظمى، ذهب بريم إلى هامبورغ حيث حصّل الاسم المزوّر "رولاندس" وصندوقًا يحتوي على لعبة كراريس ذات استعمال واحد تصلح لاستخدام كتابة سرية و ٤٠٠ ليرة بأوراق نقد مخفيّة في خانة صغيرة.

خلال ٦ سنوات ونصف، عمل بريم في مصلحة التسجيلات في الـ GCHQ، وهي مصلحة متخصصة في التسجيلات وتقع في سان دانستنس هيل. بدأ عمله في خريف ١٩٦٩ بعد أن تابع إعدادًا ونجح في مباراة لتجنيد متخصصين في اللغات الأجنبية. وعلم من رسالة راديو أنّ عليه رفع صندوق رسائل قرب إيشير في سوري. كان يحوي على كلمة تهنئة من المركز و ٤٠٠ ليرة استرلينية.

لم يكن بريم محبوبًا للغاية في الـ GCHQ حيث اعتُبر بالإجمال منغلقًا وغير اجتماعي، لكنّ أحدًا لم يشك به. في البدء، وحسب الشرح المبسَّط الموجود في تقرير للجنة تحقيق، "فإنّ الـ GCHQ كان يبحث بسبب طبيعة العمل نفسه عن مِلاكٍ يتمتع بقدرات خاصّة. لذلك كان يميل إلى اجتذاب شخصيات غريبة وغالبًا شاذة". بعد ذلك، نُسبت كآبته إلى فشل زواجه والغيظ الذي يسبّبه له تسلسل عمله. فقد اشتكى من أنّ لغويين، أكثر جدارة منه بالطبع، تقدّموا قبله فقط لأنهم يحملون شهادات جامعية.

إذا كا بريم منعزلاً، فإن لوالكر جانبيّة التَّسوّح. ففي مرافئ العالم أجمع التي يحبّ ارتياد باراتها، يهتف بسرور: "يا غلام! سأشرب جيدًا من هذا الويسكي الذي يحمل اسمي، جوني والكر".

انضمّ إلى مهنة الإجرام وهو لا يزال شابًا صغيرًا. ترك تحصيله العلمي، ولم يكن بعد قد بلغ العشرين عامًا حين تطوّع في البحرية هربًا من السجن بعد ارتكابه ٤ عمليات سطو؛ وإذ تراكمت عليه الديون بعد فشل عدة مشاريع تجارية، حاول إجبار زوجته على ممارسة الدعارة لتعويم ماليّته. وورّط والكر كلّ عائلته في نشاطه من أجل الـKGB، وحين هدّد حمل ابنته مهنته كجاسوس، أراد إرغامها على الإجهاض. ولم يمنعه مظهره القليل الظرافة من قيادة عائلته، عشيقاته، زملائه ورؤوسائه الإداريين بطرف الأنف...

عام ١٩٨٢، اختتم رئيسه تقرير أهليته بهذه الكلمات: "العريف والكر جدّ قانونيّ. إنه فخور بنفسه وبالخدمة في البحرية التي يدافع بشراسة عن مبادئها وتقاليدها. يملك إحساسًا رائعًا بالشرف، ونزاهة كاملة وحسًّا هزليًّا فائقًا. إنه وديّ، ذكيّ وقادر على الاندماج بإنسجام في فريق".

حين مُنح هذا الاحترام، كان والكر يعمل منذ ٤ سنوات كعميل للـ K.G.B، في السفارة السوفياتية في واشنطن، وبعد أن نال الإعجاب على لوازمه، أعلن أنه وصل في الـ COMSUBLANT إلى كلّ آلات الترميز وإلى مفاتيحها. وطلب ١٠٠٠ دولار في الأسبوع. فأعطي سُلفة من ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ دولار (لا يذكر تمامًا)، وأخذ موعدًا للقاء ثانٍ، بعد عدة أسابيع، في دكان تجاري كبير في ألكسندريا، أُعطي في ما بعد معطفًا كبيرًا وقبعة ذات أطراف واسعة، وأُخرج من السفارة من باب سرّي. عَبر البوابة نصف مستَلْقٍ على مقعد خلفي في سيارة، بين سوفياتيَّين.

في شباط ـ فبراير، في ألكسندريا، سلَّم لعبة كاملة من الورق مع دليل رموز. حصل بالمقابل على ٥,٠٠٠ دولار، وهو مبلغ ضخم بالنسبة للـ K.G.B في ذلك الوقت ودليل لا يُناقش على أهمية هذا المجنّد الجديد. وشُرح له أنّه، لأسباب أمنية، ستُستبعد اللقاءات من الآن فصاعدًا، إلا في الحالات الطارئة؛ ستتمّ الاتصالات بواسطة صناديق الرسائل. وحصل على تعليمات دقيقة، وعلى بطاقات وعلى صُوَر لأماكن تبادل البريد وعلى مينوكس Minox. ويقول الشرح الذي تركه والكر فيما بعد الكثير عن سهولة تصويره بواسطة المينوكس Minox للرسائل السرية للغاية ومواد الرموز في مركز اتصالات الـ COMUSUBLANT: "إنّ إمكانية اشتغال جهاز أمن الـ K MART (وهي سلسلة صيدليات في الولايات المتحدة) أكبر من إمكانية اشتغال جهاز أمن البحرية". ولم تكن زوجة والكر التعسة تجهل أنّ زوجها جاسوس. قبل طلاقهما عام ١٩٧٦، اتصلت مرتين بالشرطة الفدرالية في الولايات المتحدة بنيّة الإبلاغ عنه. وفي المرتين، نقصتها الشجاعة، وأغلقت الخطّ. حينئذ بدأت تشرب.

في نهاية الستينات، كان أوليغ كالوغين ربّ عمل الخطّ KR (جهاز الجاسوسية المضادة والأمن في مراكز الـ K.G.B) في واشنطن، وكانت إحدى مهامه الدخول إلىأوساط الاستعلامات الأميركية. وكان نجاح والكر كعميل في الـ K.G.B: منذ عام ١٩٧٠، كان الأصغر من بين جنرالاته.

في المركز، انتقد عدة ضباط ذوي رتب، نقص المهارة في إدارة العملاء المتسربين في عمليات الإعتراض والتفكيك البريطانية والأميركية. وأكّدوا أنّه، بسبب هذه الرعونات، لم نتمكن من سحب أكبر عدد ممكن من العملاء.

عام ١٩٦٣، انتحر جاك دانلاب من وكالة الأمن الوطنية (في الولايات المتحدة) لأنّ الضغط كان قويًا للغاية. وفَضح دوغلاس بريتن، وهو خُلْدٌ الـ K.G.B في ألمانيا

الغربية، بعد تحقيق روتينيّ لمصلحة الأمن البريطانية في القنصلية السوفياتية في لندن، في نفس الوقت الذي كان يحاول فيه الاتصال بوسيطه[1].

وقد ساعد تجنيد بريم ووالكر المتزامن وسرّع إعادة تنظيم الإعتراض ـ والتفكيك في الـ K.G.B. حتى ذلك الحين، كان المجلس الإداريّ الثامن مسؤولاً عن الاعتراض ـ والتوضيح، عن الكتابة بالرموز في الـ K.G.B وعن أمن اتصالاته.

عام ١٩٦٩، وضع مجلس إداريّ رابع عشر جديد متخصص في الاعتراض فقط تحت إدارة نيقولاي نيقولافيتش أندرييف. تعاون المجلس الإداريّ الجديد مع المديرية السادسة عشرة في المجلس الإداري (جاسوسية) الأول العام في الـ K.G.B الذي راقب وحده مذ ذاك كلّ عمليات الـ K.G.B الهادفة إلى الاصطلاحات والشيفرات الغربية، وتَسَرُّب المعلومات الاعتراضية ـ التفكيكي. ولم يكن عملاؤه في الخارج مسؤولين إلاّ عن حالة، في نفس الوقت، مفصولة تمامًا عن عمليات المقرّ الأخرى. وحافظوا على درجة عالية جدًا من السرية داخل المجلي الإداريّ (جاسوسية) الأول العامّ في الـ K.G.B. وكضابط مكلّف بأمن مقرّ واشنطن من ١٩٧٥ حتى ١٩٨٠، لم يكن فيتالي سيرغيفيتش إيدرتشنكو مطّلعًا على الإطلاق على وجود جون والكر، أهمّ عميل في المقرّ.

قاعدة أخرى: حرصت المديرية السادسة عشرة بدقة على عدم الالتقاء أبدًا بعملائها في البلد الذي يعملون فيه. وكانت أماكن المواعيد المفضّلة لديها فيينا، هلسنكي ونيودلهي، العواصم الثلاث الكبيرة خارج الكتلة السوفياتية التي يتمتع فيها الـ K.G.B بأكبر قَدْر من حرية الحركة.

---

١ - West Nigel, *CGHQ*, Weidenfeld and Nicolson (London, 1986), p. 249.

رغم أنّ عميلاً وسيطًا في المديرية ١٦ تعهّد والكر، فقد استمرّ المجلس الإداريّ الثالث في ملاحقة بريم رافضًا تسليم عميله البارز إلى منافسه، المجلس الإداريّ (جاسوسية) الأوّل العامّ في الـ K.G.B. وخُيِّر بين فنلندا والنمسا من أجل مواعيده مع عميله الوسيط. فآثر النمسا لأنّه يعرف الألمانيّة بالطبع. فضلاً عن ذلك، التقى بريم على الأرجح عميله الوسيط، خلال عطلته في إيرلندا عام ١٩٧٠، وفي روما عام ١٩٧١، وفي قبرص عام ١٩٧٢. لكنّ اتصالاته جرت في معظم الأحيان بفضل صناديق الرسائل، البريد السريّ أو برامج راديو موسكو.

كانت وسائل إتصال والكر مع المديرية ١٦ في المجلس الإداري (جاسوسية) الأوّل العامّ في الـ K.G.B أكثر سرّية أيضًا. بعد الموعد في ألكسندريا في شباط ـ فبراير ١٩٦٨، لم يكن له أيّ اتصال شخصيّ مباشر مع الـ K.G.B حتى آب ١٩٧٧، تاريخ لقائه في كازابلانكا مع مراقبه في المديرية ١٦.

بعد أن ترك البحرية عام ١٩٨٦، وجّه والكر بنفسه عميلاً جنّده فيها وهو جيري ألفرد واينوورن. ونظّم مراقبه للقائه مرتين في العام تقريبًا. خُيّر والكر أيضًا بين بلدين، الهند أو النمسا، من أجل مواعيده؛ وقد آثر فيينا.

لم تكفّ المديرية ١٦ عن حثّه على الحذر ـ "إذا كان ذلك خطرًا، امتنع عنه" ـ لكنه لم يكن يأخذها بعين الاعتبار دائمًا. وكان خطاب الـ K.G.B الإيديولوجيّ ـ الذي لا يهزّ والكر لكن يؤثّر بعض الشيء في بريم ـ للرجلين من أبسط الخطابات. "نحن لا نتمنى إلاّ شيئًا واحدًا هو السلام. الأمبرياليون يريدون الحرب"، هذا ما كانوا يرددونه دومًا.

رغم أنّ المجلس الإداريّ الثالث استخدم بريم بدقّة أقل من المديرية ١٦ مع والكر، فقد بقي الإثنان آمنين. ولم يُشكّ بريم أبدًا خلال سنواته السبع في مفرزة عمليات لندن (من أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٨ حتى آذار ـ مارس ١٩٧٦) كما خلال

شهوره الثمانية عشرة في الحيّ الكبير العامّ في شلتنهام (من آذار - مارس ١٩٧٦ حتى أيلول - سبتمبر ١٩٧٧).

حين ترك مركز قيادة الاتصالات الحكومية (في بريطانيا العظمى)، أصبح سائق تاكسي، ثم تاجر نبيذ... وقطع العلاقات مع الـ K.G.B خلال ثلاث سنوات. لكن الـ K.G.B اتصل به من جديد عام ١٩٨٠ وأقنعه بالحضور إلى فيينا للقاء عميله الوسيط، فأعطاه ١٥ بكرة أفلام (عَلِمَ فيما بعد أنّ معظمها غير صالح للاستعمال) وعدة نُسخ وملاحظات محفوظة منذ رحيله من مركز قيادة الاتصالات الحكومية (في بريطانيا العظمى). لم يَلُمْه الضابط لا على رفضه أيّ اتصال ولا على رحيله من مركز قيادة الاتصالات الحكومية (في بريطانيا العظمى)، لكنْ حاول - دون جدوى - دَفْعه للعودة إلى هذه المصلحة الأخيرة. بعد ذهابه ثانية، حصل بريم على ٦٠٠ ليرة استرلينية. عام ١٩٨١، ذهب إلى بوتسدام للإجابة عن عدة أسئلة حول ملفّات سلّمها في السنة السابقة. هذه المرة، اقتُرِح عليه - دون أيّ نجاح - أن يصبح مدرسًا للغة الروسية في المدرسة الحربية في بيكونسفيلد، والاستدلال على المواهب لحساب الـ K.G.B، وحصل على ٤,٠٠٠ ليرة كهدية رحيل.

لم تكتشف مصلحة الأمن البريطانية ومركز قيادة الاتصالات الحكومية (في بريطانيا العظمى) دور بريم الجاسوسي إلاّ بعد توقيفه خلال صيف ١٩٨٢ بسبب انتهاك عرض فتيات صغيرات.

كانت عمليات المجلس الإداريّ الثالث محجوبة للغاية، حتى أنّ غورديفسكي الذي عَمِل في فرع المركز البريطانيّ منذ ١٩٨١، ثم، منذ حزيران - يونيو ١٩٨٢ في مقرّ لندن، لم يعرف بالمسألة إلاّ بعد توقيف الجاسوس... وقدّر البنتاغون بمليار دولار التخريب الذي سبَّبهُ بريم للتحالف الأميركي - البريطاني في الإعتراض والتفكيك.

خلال عشر سنوات، أعطى بريم الـ K.G.B معلومات كاملة عن إجراءات مركز قيادة الاتصالات الحكومية (في بريطانيا العظمى)، عن مِلاكه وقواعده في بريطانيا العظمى وفي الخارج. خلال السنة السابقة في شلتنهام، في عامي ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧، حصل على معلومات ذات مستوى عالٍ حول نجاحات وأخطاء مركز قيادة الاتصالات الحكومية (في بريطانيا العظمى) في موضوع تفكيك اتصالات سوفيتية، كما حصل على تفاصيل نظامين أميركيين سريين للغاية للاستعلامات بواسطة الأقمار الصناعيّة وهما "Big Bird" و"Rhyolite".

ومع ذلك، حصل الـ K.G.B على معلوماته الأكثر أهمية حول الأقمار الصناعية الأميركية من عميلَيْ تسلّل أميركيين.

من نيسان ـ إبريل ١٩٧٥ حتى نهاية ١٩٧٦، أعطى التاجر الأميركيّ، أندر دولتون لي، إلى مقرّ مكسيكو طريقة إستعمال الـ "Rhyolite" ومعطيات تقنية مفصّلة عن أقمار صناعية أخرى، وقد حصل على هذه التعليمات من صديقه كريستوفر بويس الذي يعمل للمؤسسة الكاليفورنية جامعة الـ Rhyolite وهي اتحاد TRW.

في بداية ١٩٧٨، طار ويليام كامبيلس، المُستخدم بعض الوقت في مركز المراقبة في المقرّ العامّ في الـ CIA، إلى اليونان وذهب إلى مقرّ الـ K.G.B في أثينا مع طريقة استخدام الـ "KH-11" "Keyhole" وهو القمر الصناعيّ الأميركيّ للمراقبة الأكمل.

رغم أنّ بريم كان أهمّ خُلد للـ K.G.B في مصالح الاعتراض البريطانية منذ كيرونكروس في ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣، فإنّ قضايا لي / بويس وكامبيلس أَوحت أن السعر الذي وضعه البنتاغون (مليار دولار) للاستعلامات كان دون شك مضخّمًا. بعد توقيفه، وصلت شائعات وانتقادات إلى المجلس الإداريّ (جاسوسية) الأوّل العامّ في الـ K.G.B تعلّق على طريقة المجلس الإداريّ الثالث في إدارة القضية. وتهامسوا أنّ هذا الأخير

لم يستطع البقاء على اتصال مع عميله بينما لم يغب والكر عن نظر المديرية ١٦ في المجلس الإداريّ (جاسوسية) الأوّل العامّ في الـ K.G.B. في شلتنهام، حين صار بإمكان بريم الوصول بسهولة إلى أسرار مركز قيادة الاتصالات الحكومية (في بريطانيا العظمى)، عجز عن حلّ رموز رسائل المجلس الإداريّ الثالث الإصطلاحية عبر الراديو، وانقطع الاتصال. ومنعه هذا الانقطاع من إيصال معلوماته إلى عميله الوسيط حتى لقائهما في فيينا عام ١٩٨٠.

لم تواجه المديرية مشاكل من هذا النوع مع والكر. كان العميل يعمل للـ K.G.B منذ ١٧ سنة حين استجمعت زوجته الثانية شجاعتها أخيرًا عام ١٩٨٥ وأبلغت عنه الشرطة الفدرالية في الولايات المحدة.

بالإضافة إلى جيري وايتورث الذي عَمِل من أجله كعميل خلال ٩ سنوات، جنّد والكر ابنه ثم أخاه البكر في بداية الثمانينات. وحاول أيضًا استخدام ابنته، لكن دون نجاح. أعطى معلومات: كتب تقنية وجيزة مستعمَلة في البحرية وفي مصالح أخرى في الجيش، في مديرية الدولة، في الـ CIA وفي الشرطة الفدرالية في الولايات المتحدة... وطلب المجلس الإداريّ السادس عشر أيضًا الإصطلاحات اليومية للآلات التي يجب كتابتها بالرموز للتمكّن من توضيح الاتصالات.

نقلت شبكة والكر من هذه الإصطلاحات مما جعل عدد الرسائل الأميركية التي حلّ رموزها السوفيات بفضله يبلغ المليون. أمّا الفائدة الأوضح التي جناها السوفيات من هذا الوصول إلى محتوى الرسائل المرمَّزة فهي: كانوا على عِلم بالعمليات التي يحضّرها الأميركيون. وحسب تيودور شاكلي وهو رئيس الـ CIA في سايغون من ١٩٦٨ حتى ١٩٧٣ في المرحلة الأخيرة من حرب فيتنام، "كانوا يعلمون، في معظم الأحيان، مسبقًا أنّ طائرات الـ B-52 ستهاجم. حتى حين تضلّ الـ B-52 على أهداف

ثانوية بسبب الوقت، كانوا يعرفون هذه الأهداف. وكان من الطبيعيّ أن تخفّ فعالية الهجومات كلّما كان لديهم وقت أطول للاستعداد لها. كان ذلك أكثر من مزعج. لم نستطع حلّ هذا السرّ".

لا بدّ أنّ شاكلي بالغ في تقدير قدرة السوفيات والفيتناميين الشماليين على توقّع العمليات الأميركية. لكنه شَهَدَ على الضرر الذي ألحقه بالمعنويات، في وسط الحرب، التحقّق من أنّ العدو يعرف مسبقًا كل خططه... حين تنظّم البحرية الأميركية مناورات سريّة، كانت تلتقي بسفن سوفياتية تعبر في النواحي. واشتكى أميرال قائلاً: "كما لو أنهم يملكون نسخة عن خطط طرقاتنا".

في أوقات معينة، شعر المركز نفس الشعور... في إحدى لقاءاتهما، أعلم عميل والكر الوسيط، هذا الأخير بأبّهة أنّ مساهمته النادرة في السلام في العالم كوفئت برُتبة أميرال في البحرية السوفياتية. أجاب والكر: "أُشكرهم جيدًا".

تختصر حالتا بريم ووالكر مشاكل واحتمالات عمليات الـ K.G.B في بريطانيا العظمى وفي الولايات المتحدة خلال عهد بريجنيف.

في نهاية الحرب العالمية الثانية، كان العملاء المتسلّلون الأكثر أهمية ـ الخمسة الرائعون في بريطانيا العظمى؛ وايت، هيس، لي وكوري في الولايات المتحدة ـ مثاليين ذوي شمولية وموهبة واعدة ظاهريًا بحياة مهنية ستوصلهم إلى أعلى المراكز في الحكومة.

حين حلّ عهد بريجنيف، كان العصر الذهبي للمناجذ الموهوبة، اللامعة والمثالية قد ولّى منذ زمن. فالعميلان الأهمّ المتسللان في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة خلال السبعينات كلاهما مجرمان من الدرجة الثانية. فأحدهما يجرّ ماضي سارقٍ.

والآخر ملفّ جرائم جنسية (اغتصاب). لا يملك أيّ منهما موهبة خاصة لكنهما، رغم وظيفتيهما المتواضعتين، استطاعا الوصول إلى بعض أسرار الاتصالات الأكثر أهمية في التحالف الإنكليزي - الأميركي[1].

١ - أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٥٨٨ - ٦٠٦.

إنفراجات سبعينات القرن االعشرين

تزامن انتقال الـ PDG إلى مقرّه الجديد في إيازينيفو بقرب موسكو ووصول كريوتشكوف إلى رئاسته مع الانفراج السوفياتي - الأميركي الأكبر بين الحرب الباردة وعهد غورباتشيف.

في أيار ــ مايو ١٩٧٢، قام نيكسون بالزيارة الرسمية الأولى لرئيس أميركي إلى الاتحاد السوفياتي، وذهب بريجنيف إلى الولايات المتحدة في حزيران ــ يونيو ١٩٧٢، ونيكسون إلى الاتحاد السوفياتي للمرة الثانية بعد عام. وُقّعت، خلال هاتين السنتين، اتفاقيات سوفياتية ــ أميركية أكثر من مجموعة الفترة السابقة منذ إقامة العلاقات الدبلوماسية. كانت معاهدة تحديد الصواريخ المضادة للصواريخ أهمّ هذه الاتفاقيات بالإضافة إلى الاتفاق الأوّل على تحديد الأسلحة الاستراتيجية (SALT 1)، وقد وقّع كلاهما خلال سَفَر نيكسون الأوّل إلى موسكو. وتنبّأ هذا الأخير "بأنّ مؤرخي المستقبل سيكتبون عن العام ١٩٧٢... الذي ساهمت أميركا فيه بقيادة العالم من الأراضي المنخفضة للحرب الدائمة نحو هضاب السلام العالمية[١]".

---

١ - Ulam Adam B., *Dangerous Relations*, Édition de poche, oxford University Press (New York,1984), ch. 2.

رغم أنّ المنافسة بين القوتين العظيميين استمرّت، فقد بدا أنّ لكليهما الإرادة والقدرة على الإتحاد لتجنّب كارثة نووية.

كانت الذكرى الرئيسية لغورديفسكي بالنسبة للعقلية السائدة في المركز في موسكو أنه، مع الوقت، ستُعامِل الولايات المتحدة الاتحاد السوفياتي كمساوٍ لها. وسبّبت استقالة نيكسون الذي اتُّهِمَ بضلوعه في فضيحة ووترغيت، في آب ١٩٧٤، خيبة أمل وارتياب. ووصل ديمتري إيفانوفيتش إياكوشكين، المقيم الرئيسي للـ K.G.B في واشنطن في بداية ١٩٧٥، إلى الولايات المتحدة مقتنعًا بأنّ سقوط نيكسون يعود لمؤامرة من أعداء الانفراج، خاصة الصهاينة، أكثر ممّا يعود للسخط الشعبي إثر ووترغيت، وكان يرى مكائد الصهاينة في كلّ مكان حوله من خلال جماعة الضغط اليهود ، بالإضافة إلى "المجموعة العسكرية ـ الصناعية في الولايات المتحدة" التي تسعى، حسب اعتقاده، لمَنْع انخفاض بيع الأسلحة.

تعود القراءة الخاطئة التي قام بها إياكوشكين لأزمة ووترغيت إلى عدم فَهْم أكثر جوهرية للنظام السياسي وطريقة حياة الأميركيين، ويشاركه في عدم الفهم هذا المركز والكرملين، بما أنّ رؤيتهم خاضعة لقصر النظر الإيديولوجيّ، لم يتمكن معظم ضباط الـ K.G.B والدبلوماسيين السوفيات المعتادين على إدارة مركزية قوية وعلى اقتصاد موجّه، من فَهْم كيف تستطيع الولايات المتحدة بلوغ هذا المستوى العالي من الإنتاج، من الفعالية ومن التجديد التقني مع أوليات تنظيم غير ظاهرة. هذا الجهل لِمَا يدور في الولايات المتحدة عُوِّض بنظرية المؤامرة. ويقول الدبلوماسيّ أركادي نيقولافيتش شيفتشنكو الذي انتقل إلى الغرب عام ١٩٧٨ عندما كان يشغل مهام سكرتير عامّ معاون في الأمم المتحدة، عن زملائه السوفيات: "يميل كثيرون إلى هذه الفكرة الاستيهامية حول وجود مركز سريّ للمراقبة في مكان ما في الولايات المتحدة. فبعد

كلّ شيء، هم أنفسهم معتادون على نظام تقوده مجموعة صغيرة تعمل خفية في مكان واحد. بالإضافة إلى ذلك، يستمرّ السوفيات بارتكاز إلى العقيدة اللينينية التي تعتبر الحكومات البورجوازية "خدّام" الرأسمال والاحتكارات فقط. ويتساءلون "أليس هذا هو المركز السريّ للمراقبة؟".

جاءت فترة الانفراج الأميركية - السوفياتية، في وسط عهد بريجنيف، جزئيًا بسبب وجود دبلوماسيّ سوفياتي، في واشنطن، قليل الامتثالية على غير المعتاد، هو أناتولي فيدروفيتش دوبرينين، وكان سفيرًا من آذار - مارس ١٩٦٣ حتى آذار - مارس ١٩٨٦. فالمحادثات السرية بين دوبرينين وهنري كسنينجر، مستشار الأمن عند نيكسون (وسكرتير الدولة في ما بعد)، فتحت، ما سمّاه المركز "الطريق المختصرة عرضيًّا" بين موسكو وواشنطن وأخلت الطريق نحو الانفراج. أثنى كيسينجر فيما بعد على "المساهمة الأساسية" لدوبرينين في العلاقات الثنائية وعلى "البراعة الفائقة" لدبلوماسيته. لكنّ لقدرته على الموازنة مع أنصار نظريات المؤامرة الموسكوفيين حدود، فوجد نفسه متهمًا "بالتأمرك" من قبل خصوم في اللجنة المركزية وفي وزارة الشؤون الخارجية واضطر للدفاع عن نفسه بتبنّي، على الأقل، الأفكار المسبقة لموسكو. حسب شفتشنكو، فإنّ دوبرينين نفسه، رغم فَهْمه للنظام الحكومي الأميركي، لم يجرؤ على القيام بتحليل دقيق لانقسام السلطة في أميركا بين التنفيذي والتشريعي خلال هزيمة ووترغيت".

حتى ولو بالكلام فقط، استمرّ الانفراج بعد استقالة نيكسون. في آب - أغسطس ١٩٧٥، اعتبر القرار الأخير في هلسنكي، في نهاية مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا (CSCE)، الحدود الأوروبية "مصونة"، وألزم الدول الكبرى في الشرق والغرب باحترام قواعد السلوك في العلاقات الدولية وحقوق الإنسان في السياسة الداخلية.

تدريجيًا خنق الـ K.G.B "مجموعات مراقبة اتفاقيات هلسنكي" التي وضعت في الاتحاد السوفياتي لمراقبة احترام حقوق الإنسان المقرّرة، وذلك بتوقيف أو نفي معظم أعضائها داخليًا.

نظر المركز بإزدراء هادئ إلى خليفة نيكسون، نائب الرئيس السابق، جيرالد فورد، وأندريه غروميكو الذي سَعِدَ أن يصبح أندروبوف عضوًا مثبتًا في البوليتبور، وعام ١٩٧٣، كتب عنه بتعجرف: "يحدث أحيانًا أن يحتلّ مركزًا عاليًا في الدولة رجل لا نتكلم عنه، شفهيًا أو كتابيًا، إلاّ بصيغة الماضي. وينتمي جيرالد فورد، الرئيس خلال سنتين، إلى هذه الفئة".

مهما يكن مجافيًا تجاه قدرات فورد، فقد كان الكرملين قلقًا لانتصاره في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٧٦. فمحافظته الفطرية تجعله يفضّل مرشحًا خفيفًا لكن معروفًا مثل فورد على المرشح الديمقراطي الغير متوقّع جيمي كارتر. واعتقد أنّه، مع فورد، ستستمرّ "الطريق المختصرة عرضيًا". وكلما اقترب موعد الانتخابات، تلقّت السفارة كما المركز في واشنطن نداءات أكثر فأكثر إلحاحًا تطلب النتيجة مُسبقًا. قال دوبرنين لشفتشنكو: "منذ شهور والمركز يُمطر واشنطن أسئلة"، ويبدو أن السفارة مثل المركز راهنت على موضوع الانتخابات.

رغم أنّه أحد الرؤوساء الأكثر ثقافة منذ الحرب العالمية الثانية، فقد تولّى جيمي كارتر مهامه عام ١٩٧٧ مع عائق مزدوج هو كونه "خارج على القانون" في واشنطن وحديث عهد في السياسة. واحتقره غروميكو أكثر من فورد: "عمل كارتر قدر استطاعته بإنصاف لكنه حين حاول لَفْظ أسماء مدن أو مناطق في الاتحاد السوفياتي، لم يستطع أن يبعث إلاّ بسلسلة أصوات غير مفهومة. الأسوأ من ذلك أننا اكتشفنا أنّه يصعب عليه فهم المعطيات الأكثر بساطة في العلاقات الأميركية ـ السوفياتية".

بعد مجزرة فيتنام وفضيحة ووترغيت، دأب كارتر على إعادة بناء السياسة الخارجية الأميركية على أساس المبادئ الأخلاقية وحقوق الإنسان. بعد فترة قصيرة من تولّيه مهامه، كتب أندريه ساخاروف، المنشقّ والحاصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٥، إلى كارتر ليطلب إليه المواظبة على حملته من أجل حقوق الإنسان في الاتحاد السوفياتي. وغضب الكرملين والـ K.G.B إذ أعلن الرئيس جهارًا عن الرسالة وأجاب عليها. بعد فترة قصيرة، استقبل منشقًّا سوفياتيًّا آخر هو فلاديمير بوكوفسكي في البيت الأبيض. وفسّر إياكوشكين والمركز بشكل خاطئ أساسًا حملة كارتر من أجل حقوق الإنسان واعتبراها عنصر مساومة يهدف إلى تعزيز الوَضْع الأميركي في الجولة القادمة من المفاوضات الاستراتيجية بعد انتهاء مدة الاتفاق الأوّل لتحديد الأسلحة الستراتيجية (Salt 1) (في تشرين الأول - أكتوبر ١٩٧٧.

علّقت المصلحة "أ" (للتدابير الفعّالة) أهمية قصوى على معارضة الحملة حول حقوق الإنسان وذلك بمهاجمة الولايات المتحدة في هذا المجال. عام ١٩٧٧، كتبت عددًا معينًا من الرسائل مُرسلة إلى زوجة الرئيس، روزالين كارتر، تحتج على "التعديات على حقوق الإنسان" في الولايات المتحدة، وحين كان غورديفسكي يعمل في كوبنهاغن، توصّل المقرّ إلى إقناع سياسيّ ليبراليّ مشهور بإرسال إحدى هذه الرسائل إلى السيدة كارتر. كان المقرّ مهتاجًا لدرجة أنه أرسل فورًا ضابطًا في الخطّ "PR" (للاستعلامات السياسية في مراكز الـ K.G.B) إلى منزل الرجل السياسيّ للحصول على نسخة من الرسالة ومقارنتها بمسودّة الـ K.G.B، كان النَصّان متطابقان تمامًا، وأُرسل إلى المركز تقرير ظافر.

عام ١٩٧٨، أدّت إجراءات العسكريين السوفيات من أجل حقوق الإنسان إلى إدانات أميركية جديدة أجاب عليها الـ K.G.B بمحاولة فظّة لإقامة صلة بين المنشقّ

اليهوديّ أناتولي تشنتشارانسكي والـ CIA: هكذا حُكم عليه بعشر سنوات سجن بتهمة اختلقها الـ K.G.B تقول إنّه أعطى معلومات سرية لصحافي أميركي. ورغم وعيه التامّ لاختلاقه هذه التهمة، توصّل الـ K.G.B إلى إقناع نفسه بوجود مؤامرة حقيقية حرّكها الـ CIA والبيت الأبيض للتلاعب بحملة حقوق الإنسان في الإتحاد السوفياتي. حتى في عهد الغلاسنوست Glasnost، استمرّ غروميكو بالتنويه بأن هذه الحملة تشكّل جزءًا من "التخريب الإيديولوجي (الأميركي) ضد الاتحاد السوفياتي... كارتر نفسه باشر بحملة التحدّي هذه".

بقي انفراج السبعينيات هشًا. كان بريجنيف يحبّ أن يردد أنّه (أي الانفراج) لا يغيّر "قوانين صراع الطبقات". حتى في أوج الانفراج، في أعوام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٤، بقيت الولايات المتحدة "العدوّ الرئيسيّ". كانت المديرية الأولى في الـ PDG (في الولايات المتحدة وكندا) الأهمّ من حيث الرقعة الجغرافية التي تغطيها، وكانت تنمو بانتظام. في نهاية الستينات، لم يكن لها سوى معاون رئيس واحد، خلال السبعينات، حصلت على اثنين أيضًا. إنّها بالإضافة إلى تلك المديرية الوحيدة التي تراقب "مركزين رئيسيين" (ستعطى هذه الحالة لمركَزَيْ واشنطن ونيويورك في بداية السبعينات)، يديرهما جنرالات من الـ K.G.B، ومركز ثالث في سان فرنسيسكو. إزداد وجود الـ K.G.B في الولايات المتحدة وفي وكالة الأمم المتحدة في نيويورك، بسرعة أكبر خلال الانفراج من أيّ وقت آخر: من ١٢٠ ضابطًا عام ١٩٧٠ إلى ٢٢٠ عام ١٩٧٥، في نفس الوقت الذي حجّم فيه مقرّ لندن بقسوة، تضاعف حجم المقرّ تقريبًا في الولايات المتحدة.

كانت واشنطن المركز الرئيسي للاستعلامات السياسية. وكان إياكوشكين، السفير الرئيسي من ١٩٧٥ حتى ١٩٨٢، فخورًا بأنه سليل أحد المتآمرين الديسمبريين عام

١٨٢٥. ولا بدّ أنّه قدّر أيضًا على الأرجح الرأي الذي أعطته فيه الـ Washington Post عام ١٩٨٢ والذي فيه أنّه "ضابط الـ K.G.B الأقوى خارج الاتحاد السوفياتي". رغم ذلك انطبعت إقامته في واشنطن بحادث مهمّ. ذات يوم، رمى عابر رزمة في حدائق السفارة السوفياتية في الشارع ١٦ قرب البيت الأبيض. حين فُتحت الرزمة، بدا وكأنّ الملفات الموجود فيها سرية ظاهريًّا مع اسم وعنوان مُرسلها ومع عَرْض استعلامات جديدة. اعتبر إياكوشكين المسألة وكأنّها تحدٍّ فأمر بإعطاء الرزمة إلى البوليس، وتبيّن أنّ الملفات صحيحة، وأوقف المُرسل.

رغم هذا الحادث، أصبح إياكوشكين مسؤولاً عن المديرية الأولى في الـ PDG عند عودته عام ١٩٨٢، ورأى غورديفسكي أنّ الجوّ كان منشرحًا في كلّ مكان إلاّ في المركز، يعود ذلك جزئيًا إلى تصرّف إياكوشكين التسلّطي المتناقض مع أساليبه الدبلوماسية والعذبة والمذواقية التي اشتهر بها في حفلات الكوكتيل في واشنطن، فحين يغضب، "يرتفع صوته على سمّاعة الهاتف أكثر من أيّ كان في إيازينيفو". لكنّ هذا الجوّ المزعج نتج أيضًا عن النفوذ الذي يملكه. فالمنافسة الكبيرة للدخول والحصول على علاوة أثارت دسائس أكثر شراسة مما في أية مديرية أخرى.

حين أصبح مسؤولاً عن الـ PDG، أدخل كريونتشكوف سريعًا سلسلة تغييرات في التنظيم لانتهاز الفرص الجديدة التي أوجدها الانفراج للعمل ضد "العدوّ الرئيسيّ". ووُضع فريق شمالي جديد في المديرية الأولى لتنسيق العمليات ضد الأهداف الأميركية. تضمّ هذه الفرق عادة واحدًا أو اثنين من ضباط الخطّ "PR" (للاستعلامات السياسية) والخطّ "XR" (للجاسوسية المضادة)، وضابطًا واحدًا من الخطّ X (للاستعلامات العلمية والتقنية)، بإدارة رئيس من الخطّ PR. ويذهب ضباط من فرقة الشمال بالصدفة إلى مراكز لمراقبة عمل الفرق "عدوّ رئيسي". كان انطباع

غورديفسكي أنّه، بسبب المنافسات البيروقراطية، لم تحقّق محاولات التنسيق هذه إلاّ نجاحًا مخفّفًا. في البداية، اقتنع كريوتشكوف بضرورة استخدام طرق جديدة ضد "العدوّ الرئيسي" وذلك بسبب سرعة اتساع الاتصالات مع الغرب في ذروة الانفراج.

وأقنعه فريق الأسرار الرسمية الأميركية الذي أدّت إليه فضائح مثل ووترغيت وإعلانات صحافيي التحقيق المثيرة، أنّ الأساليب التقليدية لتجنيد العملاء أصبحت قديمة. وبدا وكأن أيًّا كان يستطيع الحصول على الكثير من الأسرار.

منذ وصوله إلى الـ PDG، أعطى إلى المركز - ممّا أخاف قدامى المركز — الأمر بإنشاء شبكة واسعة خصوصًا من الاتصالات المكشوفة، وأراد التصدّي علانية للأسرار الرسمية بدل الالتزام بأساليب بطيئة وشاقة أكثر بكثير لتجنيد عملاء سريين. تراجع كريوتشكوف سريعًا عن التجربة بعد اختبارات سيئة في مطاعم مع ضباط في الـ K.G.B تحت غطاء دبلوماسيّ نسوا قواعد مهنتهم ليحاولوا تقليد الصحافيين بوب وودوارد وكارل برنستاين من الـ Washington Post. نتيجة لذلك، أصرّ، بشكل أشدّ وضوحًا من عدد من المسؤولين في المديرية، على ضرورة تجنيد جيل جديد من عملاء التسلّل.

قاده ازدهار الانفراج في بداية السبعينات أيضًا إلى محاولة استغلال المواهب المهملة لكيم فيلبي الذي بدأ بالزهد بعد زواجه من روفا عام ١٩٧١. وكان أوّل من عقد معه اتصالاً من جديد أفضل خبير في المسائل البريطانية في المركز، ميخائيل بتروفيتش ليوبينوف الذي كان غورديفسكي يعتبره كأحد ضباط الـ PDG الأكثر موهبة واحترامًا في جيله مع معرفة عميقة بالأدب الإنكليزي كما في الويسكي الإيكوسيَّة.

كان ليوبينوف يعمل في مقرّ لندن خلال ٤ سنوات قبل أن يُطرد عام ١٩٦٤ في عمر الـ ٣١، لمحاولته تجنيد مدير جهاز اصطلاحات. بعد عودته إلى موسكو، عمل

خلال سنتين في استخلاص المعلومات مع فيلبي. في بداية السبعينات، بدأ ليوبينوف بالعمل في أطروحة عنوانها "الخصائص النوعية للطَبْع الوطني البريطاني واستخدامها في العمل العمليّاتيّ"، وقد ناقشها طويلاً مع فيلبي ودافع عنها بنجاح كبير في معهد أندروبوف (عام ١٩٧٤، استخدم هذا العمل كمرجع رئيسي في الـ PDG عن المملكة المتحدة - وكان لا يزال مستخدمًا في وسط الثمانينيات.)، وبما أنّه كان من المستحيل أن يصبح سفيرًا مقيمًا في لندن، حيث كان "شخصًا غير مرغوب فيه"، فقد أرسل إلى كوبنهاغن عام ١٩٧٥، الحامي الآخر الرئيسي لفيلبي أوليغ دانيلوفيتش كالوغين المسؤول عن المجلس الإداريّ "ك" في الـ PDG. خلال زياراته المنتظمة لِـ "فيلبي"، طلب كالوغين رأيه حول استراتيجية الاستعلامات الواجب اتباعها في بريطانيا العظمى. أجابه فيلبي بطريقة مستساغة أنّه ما دام "مكتب الأجانب" يجنّد الآن في الجامعات الريفية كما في "أوكسبريدج"، فعلى مصلحة الاستخبارات السرية في بريطانيا العظمى (سلف مصلحة الأمن البريطانية MI- 5) على الأرجح أن تفعل مثله. كان يقترح إذًا أن تكون جامعات برادفورد، بريستول، برمنغهام، إيدمبرغ، إيسيكس، هول ولندن (من بينها معهد لندن للاقتصاديات LSE، ومعهد الدراسات الشرقية والأفريقية SOAS، سالفورد، سِيْرّاي وسوسيكس) موضع "دراسات" مفصّلة من قِبل الـ K.G.B وأن تهب زيارات طلابها المتبادلة إلى الاتحاد السوفياتي فرصًا واعدة للتجنيد.

استشارت المصلحة "أ" (المسؤولة عن التدابير الفعّالة" الهادفة للتأثير على الحكومات الخارجية وعلىالرأي العامّ) في الـ PDG فيلبي أيضًا حول صُنع ملفات مزوّرة على أساس أنها صادرة عن الـ CIA، عن مديرية الدولة وعن وكالات أخرى "إمبريالية".

تأثّر غورديفسكي بطبيعة العمل في ما يختصّ "بالتدابير الفعّالة" (لكن ليس بباقي إنتاج المصلحة "أ") التي يتخيّلها فيلبي من بيته.

خلال الشتاء، من تشرين الأول ـ أكتوبر حتى نيسان إبريل، كان يحيي في شقة مبتذلة في شارع غوركي حلقات دراسية لضابط شاب من المديرية الثالثة في الـ PDG (بريطانيا العظمى، إيرلندا، اسكندينافيا، مالطة وأوستراليا) سيستلمون مراكزهم الأولى في الخارج. خلال هذه الحلقات الدراسية، كان يطرح عليهم أسئلة ويقوم بتمرينات يلعب فيها دور السياسيّ، الموظّف، ضابط الاستعلامات أو رجل الأعمال الذي يحاول الطالب تجنيده.

في نهاية كل سلسلة من الحلقات الدراسية، كان فيلبي يكتب تقارير عن الطلاب، بعضها بعيد النظر للغاية. هكذا وصف فالري ألكسندروفيتش كيسلوف بأنّه "لا يتوقع جيدًا ويمكن أن يستسلم لانفعالاته"...

في الدانمارك، وقع كيسلوف في حبّ امرأة متزوجة وتبعها في سيارة السفارة، فأعيد إلى الاتحاد السوفياتي من قبل سفير الـ K.G.B بعد أن وُجد في حالة اكتئاب شديد أمام منزل المرأة الريفيّ. وأعطى رأيًا آخر متحفظًا للغاية في تطور إيفانوفيتش موزاليوف الذي، كما يقول، حضر دروسه مرّتين دون أن يحفظ شيئًا منها. يشارك غورديفسكي فيلبي تمامًا هذا الرأي في موزالوف الذي أمضى عامين في مقرّ لندن (١٩٨٣ ـ ١٩٨٥) (وقد طُرد من بريطانيا العظمى بعد ارتداد غورديفسكي).

من وجهة النظر البريطانية، كان هناك الكثير ممّا يمنع السماح له بالبقاء. في أحيان أخرى أيضًا، استشارت المديرية الثالثة فيلبي في مشاكل عمليّاتية رغم أنّ الملفات التي أُظهرت له أُخليت قبل كلّ شيء من المعلومات الأكثر حساسية. رغم ذلك، استمرّ كريوتشكوف بشكّه في أفكار فيلبي القليلة الاستقامة وفي حامييه

الرئيسيين، كالوغين وليوبيموف، اللذين لا يخفيان احتقارهما لنظريات المؤامرة المرجحة في المركز بخصوص الغرب.

عام ١٩٨٠، أُزيح كالوغين فأصبح معاون رئيس الـ K.G.B في لينينغراد بعد مناقشة عاصفة مع كريوتشكوف. في نفس الوقت تقريبًا، جُرّد ليوبيموف من مهامّه في المركز إثر طلاقه بحجّة تصرّفه "اللاأخلاقي". عندئذٍ وقع فيلبي في كآبة جديدة وعميقة.

خلال عهد بريجنيف وإلى ما بعد ذلك، نظر المركز إلى الانفراج لا كوسيلة لإنهاء الصراع الشرقي - الغربي بل كشكل تنافس أقل حدّة. كان لا يزال يرى أنّ الكتلة السوفياتية جزيرة صغيرة محاطة بمحيط الإمبريالية الغربية بالتواطؤ مع الصين. ولوضع حدّ لهذا التطويق، على الاتحاد السوفياتي أن يعزّز تأثيره في العالم الثالث وعلاقته مع دول عدم الانحياز، رغم ذلك قادت موسكو في مصر، البلد الذي اعتبرته خلال الستينات مفتاح التأثير السوفياتي في الشرق الأوسط، معركة مؤخّرة في بداية العقد التالي.

عام ١٩٧٣، بدأت حرب كيبور (الغفران) جيدة وانتهت سيئة بالنسبة لمصر. كان المركز يعي جيدًا أنّ ما حمَى مصر وسوريا من هزيمة كبيرة الضغوط الأميركية على إسرائيل لوقف الحرب أكثر من الأسلحة السوفياتية. وشكّ المركز أكثر فأكثر بأنّ السادات، خليفة عبد الناصر، يريد الانحياز إلى الغرب أكثر من الشرق لإيجاد حلّ للصراع وللمشاكل الاقتصادية في بلاده، وقد أثار نقضه الوحيد الجانب لمعاهدة الصداقة السوفياتية - المصرية في آذار - مارس ١٩٧٦، الدهشة في الكرملين أكثر منه في المركز. فمنذ ثلاثة أسابيع فقط، قدّمه بريجنيف في حديث مهمّ "كقاعدة طويلة أيضًا". في تشرين الثاني – نوفمبر من العام نفسه، أعطى المركز تقريرًا مفصّلاً

(Zapiska) يتنبأ فيه بدقة بأنّ السادات سوف يعزّز علاقاته مع الغرب، وخاصة مع الولايات المتحدة. ويذكر رئيس الوزراء السابق عزيز صدقي الذي يعتبر أنّ موقف السادات المستعدّ للمصالحة مع الاتحاد السوفياتي، ليس إلاّ "مناورة"، رغم ذلك، ضعفت مواقع الـ K.G.B في مصر بسرعة. وقطع الكثير من العملاء المجنّدين في عهد عبد الناصر العلاقة بسبب الرقابة المشدّدة للأمن المصري، وجرت اللقاءات مع العملاء الباقين في قبرص، في بيروت أو في أماكن أخرى خارج مصر.

في ١ تشرين الأول - أكتوبر ١٩٧٧، وقّع كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة بلاغًا مشتركًا حول ضرورة إيجاد حلّ للصراع العربي - الإسرائيلي. واعتقد بريجنيف أنّه أمّن على الأقل الاعتراف بدور الكرملين في مفاوضات السلام في الشرق الأوسط. على الأثر تقريبًا، وحسب الرواية الرسميّة للسياسة السوفياتية الخارجية، فإنّ "إدارة كارتر خرقت المعاهدة غدرًا تحت ضغط إسرائيل".

بعد سبعة اسابيع من توقيع هذه النعاهدة الأخيرة، ذهب السادات إلى أورشليم ليبدأ الحوار مع الإسرائيليين. كان سفره هذا أحد الأحداث الدبلوماسية المفاجئة الأكثر إثارة في العصر الحديث. حين نزل من الطائرة في مطار تلّ أبيب مساء ٢٠ تشرين الثاني - نوفمبر، انبهر مخبر صحافي إسرائيلي وقال: "يستعرض الرئيس السادات الآن حرس الشرف في قوات الدفاع الإسرائيلية. أنا أراه لكني أعجز عن التصديق"!..

قالت رئيسة الوزراء السابقة غولدا مائير عن السادات ومناحيم بيغن في نهاية الزيارة: "لا تشغلونا بجائزة نوبل للسلام، أعطوا بالأحرى أوسكارًا لكلٍّ منهما"!...

مع ميله إلى نظرية المؤامرة التي كانت واضحة للغاية في موقفه تجاه الصهيونية وجماعة الضغط اليهودية في الولايات المتحدة، اعتبر المركز سفر السادات مؤامرة أكثر منه حدثًا مفاجئًا، واعتقد أنّ واشنطن كانت على عِلْم بالسفر وقت توقيع المعاهدة.

حتى بعد ١٠ سنوات، عجز غروميكو، وهو يكتب عن السادات، عن ضبط نفسه: "لقد سُمّي "بالظُّلمة المصرية" تيمنًا بأكبر غيمة غبار امتدت فوق مصر منذ ٣,٥٠٠ سنة حين ثارت جزيرة سانتورين البركانية... عانى طوال حياته من جنون العظمة لكنّ هذا الميل بلغ درجات مَرَضية حين أصبح رئيسًا".

في قلب المركز، سمع غورديفسكي عددًا من الضباط الغاضبين كذلك يقولون بضرورة تصفية السادات.

رغم عدم وجود دليل على مؤامرة تهدف لاغتياله، أصبح الرئيس المصري أحد الأهداف الرئيسية "للتدابير الفعّالة" في المركز، وتلقّت المراكز الكبيرة في العالم منشورًا من المصلحة "أ" يعطيهم تعليمات لنَشْر أخبار تقول إنّ "الريّس" نازيّ قديم، وإنّ عبد الناصر في وصيته يعتبره ضعيفًا نفسيًا وتحكمه زوجته، وإنّ عنده حارس خاصّ من الـ CIA، وإنّه، أخيرًا، حين سيُجْبَر على الهروب من مصر، فسيجد فيلا في مونترو وعدته بها الـ CIA مع حماية تمتدّ ٢٤ ساعة على ٢٤...

واشتدت حملة التدابير الفعّالة بعد اتفاقيات كامب ـ دايفيد التي أقرّها السادات، بيغن وكارتر في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٨، والتي شهّرت بها البرافدا فورًا "كتصفية على حساب الأمّة العربية لخدمة مصالح إسرائيل وأميركا والإمبريالية والرجعيين العرب[١]". ويقول غورديفسكي إنّ المركز كان مقتنعًا أنّ كارتر والـ CIA خدعا السادات وجرّاه إلى مؤامرة أميركية ـ صهيونية تهدف إلى إلغاء التأثير السوفياتي في الشرق الأوسط...

١ ـ البرافدا، ٢١ أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٨.

وُقِّعت معاهدة السلام بين إسرائيل ومصر في آذار ـ مارس ١٩٧٩ رغم أنّ برنامج كامب ـ دايفيد من أجل تسوية شاملة للصراع الإسرائيلي ـ العربي لم يؤدِّ إلى أي شيء...

استُقبل في المركز بالابتهاج اغتيال السادات من قِبَل مسلمين متعصبين في تشرين الأول ـ أكتوبر...

إحدى نتائج الخلاف بين السادات والكرملين هو دعم هذا الأخير المتزايد لمنظمة التحرير الفلسطينية (OLP). وكان رئيسها ياسر عرفات، خلال بعض الوقت، موضوع محاولات تقرّب من قبل ضابط من الـ K.G.B هو فاسيلي فيدوروفيتش ساموبلنكو. عمل هذا الأخير في النمسا في نهاية الأربعينات وفي ألمانيا الشرقية في بداية ووسط الخمسينات، وكان له من العمر ٤٠ عامًا حين رُقّي إلى رتبة مقدّم في الـ K.G.B. وعندما ذهب وفد من منظمة التحرير الفلسطينية إلى الاتحاد السوفياتي خلال صيف ١٩٧٤، صُوِّر عرفات معه في موسكو اثناء أحد الاحتفالات. واعتبر بيان رسميّ، نُشر خلال الزيارة، منظمة التحرير الفلسطينية "الممثل الوحيد القانونيّ للشعب العربي الفلسطيني".

قاد الـ K.G.B المتطرفين في منظمة التحرير الفلسطينية إلى "بلاشيكا"، وهي مدرسة إعداد للعمليات الخاصة تقع شرقي موسكو، وأعطى الفلسطينيين الأساسيّ من الوسائل المستعملة لبلوغ الأهداف العسكرية الإسرائيلية، وتابع ضباط الاستخبارات في منظمة التحرير الفلسطينية أيضًا سنة دراسية في معهد أندروبوف حيث جنّد الـ K.G.B بعضًا منهم.

في نهاية الستينات، تعرّض عرفات، أيضًا لتودّد السفير المقيم في القاهرة لمصلحة التجسّس الرومانية (DIE)، كونستانتين مونتانو الذي قاده إلى بوخارست عام ١٩٧٠

للقاء نيقولاي تشاوشيسكو. وأصبح الرجلان صديقين (للإنصاف يجب القول إنه، خلال السبعينات، استُقبل تشاوشيسكو جيدًا أيضًا في البيت الأبيض وفي قصر بكنغهام). في نهاية ١٩٧٢، عقدت مصلحة التجسّس الرومانية تحالفًا في مادة الاستعلامات مع منظمة التحرير الفلسطينية فأعطتها جوازات سفر بيضاء وتجهيزات مراقبة إلكترونية وأسلحة من أجل عمليّاتها. وقال تشاوشيسكو للمسؤول عن مصلحة التجسّس الرومانية (الذي سينتقل إلى الغرب) إيون باتشيبا: "موسكو تساعد منظمة التحرير الفلسطينية لتصبح قوية. أما أنا فأغذّي عقلها".

عام ١٩٧٥، وضع كلّ من عرفات وتشاوشيسكو عملية حاذقة ضد العاهل الأردني الملك حسين. فأوصل تشاوشيسكو إلى عمّان ملف استعلامات حول منظمة التحرير الفلسطينية حَضَّره - لكن الملك حسين يجهل ذلك - بشكل طُعم مسؤول الاستعلامات عند عرفات، هاني الحَسَن، الذي كان يعتبره الزعيم الفلسطيني "ثعلبه الماكر".. أجاب حسين على هذا الكرم الظاهر بالكشف عن مصادره الخاصة داخل منظمة التحرير الفلسطينية، وحسب باتشيبا، "جُنّد الحَسَنُ صراحةً" عام ١٩٧٦ كعميل لمصلحة التجسّس الرومانية باسم اصطلاحيّ هو "أيت"، وحصل دوريًّا، بالعملة الصعبة، على مبالغ تتراوح قيمتها بين ٢,٥٠٠ و ١٠,٠٠٠ دولار.

كانت موسكو معنية أكثر بكثير من تشاوشيسكو بعمليّات منظمة التحرير الفلسطينية التي قامت ببعضها مجموعات منشقين معارضين لعرفات أو آخرون متواطئون. خلال عهد بريجنيف، لم يكن الاتحاد السوفياتي أبدًا "صاحب عرائس" الإرهاب العالمي كما وصفه في الغرب بعض المحللين المتشائمين، وخشي، بشيء من المبالغة، أن يصبح هو هدفًا للإرهابيين، عام ١٩٦٩، تمكّن ملازم أوّل في الجيش، مريض عقليًا، من الدخول إلى الكرملين وإطلاق النار على سيارة فيها بريجنيف، كما

كان يعتقد، بعد سنة، حاولت مجموعة من الـ Refuzniki اليهود خَطْف طائرة وأخْذها إلى إسرائيل. طوال السبعينات، جرت سلسلة من عمليات الخطف فشل معظمها ولم يُعلن عنها. أمّا الحالة التي أقلقت الـ K.G.B كثيرًا فكانت اعتداء بالقنبلة في المترو في موسكو اقترفه انفصاليون أرمن عام ١٩٧٧ ـ على الأثر أُعدم ثلاثة أرمن. وسرت إشاعة في المركز تقول إنّ الـ K.G.B والجيش، بعد أن عجزا عن إيجاد المسؤولين، اختارا ثلاثة أرمن انفصاليين آخرين ككبش محرقة ليثبتا أنّ الإرهابيين يقعون دائمًا في الأسر وينالون عقابهم. لكن، إذا لم يكن الـ K.G.B صاحب "عرائس الإرهاب" في الشرق الأوسط، فإنّه لم يكن رغم ذلك طاهرًا كالثلج، ورغم أنّه لا يوافق على مهاجمة أهداف مدنيّة، فقد كان يعي جيدًا أنّ بعض المحاربين الذين يتدرّبون في بالاشيكا إرهابيون أو يمكن أن يصيروا كذلك. كان يعلم أيضًا، بفضل عملائه في منظمة التحرير الفلسطينية، أنّ بعض العمليّات الإرهابية تُدبّر بمساعدة ضباط ارتباط في منظمة التحرير الفلسطينية وفي روسيا وفي ليبيا وفي سفارات أخرى في موسكو وفي بعض عواصم أوروبا الشرقية...

من بين الذين ترددوا على مخيمات التدريب السوفياتية إيليتش راميريز سانشيرا، المعروف بـ "كارولوس الثعلب"، وهو ابن ملياردير فنزوللي، وقد أصبح الإرهابيّ الأكثر شهرة في السبعينات وبداية الثمانينات، وعمل في نفس الوقت لحساب مجموعات منشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية ولحساب العقيد معمّر القذافي في ليبيا. عام ١٩٧٥، قاد مجموعة الإرهابيين الفلسطينيين والألمان التي خطفت وزراء الـ OPEK في فيينا وابتزّت فدية ضخمة من المملكة العربية السعودية ومن وإيران[١].

---

١ - Dobson Christopher, Payme Ronald, *War without End*, Sphere Books (London,1987), pp. 172-182.

رغم ذلك كان كارلوس بعيدًا عن أنّ يمثّل مغاوير العالم الثالث في مخيّمات التدريب السوفياتية، وأظهر تقرير عام ١٩٨١ حول مهمة تدريب في الاتحاد السوفياتي لـ ١٩٤ ضابطًا من ١٠ جبهات مختلفة من منظمة التحرير الفلسطينية، نواقص مهمة في الإعداد السوفياتي كما في مستوى الكثير من المتطوّعين الجدد في منظمة التحرير الفلسطينية. وحسب قائد من منظمة التحرير، هو العقيد زرَد أحمد، فإنّ "المشتركين لم يفهموا جيدًا الجوانب السياسية لإرسال بعثات عسكرية إلى الخارج. نتج عن ذلك رَفْض أعلى أعضاء البعثة، أي المشتركين في دروس فوج الضباط، الدراسة وطَلَبُهم العودة إلى بيوتهم محتجين بمختلف أنواع الأعذار المُستبعدة".

روى أحمد أنّه اضطر إلى طَرْد ١٣ ضابطًا من درس الإعداد بسبب أخطاء مختلفة... وقال إنه لو طبّق حرفيًا قانون السلوك، لاضطرّ لإعادة أكثر من نصف الضباط إلى بيوتهم. وطلب تجنيد مرشحين ذوي مستوى أعلى في المستقبل[١].

رغم أنّ الاتحاد السوفياتي أبدى أحيانًا عدم موافقته على تورّط منظمة التحرير في الإرهاب أثناء مناقشات خاصة مع الإدارة، فقد أصرّ دائمًا علنيًا أنّ منظمة التحرير تُعارض الإرهاب. وأعلن راديو موسكو عام ١٩٧٥: "أخذت قيادة منظمة التحرير مؤخرًا تدابير حاسمة لمحاربة الإرهاب... تنطلق منظمة التحرير، في نضالنا المحقّ، من موقع ناضج وواقعيّ. ومن المعروف أنّ الأعمال الإرهابية لا علاقة لها إطلاقًا بالنضال الثوري؛ على العكس من ذلك، فهي تسيء إليه"...

بعد دخول القوات السورية إلى لبنان عام ١٩٧٦، خشي المركز، بصفته مموّن سوريا الرئيسي بالأسلحة، أن يصبح الاتحاد السوفياتي هدفًا لحملات إرهابية من جهة

---

١ - Adam James, *The Financing of Terror*, New English Library (London, 1988), pp. 48-94.

منشقين عن منظمة التحرير. في ١١ حزيران - يونيو، أُعلمت مراكز الـ K.G.B بأنّ "الدعاية البورجوازية" أقنعت بعض الفلسطينيين أنّ موسكو تؤيّد الدخول السوري. كان هناك إذًا احتمال بوقوع محاولات اغتيال ضد ممثلي الاتحاد السوفياتي في الخارج، وتلقّت المراكز الأمر باتخاذ تدابير أمنية خاصة.

وحاولوا تحويل غضب الفلسطينيين بفَتْحهم بسرعة مكتبًا لمنظمة التحرير في موسكو رغم أنّ اتفاقًا جرى في هذا الصدد خلال زيارة عرفات منذ عامين. أمر المركز أيضًا بحملة "تدابير فعّالة" تهدف إلى استبعاد الاتحاد السوفياتي عن الدخول السوري. نالت هذه الحملة بعض النجاحات. وفي ١٥ تموز - يوليو، نشر راديو القاهرة علانية تقارير "تابعة من مصادر دبلوماسية عربية موثوقة" في بيروت حول خطر سوفياتي مزعوم لتموينات الأسلحة إلى سوريا. وفي ٢٢ تموز - يوليو، نشرت الـ Daily Telegraph في لندن تحقيقًا صحافيًا عن إنذار سوفياتي خيالي أيضًا إلى سوريا.

أيّدت موسكو محاولات عرفات الواضحة أكثر فأكثر للحصول على احترام عالميّ. عام ١٩٧٩، دُعي إلى اجتماع للأممية الاشتراكية في فيينا وبدأ حملة دبلوماسية باتجاه الدول الأوروبية. عام ١٩٨٠، اتفقت دول المجموعة الاقتصادية الأوروبية (لكن ليس الولايات المتحدة) أنّه يجب أن تأخذ منظمة التحرير دورًا في المحادثات حول السلام في الشرق الأوسط، أعلن الوزير البريطاني للشؤون الخارجية اللورد كارينغتون: "إنّ منظمة التحرير كماهي ليست منظمة إرهابية". دعّم نجاح عرفات في محاولته لتفريق الولايات المتحدة عن حلفائها الأوروبيين، صورته كثيرًا في موسكو. عام ١٩٨١، أعطى بريجنيف منظمة التحرير اعترافًا دبلوماسيًا نهائيًا. حين هاجمت إسرائيل قواعد منظمة التحرير في لبنان عام ١٩٨٢، كان المركز مشوّشًا

أكثر فأكثر بسبب تقارير استعلامات عن لقاءات سرية بين زعماء منظمة التحرير ورسميين أميركيين. وشك بأنّ عرفات يفسح مجالاً لجهود الغربيين التي أحسّت بها موسكو بقسوة لإبعاد الاتحاد السوفياتي عن التسوية في الشرق الأوسط، فوجئ غورديفسكي بأنّ عرفات لم يعد يُلقّب في البلاغات السوفياتية الرسمية بـ "رفيق" ممّا يعني على الأكيد انتقاله من وَضْع "الحليف الاشتراكي" إلى وَضْع "القومي البورجوازي". وقال المسؤول عن مديرية الشرق الأوسط في وزارة الشؤون الخارجية، أوليغ ألكسييفيتش غرينفسكي، إلى دبلوماسيين وضباط استعلامات سوفيات في اجتماع حضره غورديفسكي في سفارة لندن عام ١٩٨٣، إنّ موسكو لم تعد تثق بعرفات. مع الوقت، تأمّل بانتصار العناصر الماركسية و "التقدّمية" في منظمة التحرير. رغم ذلك، كان عرفات الوحيد القادر على المحافظة على وحدة منظمة التحرير، واستمرّ الاتحاد السوفياتي بدعمه علنيًا دون حماس.

هدفت السياسة السوفياتية في الشرق الأوسط خلال عهد بريجنيف إلى تشكيل كتلة "معادية للإمبريالية" ضد إسرائيل وحاميتها أميركا. خلال القسم الأكبر من السبعينات، أقامت موسكو مع العراق العلاقات الأكثر حميمية. فوقّعت مع هذا البلد معاهدة صداقة عام ١٩٧٢، بعد فترة قصيرة، عقد الـ K.G.B اتفاق ارتباط مع مخابرات بغداد. عام ١٩٧٧، كانت العلاقة وثيقة لدرجة أنّ العراق أصبح البلد الوحيد في العالم غير الشيوعي الذي توقّف فيه التجسّس السوفياتي: قام المركز بسابقة لا مثيل لها فأمر كلّ المراكز بإيقاف كلّ عملية استعلامات تستهدف أهدافًا عراقية. وتلقّت المراكز التي تستخدم عملاء عراقيين الأمر بتنحيتهم إلى وضع "الاتصالات الرسمية" على أن يُجدّد نشاطهم إذا ساءت العلاقات السوفياتية ـ العراقية. وعانت العلاقات المميّزة مع المخابرات في بغداد من ارتجاج جدّي في نيسان ـ إبريل ١٩٧٩ حين راح صدام

حسين يعتقل ويعدم العديد من الشيوعيين العراقيين. وأُمرت مراكز الـ K.G.B سريعًا بتجديد نشاط عملائها القدامى. تعقّدت العلاقات أيضًا حين هاجم صدام إيران عام ١٩٨٠ وبدأ بحرب الخليج. وقرّرت موسكو مساعدة حليفها سرًّا. وأكّد نيقولاي فلاديميروفيتش شيشلين وهو خبير معروف في سكرتاريا اللجنة المركزية ومستشار غورباتشوف المستقبليّ، لغورديفسكي أنّ خطّ السير المتحفّظ لإعطاء الأسلحة إلى العراق دُرس بحذر شديد حتى أنه من المستحيل فَرْضيًا تشكيله من جديد.

سعت موسكو أيضًا لإدخال سوريا، جارة ومنافسة العراق، في المعسكر المعادي للإمبريالية في الشرق الأوسط، حتى أنها أعطتها أسلحة أكثر من العراق. وتمتدح مذكرات غورميكو كثيرًا رئيسها حافظ الأسد: "إنه زعيم قويّ ومتبصر، مُحترم في العالم العربي وفي الخارج وقد أدرك دائمًا أهمية الصداقة السوفياتية ـ العربية... أنيق، تظهر على وجهه أحيانًا شبه ابتسامة ويمكن أن يبدو متغيّر الأطوار قليلاً لكنه، في الواقع، يملك سيطرة قوية للغاية على نفسه"...

وكان المركز يثق بكثير من مسؤولي المخابرات السورية الذين أقام معهم علاقات خلال السبعينات.

عام ١٩٧٩، أنشئت مديرية ٢٠ جديدة في الـ PDG من أجل الإشراف على العلاقات مع الدول "التقدّمية" الخارجية عن الكتلة السوفياتية، مثل سوريا، بالإضافة إلى مبعوث الـ K.G.B المقيم في دمشق.

أمّا الحليف الإيديولوجيّ الأقرب للاتحاد السوفياتي في العالم العربي فهو الجمهورية الديمقراطية الشعبية اليمنية (اليمن الجنوبية) الماركسية جهرًا المُنشأة بعد رحيل البريطانيين عن عدن عام ١٩٦٨. حسب خبرة غورديفسكي، فقد اعتبر المركز اليمني رغم ذلك مزعجًا دائمًا. كانت المهمة الرئيسية لمقرّ الـ K.G.B المهمّ مراقبة

المراقبات والصراعات من أجل السلطة داخل الحزب القائد، الحزب الاشتراكي اليمني. وخشي المركز دائمًا أن تستغلّ المملكة العربية السعودية غناها الكبير من أجل قَلْب النظام الماركسي[1].

أمضت موسكو عدة سنوات لتكوّن رأيًا في العقيد معمّر القذافي الذي استلم السلطة في ليبيا بعد انقلاب عسكريّ عام ١٩٦٩. كان المركز عاجزًا عن تقويم خلطه بين الإسلام، والاشتراكية، وذُعر من محاولاته شراء قنبلة ذرية من الصينيين.

تأثرت موسكو أيضًا بالغنى النفطي الكبير الذي يسمح للقذافي بدَفْع ثمن مشترياته من الأسلحة السوفياتية. وحدث منعطف في العلاقات السوفياتية ـ الليبية خلال زيارة إلى موسكو عام ١٩٧٤ قام بها ذراع القذافي الأيمن المقدم جلّود الذي وجدته موسكو أكثر توازنًا وتعليلاً، في نهاية الرحلة، أعلن بلاغ "تشابه أو تقارب وجهات نظر الاتحاد السوفياتي والجماهيرية العربية الليبية حول المشاكل العالمية الأكثر أهمية". تبعت ذلك سلسلة من العقود الضخمة للتسلّح جلبت للاتحاد السوفياتي في ١٠ سنوات ٢٠ مليار من الدولارات بالعملة الصعبة. وتستنتج سيرة حياة حديثة للقذافي أنه "يجمع الأسلحة كما يجمع الأطفال الطوابع البريدية، حتى تصبح مشترياته من الأسلحة عبئًا حتى على الاقتصاد الليبي رغم موارده النفطية". ترقد دبابات جديدة غير مستعملة في عنابر في طرابلس؛ وتبقى طائرات حربية سوفياتية معظم الوقت تحت الأغطية لعدم وجود طيارين لقيادتها وتقنيين لتعهّدها..

حوالي ١٩٧٩، وُقّع اتفاق سريّ سوفياتي - ليبي حول الاستعلامات والأمن تبعه تعيين ضابط ارتباط من المديرية ٢٠ في سفارة طرابلس. أعطى الـ K.G.B دروسًا

١ - في أيار - مارس ١٩٩٠، تخلّت اليمن الجنوبية عن الماركسية اللينينة واندمجت بجارتها الجمهورية العربية اليمنية من أجل إنشاء جمهورية اليمن.

مبدئية لضباط الاستعلامات لليبيين في معهد أندروبوف، ونصائح بخصوص وسائل الأمن والمراقبة في ليبيا، وأبلغ معلومات عن نشاطات الأميركيّين في شرقي المتوسّط، بالمقابل، أوصلت ليبيا معلومات عن مصر، إسرائيل وأفريقيا الشمالية، كما ساهمت في عمليات الـ K.G.B الموجّهة ضد الدبلوماسيين الغربيين في طرابلس. وانخفض مستوى التعاون السوفياتي ـ الليبي في بداية الثمانينات كلّما ازداد فقدان الثقة بالقذّافي، وسبّبت الزيارة الأولى لهذا الأخير إلى موسكو عام ١٩٨١ الكثير من الضغينة من الجانب السوفياتي. ووُصف في المركز كمتأنّق متصنّع (Khlychtch) تهدف مواقفة وأزياؤه الغربية عمدًا إلى إظهار التناقض بين قوته الخاصة وضعف بريجنيف.

في نهاية عهد بريجنيف، لم يعد يستطيع التأثير السوفياتي في الشرق الأوسط الاعتماد على أيّ قاعدة صلبة. ولم يعد صدام حسين وعرفات يوحيان بالثقة. وقلق الكرملين أكثر فأكثر من التقارير حول دور "صاحب عرائس" الإرهاب العالمي المنسوب إلى القذافي وبدأ يبتعد متجنّبًا كلّ قطيعة رسمية. خلال اجتماع خاصّ لدبوماسيين وضباط في الـ K.G.B في لندن عام ١٩٨٤، وصف ألكسندر بوفين المسؤول السياسي عن الـ Izvestia القذافي بـ "المجرم والفاشي". كانت علاقات الـ K.G.B أكثر علاقات الاتحاد السوفياتي الخاصة التي استمرّت في العالم العربي. فقد بقي ضباط ارتباط المديرية ٢٠ فعّالين في سوريا، في العراق، في ليبيا وفي اليمن الجنوبية.

في الشرق الأقصى، بقي الهمّ السوفياتي الأوّل خلال السبعينات استيعاب الصين الشعبية، وبما أنه لم يكن سعيدًا بإنشاء متراس حربيّ على جبهة جارته الشمالية الطويلة، سعى الكرملن لإحاطتها في جبهتها الجنوبية بزنار من الدول الموالية للسوفيات. لذلك ذُعر الكرملن من دلائل التقارب الواضحة أكثر فأكثر في بداية

السبعينات بين بكين والنظام الستاليني الجديد لكيم إيل سونغ في كوريا الشمالية. عام ١٩٧٣، توقّف الاتحاد السوفياتي عن تسليمه الأسلحة، وأصبحت الصين للمرة الأولى مصدر بيون بيانغ العسكري الرئيسي. وأُعلمت الوكالة السوفياتيّة للاستعلامات العسكريّة أنّ الكوريين يغطّون علامات المصانع السوفياتية بشعارات أخرى مدهونة للإيهام بأن التجهيزات من صُنعهم.

في قلب الـ K.G.B، نُظر إلى ادعاءات كيم إيل سونغ الأكثر فأكثر عبثية بمزيج من الغضب والاحتقار. واعتُبرت التفاهات اللامتناهية "لفلسفته" في المركز كسلسلة من النصوص المُضحكة، وصارت الأسطورة المصونة بعناية عن "الرفيق كيم إيل سونغ المنتصر دائمًا، ذي الإرادة الحديدية والقائد اللامع" خلال الحرب العالمية الثانية، موضوع سخرية خاصة. وحسب سير حياة كيم الرسمية ـ التي تعدّت بحماقتها وتزلفها كل ما أنتجته روسيا الستالينية ـ، فقد وَضَعَ منذ سنّ الـ ١٣ خطة عبقرية لتحرير بلاده من الاحتلال الياباني، وأسّس في عمر الـ ١٤ عامًا "أوّل منظمة ثورية شيوعية"، وأصبح منذ سن الـ ٢٠ "جنرالاً شابًا أسطوريًا" قاد حرب العصابات المعادية لليابان في منشوريا، وغَلَبَ أخيرًا اليابانيين خلال حملة رائعة للغاية في آب ١٩٤٥.

أخبرينا أيتها الرياح الهائجة العاصفة في سهول منشوريا المتوحشة.

أخبرينا يا ليالي الغابات العميقة الغارقة في السكون،

عن النصير الذي لا مثيل لبطولته،

عن الوطني الذي لا ينطفئ مجده،

الغالي على قلوبنا جميعًا اسم جنرالنا المشهور،

حبيبنا كيم إيل سونغ ذي الصيت الخالد.

بدت "أنشودة الجنرال كيم إيل سونغ" هذه مثيرة للسخرية أكثر فأكثر بالنسبة لرجالات المركز سيّما وأن الـ K.G.B علِم أنّ كيم لم يكن موجودًا حتى في كوريا في آب ـ أغسطس ١٩٤٥! ففي حين تحرير القوات السوفياتية للبلاد، كان هذا الأخير يخدم كملازم أول في الجيش الأحمر في روسيا وكعميل للـ K.G.B. وبدعم من وزارة أمن الدولة السوفياتية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) التي ذكرت عمله من أجل الاستعلامات السوفياتية، عُيّن عام ١٩٤٦ رئيسًا للجنة الشعبية الموقتة لكوريا الشمالية التي سلّمتها قوات الاحتلال السوفياتية إدارة البلاد.

خلال السبعينات، أطلق كيم إيل سونغ حملة كبيرة تهدف إلى "تأجيج الحماسة الثورية لكلّ شعوب العالم في الصراع ضد أميركا وضد الإمبريالية". ولم يكتفِ بإرسال مستشارين عسكريين إلى أكثر من ٣٠ بلدًا فاقتنع بحماس بتصدير الإرهاب. وتلقّى المركز تقارير عديدة تقول إنّ كوريا الشمالية تحضّر مجموعات من المغاوير جاؤوا من بلدان مختلفة مثل المكسيك وألمانيا الفدرالية لمهاجمة مطارات، طائرات، قطارات وأهداف أخرى، كما تجنّد في داخل التجمّع الكوري الموجود في اليابان إرهابيين من أجل عمليّاتها الخاصة. وكانت المهمة الرئيسية للإرهاب الكوريّ الشماليّ زعزعة كوريا الجنوبية بمختلف الوسائل، من بينها حملات ضد الطبقة السياسية. وهكذا قاد كيم ووريثه المُعيّن، المتعاظم "القائد العزيز كيم يونغ إيل" عمليات ضد رئيس كوريا الجنوبية...

عام ١٩٦٨، قامت وكالات بيونغ يانغ بحملة ضد القصر الرئاسي في سيول؛ عام ١٩٧٤، حاول ياباني أصله كوري اغتيال الرئيس ففشل لكنه قتل زوجته. وفي عام ١٩٨٣، قُتل ١٧ عضوًا من بعثة حكومية كورية جنوبية مقيمين في رانغون بواسطة

قنبلة موجّهة عن بُعد ـ لكن الرئيس نجا منها بسبب التدابير الأمنية المشدّدة للغاية المتخذة من قبل الشرطة السياسية لكيم إيل سونغ...

واجه مقرّ الـ K.G.B في بيونغ يانغ صعوبات في الحصول على المعلومات. لذلك وُجّهت معظم عمليات الـ K.G.B ضد كوريا الشمالية انطلاقًا من عواصم خارجية يملك فيها نظام كيم سفارات... في الغرب، كان المركز الرئيسي للعمليات اسكندينافيا التي يوجد في عواصمها الأربع، مفوّضيات كورية شمالية (لم يكن يوجد منها في مواضع أخرى في أوروبا إلاّ في فيينا ولشبونة). أكثر مقر سوفياتي نجح هو مقرّ كوبنهاغن وله اتصالات مفيدة في نفس الوقت مع "الصداقات الدانماركية ـ الكورية الشمالية" المؤسَّسة عام ١٩٧٦ ومع الحزب الاشتراكي الشعبي وهو زُمرة شيوعية أرسلت إلى بيونغ يانغ بعثة في السنة نفسها. هكذا اكتشف مقرّ كوبنهاغن أنّ البعثات الدبلوماسية الكورية الشمالية في اسكندينافيا أُخطرت بأنّها لن تتلقى عملات صعبة حتى إشعار آخر وأنّ عليها تغطية نفقاتها بواسطة بَيْع المخدرات ومختلف المنتوجات المعفيّة من الضرائب في السوق السوداء... في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧٧، هنّأ المركز السفير المقيم ميخائيل بيتروفيتش ليوبيموف من أجل نوعية الـ ١٧ تقريرًا التي أرسلها حول كوريا الشمالية خلال السنة السابقة وأعلمه أنّ ثلاثة منها أُخضعوا للبوليتبورو.

في نهاية السبعينات، لم تختفِ المخاوف السوفياتية من تقارب صيني ـ كوريّ شماليّ. لكنّ الحرب الصينية ـ الفيتنامية، في بداية ١٩٧٩، أيقظت قلق بيونغ يانغ من طموحات بكين بالنسبة لجيرانها. عندئذٍ ابتعد كيم سريعًا عن الصين ووثّق علاقاته بالاتحاد السوفياتي. وقد لعب المركز دورًا في هذا التقارب، رغم استمراره في انتقاد كيم إيل سونغ وكيم يونغ إيل، أعطى عام ١٩٧٩ موافقته على طلب كوريّ شماليّ من

أجل تسليم تجهيزات حديثة للمراقبة وأسلحة مع ذخائرها و... أغلال ذات مفعول سريع.

في شباط ـ فبراير ١٩٨٠، وفي حين قاطعت الصين "يوم الجيش الأحمر"، احتفلت بيونغ يانغ بـ "الصداقة العسكرية" التي تجمع الجيوش السوفياتية والكورية الشمالية.

***

خلال السبعينات أيضًا، تواجدت في أفريقيا الفرص الرئيسية لانتشار النفوذ السوفياتي في العالم الثالث. فقد أوصل انهيار الأمبراطورية البرتغالية وسقوط الأمبراطور هيلاسيلاسي، إلى السلطة أنظمة تعتبر نفسها ماركسية ـ لينينية في ثلاث دول أفريقية مهمّة: أنغولا، الموزمبيق وأثيوبيا. في أنغولا، أغنى ممتلكات البرتغال، تبعت نهاية النظام الاستعماري عام ١٩٧٥ حرب مدنية على مستوى عالٍ: واجهت الحركة الشعبية لتحرير أنغولا وهي ماركسية، الجبهة الوطنية لتحرير أنغولا والاتحاد لتحرير أنغولا الكامل.

بعد محادثات بين زعيم الحركة الشعبية لتحرير أنغولا أغوسطينو نيتو ومقرّ الـ K.G.B في لوزاكا، في آب ـ أغسطس ١٩٧١، بدأ الاتحاد السوفياتي بتسليم أسلحة بكمية كبيرة عن طريق مرفأ برازفيل. وكان وصول القوات الكوبية خلال صيف ١٩٧٥ العاملِ الحاسم في الصراع من أجل السلطة. وفي شباط ـ فبراير ١٩٧٦، اعترفت منظمة الوحدة الأفريقية بنظام الحركة الشعبية لتحرير أنغولا حُكمًا شرعيًا في أنغولا. رغم أنّ موسكو ـ التي أعطت الأسلحة والطيارات للنقل ـ حبّذت التدّخل الكوبيّ، فالمبادرة جاءت من هافانا. رأى كاسترو في هذا التدخّل وسيلة ليفرض نفسه كقائد ثوري كبير على الساحة العالمية وليؤجّج الحماسة الثورية الهامدة عنده.

رغم أنّ الـ CIA أعطت أموالاً للاتحاد لتحرير أنغولا الكامل، لم تجرؤ واشنطن، بعد الفيتنام، على معارضة الوجود الكوبيّ جديًّا.

أُرسل ضابط الاستعلامات في الحركة الشعبية لتحرير أنغولا لمدة سنة لإعدادهم في معهد أندروبوف. في المركز، اعتُبر نيتو نفسه الذي ذهب إلى موسكو مرات عديدة ليتابع علاجًا طبيًا، متقلّبًا وعاجزًا عن السيطرة على صراعات الزُمر داخل الحركة الشعبية لتحرير أنغولا، لكن لم يظهر أيّ وريث محتمل وصادق، وتلقّت مراكز الـ K.G.B في أفريقيا السوداء الأمر بمراقبة التنافسات الداخلية في قلب الحركة الشعبية جيدًا والتهديدات ضد زعامة نيتو.

مع صراعات الزُمر والفوضى الاقتصادية والاستياء الشعبي، تلاشت المثالية التي أُثيرت في البداية بالنضال في سبيل الاستقلال الأنغولي. عام ١٩٧٧، سحق نيتو محاولة انقلاب. وفي ١٩٧٨، طرد رئيس وزارئه وثلاثة من نواب هذا الأخير، ولمساعدته على مراقبة المنشقين، أنشأ ضباط في مصلحة الأمن في ألمانيا الشرقية مصلحة أمن هي إدارة الاستعلامات والأمن الأنغولية (DISA) ووُضعت تحت الإشراف الشخصي للرئيس.

في ١٩٧٩، أرسلت المديرية ٢٠ الجديدة في المركز في موسكو ضابط ارتباط إلى السفارة السوفياتية في لاوندا. بطلب من أنغولا، ذهب فاديم إيفانوفيتش تشيرني، وهو زميل سابق لغورديفسكي في كوبنهاغن، لينصح إدارة الاستعلامات والأمن الأنغولية في المسائل الأمنية. ويثير مَيْل هذا الضابط للمشروبات القوية وقلة خبرته في مسألة الأمن الشك في صحّة هذا الاختيار. لم يمكث طويلاً بعد أن زلّت قدمه فانكسرت ذراعه. قال لغورديفسكي إنّه، رغم مغامرته المزعجة، حصل على وسام من الحركة الشعبية لتحرير أنغولا. وحسب خبرة غورديفسكي، يمثل شيرني عددًا

معيناً من ضباط الـ K.G.B الذين يُرسلون لنُصح أنظمة "تقدمية" لم تعد موسكو تثق بها.

بعد موت نيتو في مستشفى في موسكو عام ١٩٧٩ من تدرُّن سرطاني، تدهور الوضع أكثر. وبدعم من أفريقيا الجنوبية، أنشأ الاتحاد لتحرير أنغولا الكامل قاعدة صلبة في جنوب البلاد. ووصفت تقارير الـ K.G.B المرسلة من لاوندا في بداية الثمانينات إدارة الحركة الشعبية بأنها منقسمة بشكل يائس والوضع الاقتصادي بالمُفجع. استقبلت المديرية الأمميَّة العالمية في اللجنة المركزية أيضًا الأمر ببرودة. وتنبّأ على حدة أحد مستشاريها الأساسيين، وهو ن. ف. شيشلين، بأنّه يمكن لصعوبات الحركة الشعبية أن تجبرها على البحث عن تسوية مع أفريقيا الجنوبية.

تشابهت السياسة السوفياتية في الموزامبيق وفي أنغولا، باستثناء التدخّل العسكري الكوبي. أعطت موسكو أسلحة لجبهة تحرير الموزامبيق (FRELIMO) بقيادة سامورا ماشل الذي وصل إلى السلطة خلال صيف ١٩٧٥. ومثل الحركة الشعبية لتحرير أنغولا، أرسلت جبهة تحرير الموزامبيق وحدات سنوية من ضباط الاستعلامات إلى موسكو لمتابعة تأهيل في معهد أندروبوف.

وفي الموزامبيق كما في أنغولا، ساعد مستشارون في مصلحة أمن ألمانيا الشرقية على إنشاء مصلحة أمن، هي المصلحة الوطنية للأمن الشعبي (SNASP) التي كانت تتخلّص من المنشقين بإرسالهم إلى مخيّمات عمل مسمّاة رسميًا "مراكز إزالة الاستعمار العقلي".

كما في لاوندا، عيّنت المديرية ٢٠ في الـ PDG ضابط ارتباط في السفارة السوفياتية في مابوتو. في البداية، وضع المركز أكبر الآمال في ماشال لا في نيتو. خلال حرب الاستقلال، ظهر كقائد حرب عصابات حادّ الذهن وكزعيم سياسيّ

موهوب. في بداية الثمانينات، كانت تقارير الـ K.G.B والسفارة، رغم ذلك، أكثر غموضًا منها في حالة أنغولا. عام ١٩٨١، أقام ماشا "حملة قانونيّة" تهدف إلى وضع حدّ للفساد ولاستخدام التعذيب من قبل المصلحة الوطنية للأمن الشعبي، وطرد بعد عام ٤٦٦ ضابطًا من هذه المصلحة. وتأثّر المركز سلبيًا بذلك. وشكّل تقرير سفارة مابوتو السنوي لعام ١٩٨٤ الذي انتشر بشكل واسع في سفارات سوفياتية أخرى وفي مراكز أخرى للـ K.G.B، أحد الهجومات الأكثر قساوة التي رآها غورديفسكي ضد حكومة في العالم الثالث. اعتُبرت إدارة جبهة تحرير الموزامبيق مقسومة، غير كَفُوءَة وفاسدة. وأُظهر اقتصاد الموزامبيق وكأنّه مُدمّر، وأظهرت الحكومة والمؤسسات وكأنّها مفكّكة. لم يكن رجوع جبهة تحرير الموزامبيق إلى الاشتراكية سوى صورة بلاغية وتقدّمت الحركة المنافسة، وهي المقاومة الوطنية في الموزامبيق المدعومة من أفريقيا الجنوبية، إلى الأمام.

رغم تشاؤمه، فوجئ المركز حين عَلِمَ بتوقيع معاهدة عدم الاعتداء في نكوماتي، في آذار ـ مارس ١٩٨٤، بين جبهة تحرير الموزامبيق وأفريقيا الجنوبية. وخشي أن يكون ثمن مَنْع الموزامبيق من الانزلاق نحو الغرب مرتفعًا للغاية بالنسبة للاتحاد السوفياتي.

للإنصاف يجب الإضافة أنّ الأنظمة الأفرقية المافوق صحراوية المعتبرة ماركسية ـ لينينية لم تكن تحتكر الإدارة الاقتصادية السيئة.

في زائير القريبة، حصل الرئيس موبوتو ذو الفساد الأسطوريّ على مئات الملايين من الدولارات كمساعدة أميركية فقط بسبب معاداته للشيوعية. وفي حين كدّس موبوتو ثروة شخصية تساوي تقريبًا دَيْن زائير الوطني، افتقر سكان أنغولا والموزامبيق.

في حرب العصابات الأفريقية الرئيسية المضادة للإنكليز خلال السبعينات في النضال من أجل الاستقلال ضد النظام الأبيض لأيان سميث في روديسيا (التي أعلنت نفسها مستقلة عن بريطانيا العظمى عام ١٩٦٥)، راهنت موسكو على الحصان السيء. فروبرت موغابي، وهو زعيم ماركسي حاذق من اتحاد زمبابوي الأفريقي الوطني سيصبح في ما بعد أوّل رئيس وزراء في زمبابوي المستقلة عام ١٩٨٠، ارتكب خطأً لا يغتفر بإعلانه أنّه "ماركسيّ ـ لينينيّ ذو توجه ماويّ". عندئذٍ دعم الكرملن "الوطني البورجوازيّ" يواكيم نكومو واتحاد زمبابوي الشعبي الأفريقي. أثناء ما قبل الاستقلال، بلغت التوريدات السوفياتية من الأسلحة الثقيلة إلى قوات اتحاد زمبابوي الشعبي الأفريقي في زامبيا حدًا جعل الرئيس الزامبي، كينيث كوندا، المذعور من الإيداعات الضخمة في بلاده، يطلب التوقّف. قاد نكومو الأساسيّ من المفاوضات حول المعدات الحربية في لوساكا بواسطة السفير السوفياتي فاسيلي غريغوريفيتش سولود فنيكوف الذي كان، حسب اعترافه، معتبرًا بشكل عامّ "مشتركًا مع الـ K.G.B". كان سولودوفنيكوف، وهو كاتب للعديد من الأعمال حول أفريقيا ومتعاون بالاتفاق مع الـ K.G.B، أحد أهمّ الخبراء السوفيات في المسائل الأفريقية: "كان رجلاً جذابًا للغاية، وقد تفاهمنا جيدًا على الصعيد الشخصي. كان، على الأخصّ، محترفًا كثيرًا، وإذا قدّمت له طلبًا، يمكنك أن تثق أنه سيكون موضع اهتمام وعناية اللجنة المختصة في موسكو وأنّ القرار سيصل دون تأخير".

كان لنكومو مع أندروبوف ما أسماه "مكاتبة فعّالة" بالإضافة إلى لقاء في موسكو على الأقلّ حول "إعداد مِلاك الأمن". أرسلت مصلحة التجسّس الكوبية أيضاً إلى اتحاد زمبابوي الشعبي الأفريقي مستشارين في الاستعلامات. بعد الاستقلال، خشي المركز أن يكون رئيس الوزراء الجديد روبرت موغابي حاقداً على الاتحاد السوفياتي بسبب

الدعم الذي قدّمه لمنافسه ، فأرسل مناشير الى المراكز في أفريقيا، في لندن وفي أماكن أخرى يطلب فيها معلومات مفصّلة حول موقفه تجاه الاتحاد السوفياتي.

خلال الخمس سنوات من كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٦ حتى كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨٠، بلغت توريدات الأسلحة السوفياتية إلى أفريقيا السوداء مبلغ ٤ مليارات دولار تقريباً أي عشر مرات أكثر من مجموع كامل التوريدات الأميركية...

في نهاية السبعينات، بعد أن فقدت أوهامها بالنسبة لحركة تحرير الموزامبيق، وبعد أن راهنت على الحصان السيء في زمبابوي، نقلت موسكو آمالها الى إثيوبيا حيث استلم السلطة مجلس سياسي عسكري ماركسي بغير وضوح هو الديرغ، عام ١٩٧٤، مع رئيس الدولة والقائد العامّ المقدّم منغيستو هيلا مريام.

في فترة أكثر توريدات الأسلحة السوفياتية إلى إثيوبيا خلال شتاء ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ في وقت حاسم من الحرب مع الصومال، كانت طائرة نقل عسكرية تهبط كل ٢٠ دقيقة خلال أكثر من ٣ أشهر. قدّر بـ ٢٢٥ عدد الطائرات المشاركة في هذه العملية المُنظّمة بفضل قمر صناعي للاستكشاف العسكري. في الوقت عينه، نُقل ١٧,٠٠٠ كوبيّ من أنغولا عن طريق الجوّ للانضمام إلى ١,٠٠٠ مستشار عسكري سوفياتي و٤٠٠ ألمانيّ شرقيّ مكلّفين بإعداد وحدات استعلامات وأمن داخليّ... وبسبب تكاثر الوجود العسكري السوفياتي في إثيوبيا، لعبت الوكالة السوفياتية للاستعلامات العسكرية دوراً أهمّ من الـK.G.B في مادة الاستعلامات.

رغم ذلك، عام ١٩٧٩، أرسلت المديرية ٢٠ ضابط ارتباط إلى أديس أبابا، كما أتت مجموعات ضبّاط استعلامات إثيوبيون إلى معهد أندروبوف للتأهيل لمدة سنة. مع ذلك، ظهر منغيستو مخيباً للآمال مثل نيتو أو ماشل. بعدعشر سنوات من وصوله إلى السلطة، كان الاقتصاد الإثيوبي على حافة الإنهيار، وعرف ملايين الأشخاص الجوع

ولم يكن يوجد أيّ حدّ للحرب ضدّ الصومال، والانشقاقيين من أريتريا ومن تغريا (Tlgré).

في نهاية عهد بريجنيف، وضع المركز آمالاً أيضاً في المؤتمر الوطني الأفريقي الذي قاد المقاومة ضد نظام الأبارثيد في أفريقيا الجنوبية. وبعد أن مُنع في البلاد وبعد أن عجز عن الحصول على الأسلحة من الغرب، استدار المؤتمر الوطني الأفريقي بشكل مُعْلَن نحو الكتلة السوفياتية. واعتبر الكرملن أنّ فشل الأنظمة الماركسية ـ اللينينية في أنغولا، في الموزامبيق وفي إثيوبيا يعود إلى عدم وجود حزب شيوعي منظّم. ولعب الحزب الشيوعي الأفريقي الجنوبي الموالي للسوفيات بوضوح دوراً مهمًا داخل إدارة المؤتمر الوطني الأفريقي في المنفى. فسبعة من أصل ٢٢ عضواً في المجلس الوطني التنفيذي في هذه الحركة ينتمون إلى الحزب الشيوعي الجنوب أفريقي في بداية الثمانينات على الأرجح، لا سيّما نائب رئيسها يوسف دادو، رئيس الحزب الشيوعي الجنوب أفريقي، والرئيس المساعد للفرع العسكري في المؤتمر الوطني الأفريقي، جوسلوفو الذي كان، خلال فترة طويلة السكرتير العامّ للحزب الشيوعي الجنوب أفريقي. وحُثّ الـ K.G.B على تجنيد عملاء في المؤتمر الوطني الأفريقي بينما لم يُسمح له بالقيام بذلك داخل الحزب الشيوعي الجنوب أفريقي. وكانت العلاقات مع هذا الأخير من اختصاص المديرية العالمية في اللجنة المركزية للحزب، لكن الـ K.G.B كان يعطي بانتظام أموالاً للحزب الشيوعي الأفريقي الجنوبي كما للمؤتمر الوطني الأفريقي.

بين أواسط عام ١٩٨٢ وكانون الثاني ـ يناير ١٩٨٣، منح غورديفسكي يوسف دادو مبلغ ٥٤,٠٠٠ ليرة للحزب الشيوعي الأفريقي الجنوبي و١١٨,٠٠٠ ليرة للمؤتمر الوطني الأفريقي. حين وصل المال إلى مركز لندن، وضع غورديفسكي

قفازات لسحب رُزم بنك موسكو... واستقبل دادو بحرارة في ١٨، كينسيغتون بارك غاردنز من قِبل الحزب ألكسندر فيدوروفيتش ايكيمنكو وهو متعاون مع الـ K.G.B.

كان غورديفسكي يعطيه المال مقابل إمضاء استلام مختلف للحزب الشيوعي الأفريقي الجنوبي وللمؤتمر الوطني الأفريقي. وبدل أن يضع المال في محفظة، كان من عادة دادو أن يوزّعه في كلّ جيوب بذلته ومعطفه. ويُفاجأ غورديفسكي برؤية جسده النحيف يتكوّر بسبب الدلارات التي ملأ بها جيوبه. بعد ذلك، يعود إلى بيته ماشيًا دون أن يخشى ظاهريًّا من سرقته في الطريق...

ورغم أنّه وجد تقدير الزعيم الأفريقي الجنوبي لنقائص النظام السوفياتي تبسيطًا، فقد احترم غودريفسكي دائمًا شخص دادو، لم يصرف أبدًا أيًا من السندات التي يحشو بها جيوبه على نفسه، وعاش حياة تقشّف مكرّسة تمامًا للنضال من أجل التحرير في أفريقيا الجنوبية. بعد موته عام ١٩٨٣، توقّف مركز لندن عن نَقْل الأموال إلى المؤتمر الوطني الأفريقي وإلى الحزب الشيوعي الأفريقي الجنوبي. كانت نقطة الاتصال الرسمية الأساسية مع المؤتمر الوطني الأفريقي هي لوساكا حيث يمضي السفير السوفياتي نصف وقته بلَعِب دور السفير في إدارة المؤتمر الوطني الأفريقي في المنفى. ومُنحت الأسلحة سرّيًا إلى المؤتمر الوطني الأفريقي بواسطة زامبيا، أنغولا وتانزانيا. وكانت ستوكهولم العاصمة الرئيسية في أوروبا الغربية التي حافظ فيها الـ K.G.B على علاقاته مع عملاء من المؤتمر الوطني الأفريقي... فهذا الأخير يملك فيها أكبر مكتب له خارج أفريقيا بالإضافة إلى دعم الرأي العامّ وإلى مساعدات الحزب الاشتراكي الديمقراطي السخية في نضاله ضد الأبارثيد.

لم يأمل المركز أبدًا في أن يتمكن الحزب الشيوعي الأفريقي الجنوبي يومًا من إدارة كلّ المؤتمر الوطني الأفريقي رغم دوره المهمّ في اللجنة التنفيذية. فعلى العكس،

كلّما أصبح الغرب أقل وجلاً في معارضته للأبارثيد، كلّما خشي الـ K.G.B أن يغيّر المؤتمر الوطني الأفريقي تدريجيًا رأيه. في بداية الثمانينات، أُمطرت مراكزه في ستوكهولم، في لندن، في باريس، في روما وفي العواصم الأفريقية التي يملك فيها المؤتمر الوطني الأفريقي تمثيلاً بتعليمات بانتظام يُطلب إليها فيها مراقبة التهديدات المؤثرة في نفوذ الحزب الشيوعي الأفريقي الجنوبي والاتصالات بين الغربيين وإدارة المؤتمر الأفريقي. كان المركز يُذعر سريعًا من أقلّ انزلاق إيديولوجي. بعد فترة قصيرة من وصول غورديفسكي إلى لندن عام ١٩٨٢، بدأ المكتب اللندني للمؤتمر الوطني الأفريقي بإبداء بعض التحفّظ تجاه مقالات مملّة يمنحها ضابط في الـ K.G.B يعمل تحت غطاء مراسل لنوفوستي إلى جرائد أفريقية لتنشرها. وبسبب عجزه عن اعتباره هذه التحفظات ناجمة ببساطة عن النوعية الرديئة لهذه المقالات، فقد استجاب المركز بذعر وأعطى تعليمات إلى مقرّ لندن بمضاعفة الجهود للعثور على أصل التأثير المتعاظم للغرب داخل المؤتمر الوطني الأفريقي.

بسبب عدم وجود علاقات دبلوماسية بين موسكو وبريتوريا - وبالتالي عدم وجود مقرّ شرعيّ للـ K.G.B -، كان يصعب على المركز تقييم نشاطات المؤتمر الوطني الأفريقي في أفريقيا الجنوبية. لكنّه كان يشك جدًا في تأكيدات المؤتمر على طاقته العسكرية وعلى قدرته على إنشاء مقاومة عسكرية فعّالة. كان يعي أيضًا أنّ دعم قاعدة العِرق كزوزا المهيمن في المؤتمر الوطني الأفريقي للحزب الشيوعي الأفريقي أضعف في أفريقيا الجنوبية منه في الإدارة في المنفى. وحسب خبرة غورديفسكي فإنّ موسكو لا تؤثر كثيرًا في خطّ المؤتمر السياسيّ رغم أنّ هذا الأخير يعتمد على الاتحاد السوفياتي في الأساسيّ من تسليحه وفي قسم من ماليّته. حتى ولاء الحَرَس القديم النيوستالينيّ للسوفيات كان غير مجدٍ (يجب انتظار كانون الثاني ـ يناير ١٩٩٠ ليأخذ

تقرير من السكرتير العامّ المحنّك جو سلوفو بعين الاعتبار الإصلاحات في عهد غورباتشيف وليدرك أنّ الحزب الشيوعي الأفريقي الجنوبي اتّبع حتى الآن طريقًا "مشوّهًا") وبشكل متناقض، بقيت الحكومة العنصرية في بريتوريا مفتاح النفوذ السوفياتي في أفريقيا السوداء خلال الثمانينات بالإضافة إلى الذين كانوا مستعدين لإعطائها مختلف أشكال المساعدة في الغرب أكثر من الحكومات الماركسية ـ اللينينية السائرة نحو التفكّك في أنغولا، الموازمبيق وإثيوبيا. ولم يعمل الـ K.G.B من أجل تقدّم القضية السوفياتية في أفريقيا بقدر ما عمل الرئيس بيتر بوتا وحكومته الوطنية.

رغم ذلك، حافظت موسكو على علاقاتها الخاصة السرية للغاية مع بريتوريا حول تنظيم سوق الذهب والألماس والبلاتين والمعادن الثمينة التي يملك الاتحاد السوفياتي وأفريقيا الجنوبية شبه احتكار عالمي لها. وبسبب طابع هذه الاتصالات الحساس للغاية وبسبب الهيجان الذي يمكن أن يسبّبه الكشف العلني عنها في أفريقيا الجنوبية، ساهم الـ K.G.B بقسم مهمّ في تنظيمها. عام ١٩٨٤، قرّر الكرملن الشروع في محادثات سرية مع أفريقيا الجنوبية لتنظيم السوق العالميّ، في ألمانيا الفدرالية، في فرنسا وفي سويسرا طلبات اسعلامات حول سلسلة من المؤسسات المالية والجمعيّات الأفريقية الجنوبية[1].

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٦١٥ ـ ٦٣٩.

لائحة المراجع

أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ – ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١)

رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟، دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨)

زهر الدين د. صالح، عمليّات وقرصنة إلكترونيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

السادات أنور، البحث عن هوية، منشورات كولينز (لندن، ١٩٧٨)

عبد الناصر جمال، فلسفة الثورة (القاهرة،١٩٥٤)

قبيسي د. بشرى ومخّول موسى، الحروب والأزمات الإقليميّة في القرن العشرين، دار بيسان للنشر والتوزيع (بيروت،١٩٩٧)

مجلّة "المحرّر العربيّ".

هيرش سيمور م.، خيّار شمشوم، الترجمة العربيّة، مكتبة بيسان (بيروت،١٩٩٢)

هيكل محمد حسنين، طريق رمضان، منشورات كولينز (لندن،١٩٧٥)

وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف الناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠)

Adam James, *The Financing of Terror,* New English Library (London, 1988)

Bethell Nicholas, *The Great Betroyal,* Hoddes and Stoughton (London,1984)

Bower Tom, *The Red Web,* Aurum (London,1989)

Cavendish Anthony, *Inside Intelligence* (London,1987)

Colville John, *The Funges of Power,* Hodder and Stoughton (London,1985)

Dawiska *Karen, Soviet Foreign Policy Towrds Egypt,* (London,1979)

Detzer David, *The Brink: Cabun Missile Crisis 1962,* Tomas. Y. Crowel (New York,1979)

Dobson Christopher et Payme Ronald, *War without End,* Sphere Books (London,1987)

Frolik Josef, *The Frolik Defection,* leo Cooper (London,1975)

Gromyko Andrei, *Memories,* Kutchinson (London,1989)

Höhne Heinz et Zolling Herman, *The General Was a Spy,* Edition de Poch, Pan Books (London, 1973)

Kaplan Karel, *Dans Les Archives du Comité Central,* A.Michel (Paris,1978)

Kaplan Karel, *Proeés Politiques à Prague,* Éd. Complexe (Bruxelles, 1980)

Kartun Derek, *Tito's plot Aginst Europe: The Story of the Rajk Conspiracy,* Lawrence and Wishar (Londres, 1949)

Manne Robert, *The Petrow Affair: Politics and Espionnage,* Pergamon (Sydney,1987)

Martin David, *Wilderness of Mirrors,* Édition de Poche, Ballantine Book (New York, 1981)

Mayhew Christopher, *Time to Explain,* Hutchinson (Londres,1987)

Stonehouse John, *Ralph,* Jonathan Cape, (London, 1982)

Szàsz Béla, *Volunteers for the Gallovies,* (London,1971)

Thomas Paul, Le K.G.B en Belgique, Editions J. M. Collet (Bruxelle, 1987)

Ulam Adam B., *Dangerous Relations,* Édition de poche, oxford University Press (New York,1984)

West Nigel, *CGHQ,* Weidenfeld and Nicolson (London, 1986)

Wright Peter, Spycatcher, Viking (New York,1987)

الفهرس